
منى سلامة
بنسيون
عَجَب هانم
رواية
عصير الكتب
ساحر الكتب

# بنسيون عجب هانم






إدارة التوزيع
00201150636488

لمراسلة الدار:
email:P.bookjuice@yahoo.com
Web-site: www.aseeralkotb.com

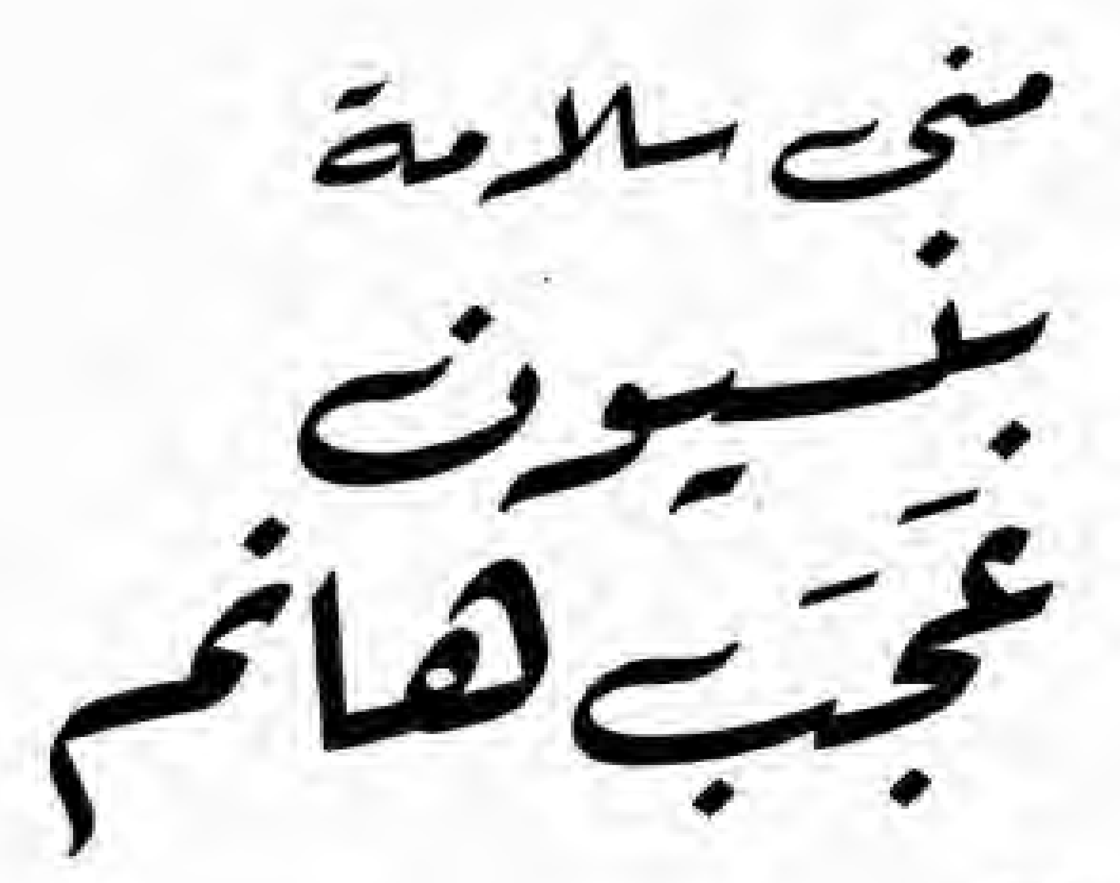
- الطبعة الأولى: يناير 2024م
- رقم الإيداع: 2023/29329م
- الترقيم الدولي: 2-380-992-977-978

- المؤلفة: منى سلامة
- تدقيق لغوي: نهال جمال
- تنسيق داخلي: معتز حسنين علي

الآراء الواردة في هذا الكتاب تُعبر عن وجهة نظر الكاتب
ولا تُعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة © لدار «عصير الكتب»
يحظر طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية
أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي من الناشر فقط

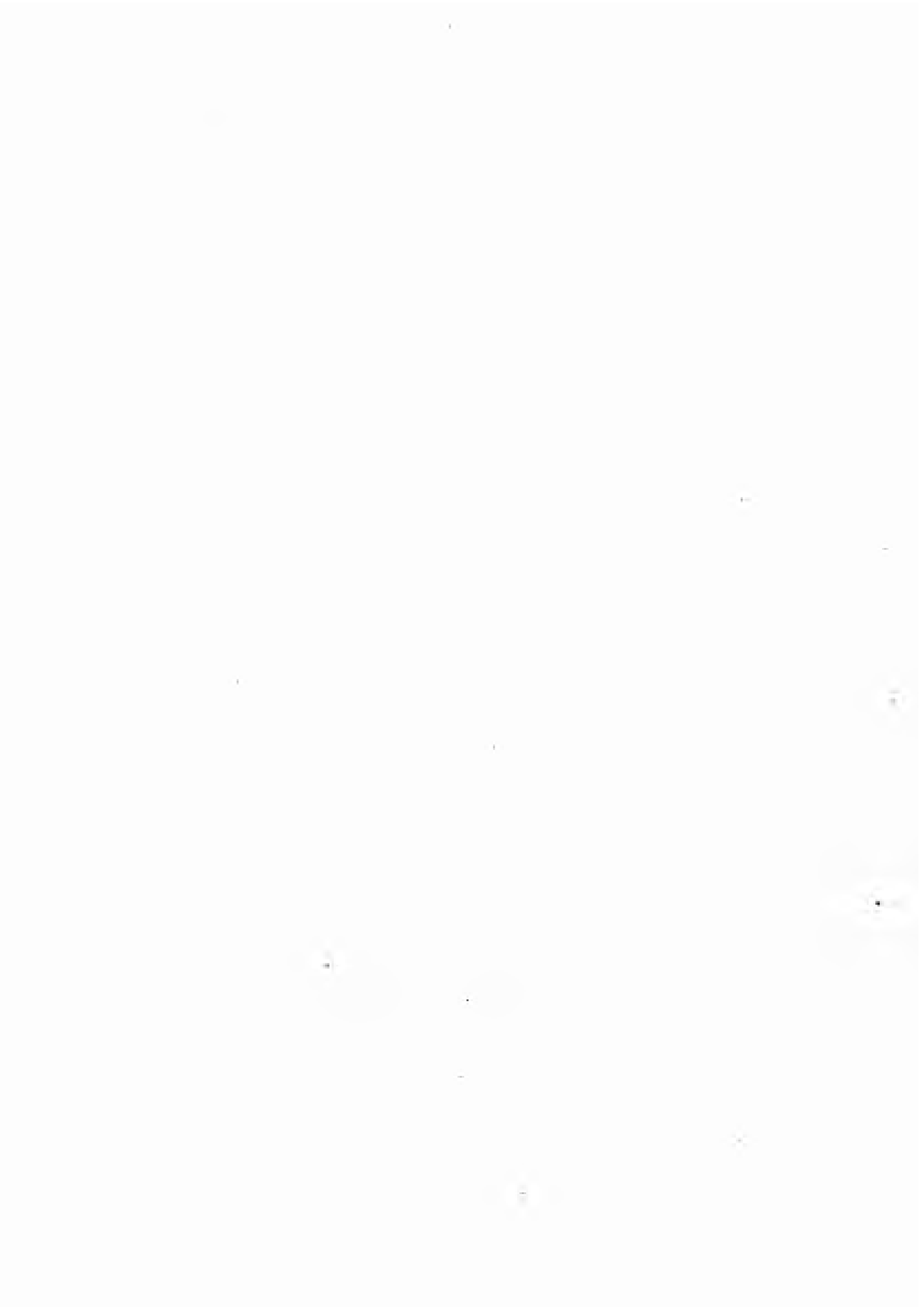





رواية







خبر صغير، بكلماتٍ مقتضبة،
في جريدة أسبوعية، لم يقرأه أحد.



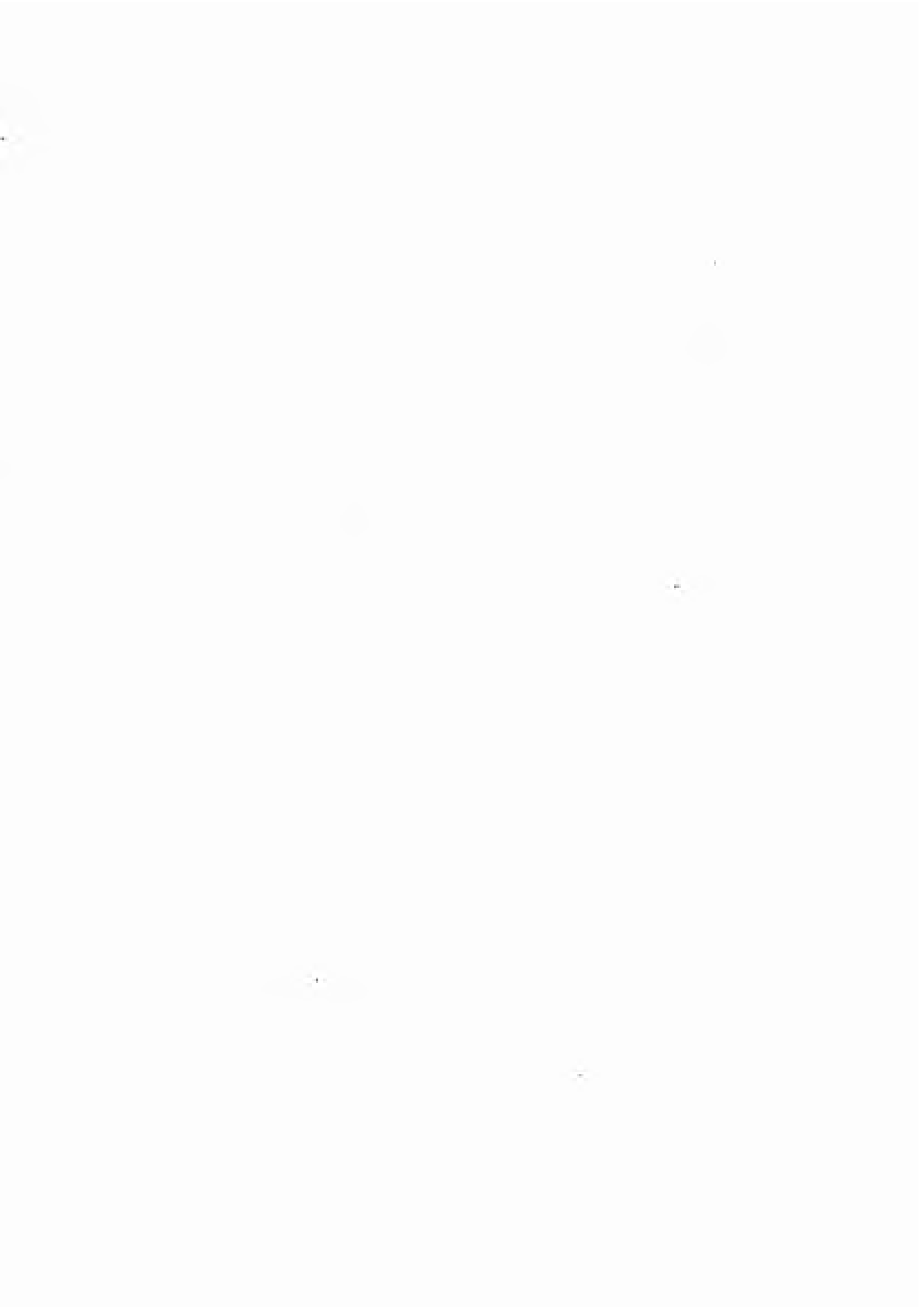
العثور على مومياء رجل الثلج «أوتزي»

19 سبتمبر 1991م

*في طبقة متجمدة بأعالي جبال الألب، على الحدود بين النمسا وإيطاليا، عُثِر على أقدم مومياء بشرية مُحنَّطة بالثلج عرفها العالم، لرجل يُرجَّح أنه عاش في العصر النحاسي، أي قبل أكثر من خمسة آلاف عام، مات في الخامسة والأربعين من عمره، طعنًا برمحٍ أصاب صدره من الخلف، ولا تزال جهود العلماء تتكاتف للوصول إلى المزيد من المعلومات عن رجل الثلج «أوتزي».*



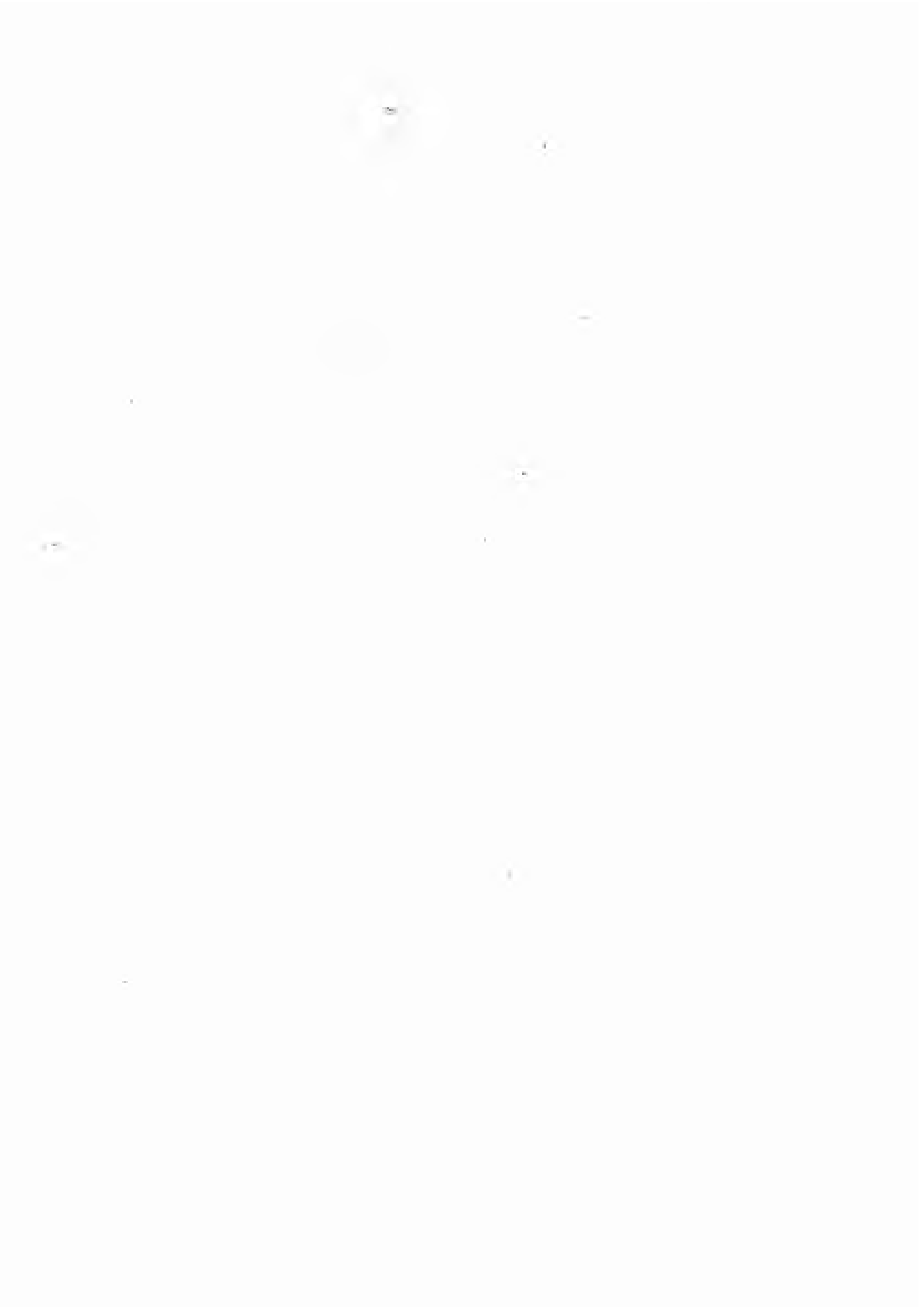
أشعِل مصباحًا صغيرًا ذا إضاءة دافئة،
أرجئ بؤسك إلى الغد، انتزع من كبد الحياة اللاهثة
بضع ساعات، حضِّر مشروبك المفضَّل، ثم اتبعني.



لا بالبارود ولا بالنار،

تُستعبَد العقول بجُذوة من الأفكار.

- منى سلامة



# (1)

# الاثنين - 12 أكتوبر 1992م - 1:30 صباحًا

كل شيء جاهز حسب الخطة.

الممرضة «عنايات» قبلَت الرشوة تحت مُسمى «إكرامية»، نظير مساعدتها للعروس على الهرب من عنبر (أ) بالمصحة، وإخفائها في دولاب المطبخ. أعدَّ الطباخ -زوج الممرضة- جِوالًا من الخيش كان يخزن فيه البصل، به فتحات صغيرة خرقها بطرف السكين، كي تتمكن العروس من التنفس، بعد إخراجها من الدولاب ووضعها في الجِوال. وتعهَّد جامع المُخلَّفات بحمل الجوال سرًّا، فوق عربته الكارو ذات الحمار العنيد، لتوصيلها حيث ينتظر العريس. المأذون والولي والشهود على أتم الاستعداد، كُلٌّ لأداء دوره المنوط به.

كل شيء جاهز حسب الخطة، عدا فستان الزفاف.

تجاوَز الليل منتصف الطريق صوب الإصباح، مَا كان خروج العروس من مبنى (2) بالمصحة ليكون سَهل المَرام، لولا مُعاونة الممرضة «عنايات»، التي لا تقبل الرِّشى لكنها ترحب بالإكراميات، وما كان بإمكان العروس الاقتراب من السياج الحديدي الذي يطوق المصحة، لولا مُعاونة الطباخ، الذي دسَّ المال في جيب مئزره، دون أن يولي اهتمامًا كبيرًا بالمسميات. فتح لها باب المطبخ الذي يطل على الحديقة الخلفية، وساعدها على عبورها دون أن ترصدها عين.

لا كاميرات مراقبة، جميع العاملين بـ «مصحة الشفاء للأمراض النفسية والعقلية» يعلمون ذلك، فلم يتكبَّد العريس المزيد من المال، في سبيل إخفاء لقطات ترصد لقاءهما المريب، في هذا الوقت الموحش من الليل.

العروس تقف داخل الحديقة الخلفية، والعريس ينتظر على الطرف الآخر، خلف سياج المصحة، أو «السرايا الصفراء» كما يحلو لـ «جمال» أن يُطلق عليها.

ما إن رآها تقبل عليه في توتر ملحوظ، حتى هتف بصوتٍ خفيض:

- «عَيناء» لماذا تأخرتِ؟ ظننتكِ لن تأتي.

ابتهجت للهفته، كيف لا تأتي، وزواجها به هو الحل الوحيد لنجاتها من بيت المجانين هذا، كيف لا تأتي ويده الوحيدة التي امتدت لها بالعون والمؤازرة؟ لم تأبه كثيرًا لكونه عامل نظافة –في الوردية الصباحية– بالمصحة، وكذلك، لا يعنيها فقره، وجهله، وتواضع مظهره، حتى خِلقته الخالية من أي أثر للوسامة أو الجاذبية لم تثر حفيظتها في شيء. هو رجل، أحبها، وأراد إنقاذها، وهذا أكثر من كافٍ لفتاة محكوم عليها بأن تمضي عمرها حبيسة الجدران، وسط المجانين والأدوية وجلسات الكهرباء.

صوت «حميد الشاعري» ينبعث من مكان قريب، رغم خلو الفضاءات المحيطة بالمصحة من البنيان. ترهف «عيناء» السمع، تجاهد في استنطاق ذاكرتها بكلمات الأغنية، تخونها الذكريات، حتى إنها لم تعد واثقة إن كان الصوت لحميد الشاعري أم لمطربٍ جديد، في المصحة محظور عليها سماع الراديو الترانزستور، أو مشاهدة شرائط الفيديو على التلفاز.

يتفرس فيها «جمال»، بقدر ما يسمح له الضوء الهزيل القادم من عمود الإنارة الوحيد في الحديقة. لم تكن مميزة في شيء؛ متوسطة القامة، نحيلة البدن، رتيبة القسمات، تشبه آلاف الفتيات، بل مئات الآلاف، يكاد يقسم إنه قابلها ألف مرة في الطرقات، عند البقال، والفوَّال، وبائع الفِجل والكُرَّات، واصطدم بكتفها غير مرة بمحطات الترام.

عادية كأمه وأخته وابنة الجيران، مهمَّشة مثله؛ اعتاد «جمال» أن يمر في طرقات الحياة فلا تلحَظه عين، أو يستوقفه نداء، من الفئة المنسية التي تعيش وتموت دون أن يفتقدها أحد.

بادرها قائلًا، بريبة لم يخفِها:

- لم تتراجعي عن اتفاقنا، سنتزوج أنا وأنتِ عصر اليوم، أليس كذلك؟

حمل صوته كل اللهفة التي يجيش بها فؤاده، لم ترضَ به فتاة قط، لا اللاتي اختارتهن أمه، ولا اللاتي اختارهن بنفسه؛ رجل لا يملك إلا قوت يومه بالكاد، لا مُلك ولا مال ولا نفحة من جمال. لم يسافر إلى الخليج مع الذين سافروا، لئلا يترك أمه وأخته فريسة فوق مأدبة القيل والقال، ولم يتعلم مع الذين التحقوا بالمعاهد والجامعات، إذ كان جهده كله منصرفًا للعمل والأشغال. اشتغل في كل شيء؛ سباك، وفرارجي، وصبي مكوجي، وعتّال، ومؤخرًا عامل نظافة في «مصحة الشفاء» لمديرها الدكتور «مُستجاب».

مرّت أيامه متشابهات، في القهر واليأس والمعاناة، إلى أن تقاطعت دروبه بدروب مريضة بالمصحة، اسمها «عَيناء».

لا يفهم مصطلحات الأطباء، ويقرأ العربية بالكاد، لا تعنيه أسماء الأمراض التي ألصقوها بها، ولا الخرافات التي وصموها باسمها. هي في تقديره فتاة طيبة، وديعة، لا تستحق النفي داخل هذا البناء البائس، مع نساء يهذين صحوًا ونومًا، يمزقن الثياب، يبعثرن الجمادات، تتخبط الكلمات فوق ألسنتهن بلا مقصد، وتخلو أحاديثهن من المنطق والغايات.

لا تستحق فتاة في ريعان شبابها النفي على قيد الحياة.

بريبة مماثلة، تساءلَت:

- ستنقذني، وتحميني؟ لن تسمح لأحد أن يحبسني مرة أخرى في بيت المجانين هذا، أليس كذلك؟

لا يبدو لها «جمال» كأبطال الأفلام، والأساطير، والحكايات. لا قوة في الجسم، لا وفرة في الصحة، لا رفعة في الشأن، لا استزادة في العلم، لا حكمة ولا دهاء.

وهذا تحديدًا ما استجلب اطمئنانها إليه، واستمطر ثقتها عليه، فسارعت بقبول عرضه للزواج، كحبل الخلاص الوحيد. الأبطال جشعون، نهمون، متطلبون، وهي فتاة مُفلِسة من العطاءات.

- أعدكِ.

- وأنا مستعدة للزواج بك.

أحاطت أنامله برؤوس أصابعها المتشبثة بالسياج، سرَت كلماته دافئة، تمحو الحدود الضاربة بينهما:

- إذًا موعدنا الثانية عشرة ظهرًا. سأسرد عليكِ تفاصيل الخطة من جديد، اسمعيني جيدًا، في الصباح ستخرجكِ «عنايات» من عنبركِ، وتقودك خفية إلى المطبخ، اتفقتُ مع الطباخ على تجهيز جِوال بصل سيخفيكِ بداخله، لا تقلقي، به فتحات تساعدك على التنفس، ستنتظرين فيه حتى يأتي جامع القمامة الذي يمر ظهر الاثنين من كل أسبوع، سيحملكِ مع أجولة النفايات فوق عربته الكارو، ومنها إلى خارج المصحة، انتبهي فهذه اللحظات مهمة جدًا كي لا تفسد الخطة، إياكِ والحركة في أثناء مرور العربة من البوابة الكبيرة، عليكِ أن تبقي ساكنة قدر استطاعتك، اكتمي أنفاسك إن لزم الأمر، إياكِ وأن تثير حركتك ريبة الحارس فيُصر على فتح الجِوال.
- وأنتَ أين ستكون؟
- قريب من المصحة، وبعيد عن الأعين، سائق الكارو يعرف، سيأتي بكِ حيث أكون.
- والولي، والشهود؟
- في تمام الثالثة عصرًا، سنلتقيهم عند المأذون.
- وبطاقتي الشخصية؟ والصور؟
- كل شيء جاهز كما أخبرتك.
- عدا فستان الزفاف.

في عقيدة فتاة مثلها، الفستان الأبيض من المقدسات التي لا يجوز المساس بها، وأحد شروط صحة عقد الزواج. الفستان الأبيض هو التوثيق والإشهار، يقع في مرتبة أهم من القسيمة والأختام.

رمقته تقول بعنادٍ وإصرار:

- لا فستان، لا زواج.

# (2)

# الاثنين - 12 أكتوبر 1992م – 11:45 صباحًا

*الليلة الكبيرة يا عمي والعالم كتيرة*

*مالين الشوادر يابا م الريف والبنادر*

*دول فلاحين ودول صعايدة*

*دول من القنال ودول رشايدة*

*الليلة الكبيرة يا عمي والعالم كتيرة*[1]

في أثناء استلقائها للمرة الأخيرة فوق فراشها بعنبر (أ) بالمصحة، حاولَت «عيناء» الدندنة بأغنية مبهجة، تناسب فتاة مقبلة على الزواج بعد عدة ساعات، إلا أن كلمات هذا الأوبريت ظلت جاثمة على وجدانها، متشبثة بطرف لسانها. اعتادت أمها التسلي بدندنته في مرضها الأخير، متسطحة فوق الفراش تواجه السقف بعينيها، إحدى الطرق البائسة لتستشعر أنها لا تزال على قيد الشعور، رغم المرض، والموت الوشيك.

ودَّت لو كانت أمها حاضرة في هذا اليوم المميز، الذي يعيشه أغلب الناس مرة واحدة في العُمر، أو على الأقل هذا ما يأملونه. ودَّت لو يُسلِّمها أبوها بنفسه إلى عريسها «جمال»، أن يبارك الزيجة ونتاجها، أن يُبدي لها الحب والمُعاضدة، لكن أقصى ما بإمكانها الحصول عليه الآن، زواج سريع كحبل إنقاذ.

---

(1) أوبريت غنائي «الليلة الكبيرة»، من أشهر ما قدمه مسرح العرائس في مصر.

في الصباح، تم كل شيء بسلاسة كما بشَّرها «جمال»، فتح المال كل البوابات السحرية التي مهَّدت لها طريقًا للخلاص.

رغم قسوة ارتطام الجوال فوق العربة الكارو، بعدما حمله الطباخ فوق ظهره، مُتسللًا به من الباب الخلفي للمطبخ، بيْد أنها لم تشعر بالألم، فاق الحماس في فورته أي شعور سواه.

كتمت أنفاسها في أثناء عبور الكارو من البوابة الكبيرة للمصحة، لم تند منها حركة واحدة كما حذَّرها «جمال». نما إلى أسماعها حديث قصير بين سائق الكارو والحارس، بعدما رفض الحمار العنيد التحرك خطوة واحدة.

صوت ضربات السوط فوق ظهر الحمار هو بوابة نجاتها، إن لم يتحرك الحمار سينكشف أمرها. ودَّت لو تتسارع وتيرة الضربات، تشتد قوتها، ويستعر لهيبها فوق جِلد الحيوان الناهِق، المهم أن تنجو بنفسها.

الإنسان متوحشٌ في نفسه، يستطيع أن يرتدي عباءة الحضارة، ويختال بها في أروقة الزمن، حتى تمس الأخطار روحه، ويتعكَّر بها صفو حياته. هكذا فكَّرت «عيناء».

- أرجوك تحرك.

همست بها تناشد الحمار، بغتة تقدم للأمام وكأنه سمعها ولبّى النداء. طفقت العربة تتمايل يمنة ويسرة في حواري منطقة الخانكة وشوارعها، حتى بلغ بها سائقها المكان الموعود.

سارع «جمال» بالقفز فوق الكارو، يُقشِّر عن جسدها جوال الخيش، خرجت من وسط أكوام القذارة مستبشرة، تستهِل حياتها الجديدة مع الرجل الذي أنقذها من مصير أسود، الرجل الذي لا يشبه أبطال الحكايات، لكنه يحتذي بأفعالهم.

- هل أنتِ بخير؟

سألها بقلق أبهجها، ذكَّرها بحب أمها، وخوفها. طمأنته بابتسامة صغيرة وأنفاس متسارعة:

- بخير.

لم تكن بخير كما هي الآن، تحررت أخيرًا من أسر الأدوية والممرضات الغليظات والمعاطف البيضاء، تنسمت عبير الحرية الأولَ، وأناملها تشتبك بأنامل «جمال» طوال الطريق إلى محطة الأتوبيس. لسنواتٍ طويلة كانت بعيدة عن ضوضاء الشوارع، وازدحام الطرقات، الهلع الذي خنق أنفاسها، جعلها تتشبث بذراع «جمال» كطفل يحتمي بوالده. تفهَّم مخاوفها، فأحاط كتفيها بذراعه، يُسيرها فوق الرصيف بعيدًا عن المارة والسيارات، مُتلذذًا بشعور القوة التي أثمرها التجاء أنثى إليه، واحتماؤها به.

في الأتوبيس، عاينَت برهبة كبيرة، وبعينين مترقبتين وجوه الناس وحركاتهم وسكناتهم، حتى استقر ناظراها على رجل يدنو في الزحام من فتاة في عُمر ابنته، في البداية ظنَّته أبًا لها، ثم تبيَّن أمره وأمرها، كانت الفتاة تُجاهد لتبتعد عن مرمى يده العابثة، وجسده المنجذب لجسدها، انجذاب المغناطيس لبُرادة الحديد. رأت دموع الفتاة تحتشد في صمتٍ وقهر، وهي تنزل من الأتوبيس.

امتلأ قلب «عيناء» بالسخَط، والحقد، والغضب، ودَّت لو تذهب للرجل الأشيب تخمش وجهه بأظفارها، أو تمزق يده بأسنانها، وفي هذه اللحظة بالذات، تذكرت أباها، ترى ماذا يفعل الآن؟

تكدس الناس أكثر، طوَّقها «جمال» بذراعيه؛ يمنع احتكاك الركاب بها، من اللحظات الأولى لحياتهما المشتركة يفي بوعده، بأن يكونَ مُنقذها، وحاميها، ورجُلها.

لم تسأله عن وِجهتهما، لم يعنِها سوى أن تُطوى الطرق، وتتباعد المسافات عن المصحة ونزلائها. تطوع هو بإخبارها أنهما سيركبان أكثر من مواصلة، كي ينتقلا من منطقة الخانكة حيث المصحة، إلى حي الجمَّالية في قلب القاهرة.

لم تزُر الجمَّالية من قبل، رغم أنها من سُكان مصر القديمة، تعرف بالسمَع أنه متشعب إلى أزقة عديدة كفروع الشجر، التي تتجمع في ساق واحدة، حيث خان الخليلي، وسوق النحاسين، والصاغة، والجامع الأقمر، وحَوارٍ كثيرة عريقة كخان جعفر، وقصر الشوق، والسنانيري.

في الثانية ظهرًا، كانا في بيت قديم مكون من ثلاثة طوابق بحارة «العطفة الجوانية» بحي الجمّالية، حيث يعيش المأذون وحده في شقة صغيرة تشغل الطابق الثاني. الشهود في الطريق، والولي هو شيخ الحارة الكريم، تطوع لإتمام زواجهما بعدما أخبره «جمال» أنها فرع بلا شجرة، لها أب جشع قطعها عن بدن أبوته، ألقى بها في المصحة ثلاثة أعوام، فقط ليستحوذ على ميراثها من أمها، رافضًا تزويجها بأي رجلٍ كان، فوافق شيخ الحارة على مساعدتها.

- لن أتزوج من غير فستان أبيض.

همست في أذن «جمال»، بعدما رحّب بهما المأذون في بيته، لم يجِبها «جمال» سوى ببسمة صغيرة أنارت وجهه الأسمر، فكتمت غيظًا كبيرًا احتقن به فؤادها، كيف يتجاهل رغباتها؟

أرشدهما المأذون إلى حجرة صغيرة، فتحت الباب ورأت فستانًا ناصع البياض مبسوطًا فوق الأريكة، صحيح أنه بلا طرحة أو ذيل أو جيبونة تنفشه من الأسفل، إلا أن نصفه الأعلى من الستان، متدرج من بعد الخصر بطبقات التُل الناعم، وأكمامه من الدانتيل الشفاف.

رغم تواضعه، كان أجمل فستان وقعت عليه عيناها، أحبته قبل ارتدائه، وهامت به أكثر بعدما طالعت نفسها في المرآة.

- أبدو كالعروس.

همست مبتهجة، دامعة العينين، وقلبها يتذوق السعادة للمرة الأولى منذ زمن بعيد. وجدت قلم كحل بجوار الفستان، فتكحّلت بخبرة ضئيلة في هذا الشأن، قرصت وجنتيها تستدعي حُمرة خفيفة تلوّن وجهها الهزيل.

خفق قلبها لمّا أبصرت النظرة الدافئة في عين «جمال»، يراها كعروس أحلامه، لم يرتدِ بدلة عُرس، لا يملك المال الكافي ليشتري واحدة. ملابسه نظيفة ومهندمة، قميص أبيض وبنطال رمادي من القماش ابتاعهما من وكالة البلح، هذا ما استطاع شراءه بعدما أنفق كل المال الذي حصل عليه من بيع سوار أمه.

عضَّ شفته عندما لاح بذاكرته احتياله عليها لأخذ السوار الذهبي، وكيف أوهمها أنه واقع في ورطة سيكون مآلها السجن. كان مضطرًا إلى المال، لأجل الرّشى وشراء الفستان.

خلعت أمه السوار الذي تحتمي به من أنياب الفقر، ومنحته له عن طيب خاطر، دون أن تسأله عن التفاصيل. قبّل يدها كثيرًا، وعاهدها على أن يشتري لها ثلاثة بدلًا من واحد.

يعرف جيدًا أنه قادر على الوفاء بالعهد، ستصبح «عيناء» زوجته، وسيساعدها على استرداد حقها، والمطالبة بميراثها من أبيها الظالم الجهول، الذي دمّر فلذة كبده وسرق ثلاث سنوات من عمرها جشعًا واعتداءً.

لن تستطيع «عيناء» إدارة أموالها بنفسها، هكذا أخبرته ابتداءً، ستُسلمها له ليشتغل بها في التجارة ويُنمّيها، وعندما يتكسّب المال الحلال من عرق جبينه، سيأتي لوالدته بأضعاف ما أخذه منها بالحيلة، سيُزوّج أخته الكبيرة، ويعيش مع «عيناء» حياة طويلة كريمة.

***

طالب شيخ الحارة الاجتماع بالعروس والعريس، في غرفة موصدة، قبل إتمام إجراءات الزواج. تجاذب أطراف الحديث مع «عيناء»، لم يغِب عن علم «جمال» أن الشيخ يختبر ذكاءها ورجاحة عقلها، يستوثق من تمتُّعها بأهلية الاختيار والقران، ومن صِدق الحكاية التي قصها «جمال» على أسماعه، ليمد يد العون للفتاة التي لا ظهير لها.

أجال الشيخ نظره في العروس، يتفرس فيها وهو يقول:

- أنتِ إذن الفتاة التي حدثني عنها «جمال»، اسمك «عَيناء»؟

تحسُّسها من الغرباء دفع بالاضطراب ليتملك منها، فلم تجِر جوابًا. اندفع «جمال» يقول، وقد خاف من تعثر خطته التي أعدّها لأسابيع:

- نعم سيدنا الشيخ، اسمها...

قاطعه شيخ الحارة بإشارة حازمة من يده، ملتفتًا صوب الفتاة، منتظرًا جوابها. لم تجد بُدًّا من أن تتمتم بكلمات متلجلجة:

- نعم، سيدنا الشيخ، اسمي «عَيناء».

- ما قصتكِ؟ كيف انتهى بكِ المقام في مستشفى للأمراض النفسية والعقلية؟

تضاعف اضطرابها، تتلفت يمنة ويسرة، عادت تواجه الشيخ بوجهها لا بنظراتها، إذ كانت عيناها مصوبتين فوق وجه «جمال»، تسأل:

- ألم يخبرك «جمال»؟

- أريد أن أسمع منكِ يا بنتي.

ليست ممن يجيدون الحديث عن أنفسهم، ولا سيما التفتيش في ماضٍ مؤلم، ووقائع مُهلِكة، تستنزِف منها طاقة الكلام. كيف تروي سنوات وسنوات من القهر والظلم والحرمان؟

قالت باقتضاب، واختصار يُخِل بكل أبجديات السرد القصصي:

- أمي أحبتني كنور عينيها، أبي كرهني منذ ولادتي كما يبغض المرء ألد أعدائه، هكذا بلا دوافع، بلا أسباب، أورثتني أمي كل ما تملك، مشغولات ذهبية وفاخورة كبيرة في منطقة بطن البقرة بالفسطاط، قبل ثلاث سنوات ماتت أمي، فألقى بي أبي في المصحة.

ازدردت ريقها ثم أردفت بنبراتٍ تعزف أسمى آيات الامتنان:

- قبل ثلاثة أشهر قابلتُ «جمال»، الشخص الوحيد الذي ذكّرني أنني ما زلتُ على قيد الحياة.

تفرَّس الشيخ في ملامحها الدقيقة، وقسماتها الوديعة، تتنقل نظراته المتفحصة من يديها لعينيها، يفتِّش عن أمارة واحدة تُنبئه بفداحة ما يوشك أن يقدم عليه، فيعزف عنه في الحال. لم يجد ملمَحًا ينبئه أن الفتاة تعاني خللًا عقليًا؛ هادئة، تتحدث بثبات، ورزانة، وإن كان حديثها مقتضبًا. بقي القليل من الشك يساوره، ويخمش الطمأنينة في صدره، استشعره «جمال» في الحال، فعزم على أن ينكِّه قصتها الهزيلة بما خلاها من عاطفة:

- كما أخبرتك سيدنا الشيخ، أبوها رجل ظالم لا يخشى الله، وإن شئت الدقة فإنه عبد للمال، رمى المسكينة في المصحة ليستولي على ميراثها، أخبرتك يا سيدنا أنني أعمل في المصحة، عامل نظافة، أدخل وأخرج، أسمع وأرى، لم أجد فتاة أعقل منها، لا داخل المصحة ولا

خارجها، لكن الأطباء هناك أبناء ملاعين يقبضون المال مقابل الإبقاء عليها حبيسة في أحد العنابر مع نساء مجانين وبنات مخبولات، المال الذي يلقيه أبوها لمدير المصحة الدكتور «مستجاب» أول كل شهر، حبل يلتف حول رقبة هذه المسكينة، كل ما أريده منكَ أن تساعدني في رفع الظلم عنها، أن تعاونني على إنقاذها، ولك الأجر والثواب من الله.

أزعجها حديثه عن أبيها، ودّت لو تعنفه مطالبة إياه بالتزام الأدب، عند ذِكر أمهر فخراني في منطقة بطن البقرة، لكنها خافت أن تتسبب في إفشال الخطة.

كانت خطة «جمال» بسيطة، وصعبة في آنٍ واحد؛ سيتزوج «عيناء» على يد المأذون، والشيخ الوقور، وبشهادة الشهود، زواج شرعي رسمي، تكفلت «عنايات» الممرضة بإنجاحه؛ أمّنَت هويتها الشخصية من أبيها في مطلع الشهر الجاري، إذ ادعت أنها بحاجة إليها لاستكمال بعض الأوراق الرسمية. أما شهادة الميلاد والصور الشخصية فقد تحصّل عليها «جمال» من ملف «عيناء» بالمصحة، في أثناء تنظيفه لغرفة المدير، قبل أن يحرقه ورقة ورقة. لا أثر للملف الآن.

إذا حاول أبوها الطعن في الزواج، وإيداعها المصحة من جديد، ستدّعي أنها لم تدخلها قط، ستمحو تمامًا آخر ثلاث سنوات من ذاكرتها.

ستكون شهادة الأطباء بغير دليل، إذ دُمِّر كل ما يثبت أنها كانت مريضة في هذا المكان، سيضطر مدير المصحة إلى الرضوخ لإنهاء الأمر بشكل ودي مخافة الفضيحة، يعرف «جمال» جيدًا أن الرجل يولي اهتمامًا فائقًا بمظهره وسمعته، رأس ماله في الحياة.

خطة «جمال» تطلبت منه أسابيع لإعدادها، محكَمة التفاصيل، حسب فيها حساب كل طارئ.

أطال الشيخ في الحديث مع «عيناء»، يسألها في كل شيء، وعن أي شيء، فما وجد منها إلا إجابات سوية، ومشاعر جياشة تمتزج بمظهرها المضطرب، اهتدى إلى ما في عينيها من وهَن وعجز وقلة حيلة.

أعجبه حياؤها، ووقارها، تتحدث إليه ورأسها منخفض، تُجيب على قدر السؤال، لم يجد في كلماتها ما يثير الريبة، ولا في منطقها ما يشين.

يجهل الرجل الغافل المسكين، أن «عيناء» تراقبه من طرف خفي، تتوتر كلما تطرق إلى أسباب احتجازها في المصحة، وكيف اشترك المدير وأطباؤه في هذه المؤامرة التي دفع لهم الأب ثمنها؟

كان الشيخ طيبًا كريمًا، استشعرَت معه دفء الأبوة، ودَّت لو تكون صادقة معه كما هو صريح معها، فتخبره بعلَّتها التي استوجبت احتجازها في المصحة. لا تستطيع أن تفعل، مخافة أن يتخلى عن فكرة مساعدتها، ولربما قبض على يدها بنفسه وسحبها إلى بيت المجانين من جديد.

لا طاقة لها على العودة، إن كان الكذب منجاة فستعاقره، ستفعل كل ما يتحتم عليها كي تحافظ على حريتها. لن تخبر «جمال» بالحقيقة أبدًا، كيف تخبره أن أمها لم تترك لها مليمًا واحدًا؟ كيف تخبره أن سبب احتجازها في المصحة أنها فتاة بلا معدة؟!

هل يُقرن الرجل اسمه بفتاة تغيب المعدة عن أحشائها؟ ربما يفعل لو كانت مبتورة الطرف، أو ذات كُلية واحدة، أو صماء أو بكماء أو حتى صلعاء. لكن بلا معدة! لا وجود لرجل يتقبل ذلك، حتى وإن كان شهمًا كـ «جمال».

كل مرة تُعرّي «عيناء» الحقيقة من قناعها، تعض أصابع الندم بعدها. أبوها والطبيب، ما كان عليها أن تتكشف أمامهما فتبوح بخبيئتها، لن تقع في الخطأ نفسه للمرة الثالثة، لن يعرف أحد أنها امرأة ناقصة، امرأة بلا معدة.

لا يصدقها أحد على أي حال، لا أبوها ولا طبيبها ولا زميلاتها في العنبر، يدَّعون أنها مريضة بالضلالات، وأن ما يملأ رأسها من الأوهام يكفي لتتقاسمه رؤوس بلدة كاملة. كاذبون، مُدَّعون، يعجنونها بأباطيلهم، ويخبزون منها مجنونة كباقي نزيلات المصحة.

من حسن حظها وجود محظور أخلاقي، يمنع إفشاء ما يدور في الجلسات العلاجية بين الطبيب ومريضه، وإلا لعلم «جمال» منذ وقت طويل بسرها، ولنبذَها، وأدار لها ظهر مَحبَّته، كما أدار لها أبوها ظهر أبوَّته.

السعادة لا تُصنَع، ولا تُزرَع، السعادة تُنتزَع نزعًا، هذا ما تعلَّمته «عيناء» خلال سنوات عمرها؛ قررت أن تقتنص السعادة من عين الحياة بالقوة.

دقت ساعة الحائط تشير إلى تمام الثالثة، أخذ كل منهم مكانه حول طاولة خشبية يتوسطها المأذون. تم الزواج بيُسر وخفة، وضع كل منهما توقيعه وبصمة إبهامه فوق ورقة رسمية تُضفِّر أقدارهما معًا.

نظر كل منهما إلى الآخر كطوق نجاة، كفرصة أخيرة لترك الهوامش والسير في منتصف الحياة.

كل شيء كان جميلًا جدًّا، أجمل من أن يكون حقيقيًّا، الحياة ليست كريمة ولا عادلة إلى هذا الحد، هذا ما كان يدور بخُلد «عيناء»، في اللحظة التي انهار فيها كل شيء فوق رؤوسهم؛ الخطة، والأحلام، والبناء!



# (3)

# الاثنين - 12 أكتوبر 1992م – 3:09 مساءً.

لأول خمس ثوانٍ مِن عُمر الزلزال، خُيِّل إليها أن معدتها قد نبتتْ أخيرًا، وأنها تهتز للمرة الأولى بزمجرة مُحبِّبة طلبًا للطعام، مثل وَليد اقتحم الحياة للتو.

من العسير أن تنفق فتاة ثلاثة وعشرين عامًا من عمرها، موارية نقصها عن الجميع وتقاسيه سرًّا. كيف لها أن تُفضي إلى الناس، فتقول: أنا فتاة بلا معدة؟!

ما كان لأحدٍ أن يفهم، وما كان بإمكانها أن تشرح.

تخيَّل لو جاءتك، تُفرغ في أسماعك سرها؛ أن ليس بإمكانها أن تشتهي الطعام، أو أن تشعر بقرصة جوع، أنها امرأة لا تشتهي ولا تجوع، ماذا بربك كنتَ ستُفكر بشأنها؟

لا تسئ الفهم أرجوك، فجميع شهواتها تعمل بالكفاءة المعتادة لجسد في مطلع عقده الثالث، باستثناء شهوة الطعام، منطفئة بالكامل، مثل عمود إنارة على ناصية عَطفة في العشوائيات، ألقمه صبي مشاغب حجرًا. في مراهقتها، لم تكره دراكيولا، أو تعدُّه شخصية شريرة شنعاء، أحبَّت فكرة أن له معدة تشتهي الدماء، ودَّت لو كانت مخلوقة مثله، فتشتهي أي شيء، وإن كان التراب.

تأكل، فقط لأنه ضرورة بيولوجية للبقاء على قيد الحياة. لم تشتهِ الطعام قط، الشيء الوحيد الذي شعرت بالسعار نحوه، كان الحب.

الحب الذي لم يمنحه إياها أحد، إلا أمها و«جمال».

بالأمس قبل أن تلتقي «جمال» عند سياج الحديقة، ابتاعَت بذرة قادرة على إنبات المعدة، من إحدى زميلاتها في العنبر، قايضتها بها، مقابل ثلاث جرعات من الحبوب المنومة، كانت توهِم الممرضة أنها تبتلعهم، فيما تواريهم بحِرفية تحت لسانها. لا بُد أن البذرة قد أتتْ بنتائج طيبة هذه المرة، لم تكن كسَلَفِها من عشران البذور المغشوشة، التي استشفَت بها بغير جدوى، ها هي معدتها قد نبتت أخيرًا لتزاحِم أحشاءها. هكذا فكرت «عَيناء».

لم تدُم بهجتها إلا ثواني قليلة من عُمر التمنّي، وبرأس مُثقل بفرحة الزواج، انتبهتْ إلى أن -لا معدتها فحسب- جسدها كله يرتج؛ رأسها، صدرها، أطرافها، حتى خُيِّل إليها أنها تشعر بالسائل النخاعي يتمخمض في قعر دماغها.

امتد إدراكها عبر ممر الزمكان لتلحظ اهتزاز الطاولة الخشبية، البلاط المغبَّر، الجدران الكريمية متآكلة الطلاء، الستارة الرمادية التي تستدبر شرفة لا وجود لها، واللمبة المشنوقة في منتصف السقف. العالم كله يرتج بعنفٍ، وكأنه خلاط كبير يستعد لعمل عصير كوني.

لم يمنحها الزمن فُسحة للاستجداء، أو مشاركة حناجر الرجال صيحاتهم الملتاعة، آخر ما رأته كان وجه «جمال» ونظراته الضائعة، مدّ كفًا تتمسك بالطاولة، وأخرى نحوها، لم تستطع بلوغها؛ تصدَّع كل شيء بغتة، كأن بيت المأذون بالعطفة الجوانية بحي الجمّالية، كان يقف على ساق واحدة في انتظار عقد زواجها، ليأتي عاليه سافله.

***

تضَعضعَت الأرض تحت قدميها، انقضَّ السقف عليها يدهسها دهسًا، مُعلقة بين السماء والأرض، تتأرجح دون أن تُلاقي طريقًا للخلاص، ظلام يحاصرها من الجهات السِّت.

باغتها مذاق معدني في فمها، وألم حارق في حنايا جسدها رقيق البِنية، مطارق الألم تنهال عليها بضربة رجلٍ واحد، هل ماتت؟ هل يتألم الميت؟ لا تعرف، لم يُحدِّثها أحد عن العالم الآخر، لم تُقابل الموت وجهًا لوجه سوى مرة واحدة، راقبته يومئذ وهو يعمل، بروية وحِنكة. لم يعلِّق منجله الضخم على كتفه كما رأته يفعل ذات مرة في قصة مصورة، ابتاعتها لها أمها من فرشة للجرائد في محيط الموسكي. لم يحصد الموت روح أمها، أو ينتزعها، بل

امتصها مصًا، بفمه الدائري الأسود الطويل كزلومة الفيل، راقبته يومئذ وهو يفعل، بروية وحنكة.

امتص أمها بداخله قطرة فقطرة، حتى صار وأمها كيانًا واحدًا، هكذا تشكَّل جسد الموت من ملايين الأرواح التي أذابها بداخله عبر التاريخ.

راقبت الجارات يُغسِّلن أمها، وضعن قطعة كبيرة من القطن الأبيض في فمها، ربما، ليكتمن صرختها الأخيرة؛ نقمت عليهن، أرادت إخراجها من فمها، فلم يسمحن لها. هكذا فعل أبوها معها يوم ولدت، حشر قطنة كبيرة في فمها، يخنق فيها الصوت، البكاء، الإحساس، ولم تكفِ قوة لإخراجها.

لا تخشى فم الموت الطويل الأسود، أرادته أن يأتي ليمتصها بداخله، كما فعل بأمها، علّها تعثر بين أحشائه على معدة «سكند هاند» لا يحتاج إليها أحد.

***

فاق الألم طاقتها على الاحتمال، حاولت بهمة الساذج دفع الردمِ عنها، وكأنها قادرة بهلعها على زحزحة بناء من ثلاثة طوابق، كانت تتزوج للتو في غرفة ذات طلاء كريمي متآكل بطابقه الأوسط، لم تنل سوى انهمار أمطار التراب فوق رأسها، وتعاظم الضيق والظلام والخَنقة.

انحشر جسدها في موضع ضيق كقبر، مظلم كقدرها، موحش كليلتها الأولى في المصحة. لم تكن معزولة عمن حولها بالكامل، تسربت إلى أسماعها أنّات ونهنهات عملَقتْ هلعها، الكل يُنادي باسمٍ يستنجد به، أو يخاف عليه، إلا هي، كانت جعبتها خالية من الأسماء. ثم تذكرت «جمال»، تعجَّبت كيف نسيته ابتداءً! تنادي باسمه حتى هدَّها التعب. لماذا لا يناديها بدوره؟ أيكون قد ندم على اختيارها زوجة له؟ أيكون قد عزف عنها؟

لم يحبها أحد، لا زميلاتها ولا أطباها ولا الممرضات ولا حتى عاملات النظافة، لا الطير ولا الشجر ولا القمر ولا الحجر، كيف يحبها مخلوق وهي الفتاة التي لفظَها أبوها بأن ألقاها في بيتٍ للمجانين؟ مدعيًا أنها فتاة ملعونة.

إن لم يحبها الرجل الذي خرجتْ من صلبه فمن يحبها إذن؟ صار المذاق المعدني للدماء أكثر حدة في فمها. تهامس نفسها بمرارة:

- «غيناء» ليست ملعونة.

***

ذات مساء، شاهدَت في نشرة أخبار التاسعة على القناة الأولى مبنى متهدمًا، كانت شاشة التلفاز الصغير في غرفة أمها وأبيها، تبث الدمار الباعث على الفزع. يومها عرفت أنّ ما يزلزل سطوح الأرض، هو بخار ريحي أو ناري قوي، طاقة متراكمة تتحرك تحتها، وتلك كانت المرة الأولى التي تكتشف فيها قاسمًا مشتركًا بينها وبين مخلوق ما، هي والزلزال نتاج حركة غير طبيعية في باطنهما، شاذة، وغير مرغوب فيها. هكذا فكّرت وهي تُبلل شفتيها الجافتين بلسانها.

- «جمال» أين أنتَ، لماذا لا تُجيبني؟ لا تمُت، أنا أحتاج إليكَ كثيرًا، لا تفعل بي ذلك أرجوك.

تلطُم، تصرخ، ولا مُجيب. يضيق عليها قبرها الصغير، يشح الأكسجين، تمر قافلة الساعات حاملة على ظهرها الدقائق والثواني، في رحلة ذهاب بلا عودة. تُفكر في النوم لتنحر الوقت، تخشى أنْ يمتص الموت روحها في غفلة منها، ربما لو ظلت متيقظة وبكامل إدراكها سيهاب الموتُ صمودها، ويُعرض عن امتصاصها. صحيح أنها تتمنى أن تعثر بداخله على معدة صالحة للاستهلاك الآدمي، لكن ليس الآن، ما زالت صغيرة لتموت.

تحب العيش، يليق بها أن تنصهر في الحياة خارج المصحة؛ الأطباء لم يسمحوا لها، يزعمون أنها مُعتلّة اجتماعيًّا، مضطربة السلوك، شحيحة العواطف، لا تُميز بين الصواب والخطأ. يدَّعون أنها تمثل خطرًا على نفسها والآخرين، هُم المُعتلون لا هي، رددت هذا داخليًا بغيظ شديد.

تحركت بصعوبة كي تُحسن من وضعية الجنين، التي شكّلها التجويف من حولها. هدَر عقلها يخمن، كيف انهمر المبنى المهيب فوق رؤوسهم؟ هل امتدت من بطن السماء يد عملاقة دكّته دكًّا؟ أم خرج من باطن الأرض مارد من نار اخترقه فزلزله؟ أم لطمه ذيل مخلوق خرافي استدعته زميلتها النوبية سليلة الساحرات ليلة أمس؟

فجرًا، بعد لقائها القصير مع «جمال»، كانت تُدندن بكلمات أوبريت «الليلة الكبيرة»، عندما استرقت النظر إلى زميلتها السمراء في الفراش المجاور، التي تعتمر قبعتها السوداء الطويلة، تجلس القرفصاء بين الفراشين، وتهمس بكلمات نوبية غير مفهومة.

انسلت «عَيناء» من تحت غطائها، واقتربتْ منها مباغِتة:

- لو رأتكِ سِت الممرضة مستيقظة في هذا الوقت لعنّفتكِ، ماذا تفعلين بالتراب والماء، وهذا الوشاح، ما هذه المواد نفاذة الرائحة؟ ثم أليس هذا شمعًا وكبريتًا؟ تعرفين أنه غير مسموح بإشعال النار.
- ششششش، سيسمعوننا.

شاركتها الجلسة السرية وهي تتلفت حولها بريبة، تستوثق أنهما بمعزل عن أعين الممرضات المترصدة. ثم أمرتها «عَيناء» وهي تختزل المسافة بين وجهيهما:

- أخبريني إذن.
- إنها تعويذة، علمتني إياها جداتي الساحرات.
- كيف؟
- زرنني في حلم الليلة الماضية.
- حلم!
- ششششش، اخفضي صوتك، ألم أخبركِ أن للأحلام بوابات سحرية تعجن الزمان والمكان ثم تخبزهما في أفران المنام، تأخذ بيد أصحابها فتنقلهم إلى عوالم لا تُشبه عوالمنا الأرضية، لكنها في الوقت ذاته تشبهها؟ في حُلم الليلة الماضية عبرتُ إحدى البوابات، والتقيتُ أسلافي من الساحرات، قدَّموا لي وليمة عظيمة من لحم الغِزلان، أعدَّها خمسة من الجِملان، أُولاهُم من سلالة زوجينِ نجوَا من الطوفان بأن رافقا نوح في السفينة، وثانيهم ابن كبش مات وهو يحاول الصعود للسماء كي يمكث طويلًا ثم يتنزَّل منها في موقف مهيب، مثل كبش فدى الله به إسماعيل، وثالثهم ابن نعجة مِغناج لها خمسة من الأزواج، ورابعهم بلا جلد ولا صوف، لحمه للعانس والعاقر موصوف، أما خامسهم فالابن الأصغر لكبيرة الساحرات، بتعويذة لئيمة لا تعرف للأبجدية تشكيلًا، استحال الـ «حمْل» إلى «حمَل» من باب التنكيل.

انسابَت الكلمات من شفتيها بلحنٍ أصيل، وهي تُثقب سبابتها بطرف ظفر قرضته بأسنانها، لتسيل قطرة من دمائها، تمزجها بباقي المواد في وعاء. سألتها «عَيناء» شاعرة بأقصى درجات الإثارة:

- وماذا تفعل هذه التعويذة التي أخبرتكِ بها جداتك الساحرات؟
- تستدعي مخلوقًا خرافيًا من بطن الأساطير، يُقال له «العفريت».

- وما عمل هذا الـ «عفريت»؟
- يهدم العوالم القبيحة ويبني غيرها.

تؤكد «عيناء» أن العالم قبيحٌ بما يكفي لاستدعاء مخلوق أسطوري لهدمه، إلا أنها تشك بعض الشيء في قدرة زميلتها النوبية، في عنبر (أ) بمصحة الشفاء لصاحبها دكتور «مستجاب»، على استدعاء مثل هذا المخلوق الرهيب، الذي يُفني عوالم ويخلق آخرى، فهي في النهاية لا تعيش في عصر الشعوذة والخرافات، بل في أوائل تسعينيات القرن العشرين، حيث وصل التقدم العلمي إلى ذروته.

قطعت زميلتها السمراء شرودها، تنثر فوق جرحها مِلحًا:

- ألم يلقِ بكِ أبوكِ في بيت المجانين بيديه؟ ألم يدّعِ أنكِ مجنونة لا تستحقين العيش في الخارج؟ ألم تُفسد جلسات الكهرباء جسدك وعقلك وروحك؟ ألم يفعل زوجي المِثل كي ينهَب أموالي وينفقها على ملذاته كيفما شاء دون مُساءَلة؟ من بربكِ المجانين ومن العقلاء؟ هم أم نحن؟ هذا العالم قبيح يا صديقتي، لا يُصلحه التّزين بمستحضرات التجميل الاصطناعية، لا حل معه سوى الهدم، ثم البناء من جديد.

تقافزتْ أمام عينيها الكثير من الثنائيات: خير وشر، حب وبغض، عقل وجنون، بر وبحر، أرض وسماء، هدم وبناء، نعم، هدم وبناء، لكي نبني عالمًا، علينا أولًا أن نهدم آخر. ربما لم تكن زميلتها ساحرة حقيقية حفيدة لساحرات متمرسات يلقنَّها التعاويذ في مملكة الأحلام، لكنها أوقدتْ في نفسها شرارة أمل صغيرة، زاحمَتْ أفكارها حتى دخلت الممرضة السمينة تفض جلستهما السرية، وتدس الدواء في فمها فتتشوش أفكارها.

وها هي الآن تشهَد هدمًا حقيقيًا، مؤلمًا ومروعًا، تراه الآن كظلمات المحَّار الذي يسجن اللؤلؤ بين جدران الزمن، وفي الوقت المعلوم، يبصقه بين يدي فضاء جديد.

ما العالم سوى محّار كبير، ترسَّبت فوقه الأرذال الأقذار، هي الآن محشورة بين صدفتيه، وعلى وشك الخروج لؤلؤة جميلة تخلب الألباب.

اصبري يا «عيناء»، اصبري قليلًا بعد.

***

لماذا لم يحبها أبوها؟

هل لأنه عرف من النظرة الأولى أن ابنته بلا معدة؟ كانت تتقيأ كل ما يدخل جوفها مِن زاد، تنفر من حليب أمها، لا تشرب سوى الماء، الكثير من الماء، بل الكثير الكثير من الماء. لا تبكي كأي طفل حديث الولادة، طفل يبكي أمر مزعج، لكن الأكثر إزعاجًا، طفل لا يبكي.

- لماذا هذه البنت لا تصرخ حين تجوع، لماذا لا تأكل؟

كانت تسمع أباها يتساءل بغضبٍ لا بقلق، بينما أمها عاجزة عن منحه جوابًا شافيًا.

لم يملك أبوها ما يكفي من الجرأة –أو لعله الحرص– لينظر إلى بؤبؤ عينها ويخبرها أنه لا يحبها، لكنها تعرف. أمها أحبتها، بنواقصها، وزلاتها، وجهلها، وفشلها. الأمهات يحببن أطفالهن بلا شروط، أما الآباء فيحتاجون إلى سبب كي يفعلوا، هكذا تؤمن، وطوال ثلاثة وعشرين عامًا عجزت أن تمنحه سببًا.

بينما ساق هو إليها ألف سبب كي لا تحبه، حين أفرغ على جسدها الهزيل غضبته مخلفًا خارطة من الكدمات، إذ كسرتْ إناءً فخاريًا كان قد انتهى للتو من صناعته. حين رفض أن يعلمها حرفة صناعة الفخار، رغم أنه أمهر فخراني بين أقرانه. حين سلبها الكتاب والكرّاس، ومرافقة زملائها كل صباح إلى المدرسة. حين حرمها الماء ثلاثة أيام عقابًا على ذنب لا تعرفه.

وقبل ثلاثة أعوام، في اليوم التالي لوفاة أمها، حين أخرجها من غرفتها يسوقها إلى الشارع، ثم يُلقي بها في المصحة، كان بإمكانها أن تكرهه كما كرهَت فم الموت الطويل الأسود وهو يمتص أمها بداخله. لكنها لم تفعل.

ما زالت تتذكر وهي في عمرٍ صغير، كيف كانت تقبض نظراتها المستقصية على أصابعه العابثة، وهي تتحسس طريقها صوب أجساد النساء، ببراعة لم ترها إلا في قدرة الموت على امتصاص الأرواح، كان أبوها أيضًا يمتص ما شاء له من اللذة الممنوعة.

حين تخلو الفاخورة إلا منه وإحدى زبائنه من الجنس الناعم، يعمد إلى التقرب من المرأة في أثناء الحديث، أو وكزها بمرفقه في حركة تبدو بريئة وعفوية، كما فعل ذو الشيب اليوم في الأتوبيس. عندما تُبدي المرأة سذاجة أو غفلة، كانت أصابعه ترسم طريقها صوب بدنها، وإذا صاحت المرأة بغتة تسبه وتلعنه، كان يرفع عقيرته طاعنًا المرأة في شرفها، مدعيًا أنه الضحية

لا الجاني، واصفًا محاولتها الخبيثة لإغوائه، فتضطر المرأة إلى لملمة غضبها والرحيل مخافة الفضيحة. و«عيناء» تراقب كل شيء بعين صقر من طرفٍ خفي، تراقب وتصمت. تقول في نفسها: *أبي ليس شريرًا، إنها يده، تتحرك دون وعي منه، يده الآثمة لا هو، تتحسس أجساد النساء، تصفع أمي، وتُغلق عليَّ الأبواب.*

رغم كل ذلك فهي تحبه، بل مريضة بحبه، ولا أحد في هذا العالم الفسيح سيحبها ملء فؤاده إن لم يفعل هو أولًا، لا «جمال» ولا أي رجل سواه. فكرة قهرية تُلح على عقلها، لا تستطيع الفكاك منها، كزميلتها في العنبر التي تؤمن أن مخزون العالم من الصابون لا يكفي لتنظيف وجهها أبدًا.

الأفكار القهرية، تكسر غرور الإنسان كفاعِل، بصَلبه في خانة المفعول به.

***

تحت الأنقاض، ورغم مصابها، غمرتها فرحة بِكر، حين تذكرت أنها قد تزوجت للتو، صارت امرأة في عصمة رجل.

لم يكن من الصعب إيقاع «جمال» في مصيدة الزواج، كان من النوع الذي يمضي في الحياة بحثًا عن واحدة، أراد أن يُصطاد، أن يكون فريسة لأي شبكة غير الفقر والوحدة والتهميش.

أطلقت ضحكة عالية، كلفتها قدرًا كبيرًا من الأكسجين الشحيح في المكان. قالت بحماسٍ وهي تمسح بظهر كفها عبرة فرحة:

- سأنجو من هنا، سأذهب إلى أبي مباشرة وأخبره أن ابنته فتاة طبيعية، رغَّبَت رجلًا فيها، ودفعته للزواج بها، وقتها سيحبني، سيعانقني لأول مرة.

حانَ وقت مخاض المحّار، دفعها الحماس لأن تحفر بأظفارها وسط الركام؛ باحثة عن مَخرج.

- وسأخلصه من يديه الآثمتين، وقتها، سيحبني أكثر!

***

# (4)

# اليوم التالي للزلزال



الأهرام

زلزال مدمر يهز مصر ٦٠ ثانية عصر أمس

مبارك قطع زيارته للصين فور علمه بنبأ الزلزال ويعود إلى القاهرة اليوم

مصرع ٣٦٨ مواطنا بجميع المحافظات وإصابة ٢٥٠٠ وانهيار وتصدع ١٨٢ منزلاً

الرئيس يأمر بسرعة صرف الإعانات لأسر الضحايا والمصابين ويتابع الموقف أولا بأول

١١٠٠ خيمة لإيواء المتضررين وإسعافات طبية للضحايا

تأكيد سلامة كافة مرافق الخدمات والمنشآت الأساسية

صدقي يرأس لجنة تضم ١٠ وزراء لمتابعة الموقف

مع إعلان حالة الطوارئ في البلاد لم يغفَل للقاهرة عين، مضت تمسح بحنانها فوق جبين رجال الدفاع المدني، وهم يتكاتفون لرفع الأنقاض، تُنفض الأسى عن أكتافهم وهم ينقبون عن الجثث والأطراف، تترقب بلهفة أن يصيح أحدهم:

- ثمة أحياء هنا.

نصبَ الليلُ خيمته في أحراش السماء، ألقى فوق القاهرة ثوب الحداد، وأشعل شمعة هزيلة في ساحات الرثاء. طافت القاهرة تريق كؤوس السكينة على قلوب أبنائها، تنسل بين الجموع التي تفتش عن الأحباء، أو بقاياهم، فتمد لهم أملًا. تقطف عَبرة من عين صبي فقد أبويه للتو، وتسقي به نبتة يانعة، تأمل أن تكون ثمرتها غدًا حلوة في فمه. تقف في باحات المشافي

تستقبل الضحايا بالمدد، تمسح فوق قلوب ذويهم بأيادي الإحسان، تركض هنا وهناك، تبث من أعينها ملايين الرُّسُل لاستطلاع أمر الخلق في اللحظة نفسها.

خاف الناس عودة الزلزال، لا تزال تبعاته ترج الأرض من حين لآخر، هربوا من بيوتهم ودكاكينهم إلى رحابة الميادين الكبيرة، يتشاركون مع أسرهم الزاد والمكان، ويتقاسمون كسرة صغيرة من الأمان، حتى شقشق صباح الثلاثاء.

راقبتهم القاهرة بإشفاق، مساكين، يحسبون أنهم في الخلاء آمنين، لا يدركون أن الزلزلَة قدرهم منذ أن خلق الله الأرض وما عليها. زلزال الأرض مُهلِك ومدمِّر، أما زلزال الأفكار البالية مُنقِذ ومُعمِّر، وحدهم المستبصرون يشعرون بتلك الرعشة بين ضلوعهم، دون حاجة إلى ريختر ومقاييسه.

سجلت مقاييس ريختر 5،8 درجة، لم يكن رقمًا دقيقًا لتأثير الهزَّة، إذ إن التصدعات في صدروهم تُنبئ عن درجة مهولة، لا يتمكن مقياس أرضي من إحصائها. زحف الرعب صوب قلوبهم، حطَّ متاعه ونصب خيمته، غير عازم على المغادرة.

لم تغفل القاهرة أيًا من أبنائها، حتى ذاك الرجل الذي سيولَد بعد أربعة أيام من بطن الزلزال!

آه، حسنًا، كان هذا سابقًا لأوانه.

***

في حارة «السكَّر والليمون» بمصر القديمة، اخترق المشهد الصباحي، سيارة فيات 128 بيضاء، موديل 90، دنَت من جمهرة الناس حول مبنى متصدع على شفا الانهيار. من مقعد السائق ترجَّلت امرأة في الخامسة والعشرين، ممشوقة، مليحة، عقصت شعرها البني كعكة بمؤخرة رأسها، في عجالة تنبئ به شعيراتها المنفلتة بعشوائية. ترتدي بنطالًا من الجينز الحمضي (أزرق x أبيض)، واسع، عالي الخصر، وبلوزة مشجَّرة واسعة، ربطتها من الأمام في عُقدة. يتدلى من رقبتها شريط أسود في نهايته كاميرا كوداك رقمية إصدار

مايو 1990، ذات عدسات أحادية عاكسة، ونظام احترافي DCS[1]، تُعد الأولى من نوعها تجاريًا. لم يكُن الرائي بحاجة إلى ذكاء كبير ليُدرك أنها صحفية.

- ممنوع المرور يا مدام.

تشنجت عروق رقبتها إثر النبرة الزجرة لرجل الدفاع المدني، عدَّلت من وضع نظارتها الشمسية، عسلية الإطار كبيرة العدسات. صوَّبت له:

- آنسة من فضلك.

- ممنوع المرور يا آنسة.

- الأستاذة «أنهار أبو عوف»، أنا هنا لأغطي خبر هذا المبنى المتصدع لجرنال «الحياة»، وأنتَ الآن تعيق عمل فرد من السلطة الرابعة.

تستل الكارنيه من حقيبتها البيضاء الجلدية اللامعة، وتبرزه في وجهه. لم يولِه اهتمامًا يُذكر، كان مرهقًا بشدة، لساعاتٍ دؤوبة لم يذُق غمضًا. أشار لها متبرمًا كي تمر، ثم عاد ليُلحم كتفيه بأكتاف أفراد الحماية المدنية، يصيح في الناس:

- إلى الخلف مِنْك له.

لم يكن ما قالته «أنهار» للتو سوى كذبة، لم يكلفها الجرنال الذي تعمل فيه بمهمة تغطية أخبار المبنى الآيل للسقوط في حارة «السكّر والليمون»، إنما جاءَت لغرض في نفسها.

شعرت بسَكينة لا تشعر بها عادة إلا في المنطقة العشوائية التي تتعدد أسباب تسميتها، البعض يقول إنها استقَت اسمها من أيام محمد علي باشا، حين مرَّ على المنطقة بفوجٍ كبير لافتتاح «مجرى العيون»، فما كان من أهل المنطقة المستبشرين إلا أن وزَّعوا الليمونادة على المارة، وآخرون يقولون إن أثرياء الحارة قديمًا اعتادوا ملء الأزيار بالسكر والليمون، يوزعون منها على الفقراء وعابري السبيل.

تعددت الأسباب والنتيجة واحدة، ذكرياتها في هذا المكان حلوة كالسكَّر، لاذعة كالليمون.

---

(1) Distributed Control System

نزعت «أنهار» نظارتها العسلية، رمت المبنى بنظرة لوعة، كأنها تودع حبيبًا للمرة الأخيرة، تمسح بنظراتها فوق تشققات ملأت وجهه، وتعاريج قسمت ظهره. تحفظ كل شبر من هذا البناء، وبخاصةِ الشقة الرابعة بالطابق الثاني إلى اليسار. كم كان صامدًا شامخًا فيما مضى، حتى وإن كان بسيطًا متواضعًا في موازين سوق العقارات. ودَّت لو تذكرته على هذه الشاكلة أبد الدهر، لكن أنياب الزمن مزقته، ومطارق الأرض زلزلته. لم يعد البيت الذي تعرفه، كما لم تعد هي الطفلة التي يعرفها.

- «أنهار»! ماذا تفعلين هنا؟

انتفضت إثر لمسة رجل لذراعها، لوهلة دار رأسها، وتصاعد الغثيان من معدتها إلى حلقها؛ ظنتها واحدة من تلك اللمسات الخبيثة العابثة المقتحمة لبدنها، التي لا يُمكن أن تتوقع متى وأين وكيف ستتعرض لها، في شارع أم أتوبيس، طابور أم مصعد، من شاب أم كهل، قريب أم غريب.

- أفزعتني يا «نزيه»!

«نزيه الليثي»، شاب عشريني، فضولي، متحمس، كما يليق بصحفي تحت التدريب أن يكون، كلفها رئيس التحرير بتدريبه، لا لأنه رأى فيه نابغة سيعود على الجرنال بالمنفعة، بل لأنه ابن صديق عزيز، كما كانت هي ابنة صديق عزيز، فهذا الجرنال يولي اهتمامًا كبيرًا بكل عزيز!

بدت متبرمة وهي تقوم بدور المرشد لـ «نزيه» المدلل، المعتد بنفسه، الذي لا يفقه شيئًا عن عالم الصحافة، ويعد عمله بها مغامرة لا أكثر، مثل رحلة سفاري في شرم الشيخ، لكن لا يمكنها هي بالذات أن تلعن الوساطة.

كانت لا تزال تشعر بدوار ما بعد الزلزال، قالت محتدة:

- ماذا تفعل أنتَ؟ ثم قلت لكَ ألف مرة اسمي الأستاذة «أنهار»، لماذا تتجاهل اللقب؟

بدا ممتعضًا، وهو يقول بتراخٍ:

- آه آسف، أنسى لأننا في العمر نفسه تقريبًا. أنا هنا لأنكِ كلفتني بتغطية مستجدات مباني مصر القديمة التي تضررت من الزلزال، هل نسيتِ؟

ولم تجد *إلا هذا المبنى!* قالتها سرًّا. تعود ببصرها صوب البناء متجاهلة وجوده، تُلقي النظرات الأخيرة على الجدران التي احتضنت مولدها وطفولتها ومراهقتها.

من نافذة الشقة الرابعة بالطابق الثاني إلى اليسار، اعتادت أن تسترق النظر إلى شجرة الجمّيز المعمرة، أخبرها أبوها أن عمرها أربعمائة عام، لم تصدقه، ولم تكذّبه، فقط لم تتخيل أن شيئًا بإمكانه أن يعيش طويلًا إلى هذا الحد. كانت تثق في شيء واحد، أن أسرتهم الصغيرة ستكون سعيدة دومًا، ستُعمِّر سعادتها لأربعمائة عام مثل شجرة الجميز. وما هي إلا سنوات قليلة حتى انتقلت الأسرة إلى بيت أفضل، بعقد ملكية لأول مرة، وعندئذ صار كل شيء أسوأ.

استبدلوا بوابور الجاز بوتوجاز أطلس ذا ثلاث أعين، صاروا يبتاعون الأحذية من «باتا»، وكسوة الصيف والشتاء من «صدناوي» و«عمر أفندي»، لم تعد بحاجة إلى طابع معونة الشتاء الذي كان يمنحه ناظر المدرسة لأطفال المعوزين، صارت ذراعا أبيها تحتضنان أكياسًا طويلة من الورق المقوى، ممتلئة بفاكهة متباينة عند عودته من العمل، استبدلوا بلحم الفقراء «العدس»، لحمًا حقيقيًّا ثلاث مرات في الأسبوع، ولم تعد أمها مضطرة إلى أن تقترض من الجيران كوبًا من الزيت، أو تلقيمة شاي حتى موعد صرف التموين.

تهامست لنفسها وهي تمسك عبرة تُجاهد لتتفلّت:

- كنا فقراء، لكن سعداء.

دنا منها «نزيه» يقول متطوعًا، بجموح لم يُروَّض في ساحات الحياة:

- هذا المبنى المتهالك آيل للسقوط من قبل الزلزال، ما كان بإمكاني أن أضيّع فرصة تصويره لحظة الانهيار، ستكون صورة رائعة للعدد المسائي، هل يمكنني استعارة كوداك التي على رقبتكِ؟ إنها أفضل من الدبابة السوفيتية[1] هذه، يجب أن نلتقط أعظم صورة من أروع زاوية.

---

(1) Zenit 12XP، آخر كاميرا من هذه الماركة الشهيرة بـ «الدبابة السوفيتية» أُنتِجت في عهد الاتحاد السوفيتي قبل تفكُّكه 26 ديسمبر 1991م.

التفتت إليه «أنهار» بكل كيانها، احمر وجهها كمن تلقى صفعة، برز العرق النابض في جبهتها وهي علامة تنبئ بعِظَم غضبتها:

- هل تعرف كم روحًا فقدنا في الزلزال بالأمس؟ هل تعرف كم كلفتنا ستون ثانية من عُمر الكون؟ كم طفلًا تيتّم، كم امرأة ترمّلت، وكم رجلًا فقد أسرته أو جزءًا من جسده؟ هل تعرف كم جثة ما زالت ترقد تحت التراب في انتظار أن تُدفن كما يليق بالميت أن يُكرَم؟ كم عينًا لم تنم، لرجل إنقاذ، وطبيب، وممرضة، وحانوتي؟ نام الناس في الشوارع مخافة أن يعود الزلزال فتنهدم بيوتهم فوق رؤوسهم، وما زلنا نتعرض لهزات متفرقة من تبعاته يبدو أنها ستطول لأيام، وسط كل هذا الدمار والفزع كيف بإمكانك أن تستخدم كلمات مثل «أعظم صورة» و«أروع زاوية»؟ كيف؟

بُتر توبيخها من المنتصف، باغتها صوت انفجار قوي بلع كل ما حوله من أصوات، ما كان بإمكان صوتها الرقيق أن يصمد، انهار المبنى مباشرة أمام عينيها. بينما الناس تبتعد، «أنهار» تقترب، تمد كفها، كما لو كانت تحاول أن تُمسك بكفه كي يعاود النهوض. بكت دون أن ينتبه أحد، هبّت الريح تمسك بستار الغبار، تستر به عينيها.

- ربما من الأفضل له أن يُهدَم.

تهامست بقلبٍ مكلوم، ونظراتها فوق الموضع الذي كان شرفة بيتها تطوف وتحوم. اختطفتها الذكرى من اللحظة الراهنة، إلى ليلة أغسطسية، احتفلت فيها بعيد ميلادها العاشر. في ذاك المساء الأسود، بلّت أمها عصير الورد بالماء، صنعت كيكة بقشور البرتقال المبشور، كانت قد فرّزته خصيصى لهذه المناسبة، زيّنتها بالكريمة المخفوقة وشرائح البرتقال، ثم وضعت شمعة صغيرة في منتصفها، التف حولها أطفال الجيران. التهمت «أنهار» نصف قطعتها، أزعجها الزحام، وبكاء الصغار، هربت من الحر الخانق إلى الشرفة، تُفتش عن نسمة عليلة مرطبة، تُمتّع ناظريها بأوراق شجرة الجميز في هدوء.

عندئذ شعرت به وراءها، قريبها الكبير ذي العطر الجميل، يترنّح على غير العادة. التفتت تمنحه إحدى ابتساماتها العذبة، تلمع عيناها في انتظار

المفاجأة. لا بُد أنه يُخفي في قبضة يده هدية أو حلوى، ثمرة دوم، حفنة حرنكش، عِرق سُوس أسود محشو بالكراميل، أو ربما كليبسات شعر ملونة بشكل الفراشات، تتحرك أجنحتها كلما هزَّت رأسها، مثل «هالة» ابنة الجيران.

كان بالفعل يخفي شيئًا، لكن ليس في يده، بل في نيته.

شعرت بالفزع وكأنها قُذفت في فم البركان، دخلت الشرفة طفلة ترى الدنيا بعين صافية، وخرجت منها مذعورة ناقمة، وقد تضاعف عمرها في لحظة، هل يشيخ المرء في بضع دقائق سقطت سهوًا من عمر الزمن؟

- إن تحدثتِ سيقتلونكِ.

هذا ما التقطَته بصعوبة، وسط كلمات كثيرة متلعثمة. لم يعِ عقلها الصغير، كيف أن يده التي لم تكن تمتد صوبها إلا لمصافحة كفها أو ملاطفة وجنتها، صارت فجأة عابثة، قاسية، تقتحم طبقات ثيابها بوقاحه وتجول حرَّة فوق بدنها؟

ولمَ سيؤذيها أبواها وهي لم ترحب بتلك اليد، بل صدَّتها مدافعة، تُسدِل أطراف فستانها الأبيض ذي الورود الصغيرة الزرقاء، ترفع حمَّالته الرفيعة بكل ما أوتي جسدها الصغير من فزع، تجاهد لئلا تتقيأ إثر رائحة أنفاسه الكريهة التي تحاصر وجهها، وعندما أعجزتها قوته وقهرها إصراره على تحسس جسدها، تشنجت وبكت، فتوقفت يده عن إيلامها.

كل ما خلصت إليه تلك الليلة وهي تخبئ رأسها أسفل وسادتها، أن عليها أن تخاف، تخاف كثيرًا،ممَّ أو ممن؟ لا تعرف، ربما من كل شيء، وكل أحد.

***

انقشع الغبار قليلًا، فأخذ «نزيه» يلتقط صورًا متتابعة دون أن يبذل جهدًا كافيًا لإخفاء امتعاضه، حرمته تلك المتزمتة بثرثرتها الجوفاء من التقاط صورة للمبنى لحظة الانهيار. وبينما يحاول رصد الهدم من كل زاوية، سمع أطراف حديث بين صحفيين يعملان في جرنال منافس، فانطلق يُسابق الريح صوبها.

- «أنهار»، آآ، أستاذة «أنهار»، يجب أن نتحرك الآن؟

- إلى أين؟

- مصحة نفسية في منطقة الخانكة تضررت بفعل الزلزال بالأمس، تهدم العنبر (أ) على رؤوس المرضى.
- أعرف، غطيتُ الخبر بنفسي.
- لكنكِ لا تعرفين أن الشرطة أفادت في محضرها أن عدد الجثث والناجين ينقص واحدًا.
- كيف ذلك؟
- علمتُ من... من مصادري الخاصة، أن حسب الكشف الذي قدَّمه مدير المصحة للشرطة، مريضة واحدة مختفية، لم يعثروا عليها لا مع الأحياء ولا مع الأموات، هذا الخبر سـ....

ابتلع كلماته ما إن رأى حاجبها الأيسر يرتفع في تحدٍّ إن أكمَل، كان سيقول إن خبر فرار فتاة مجنونة قادر على أن يثير في الناس الذعر الكافي لتتبع القصة عبر الجرنال، وهذا يعني بيع الكثير من الأعداد، ولعل الحظ سيحالفه، فيحتل اسمه مقدمة خبر عريض، في صدر الصفحة الأولى. رغم انزعاجها، أسرَّت في نفسها أنه على حقٍّ، هذا خبر لا يُفوَّت، انقبضت أرنبة أنفها، وهي علامة مهمة لحدسها الصحفي، الذي يُخبرها بأن هذه القصة ستكون سبقًا عظيمًا لجرنالها.

انطلقت «أنهار» صوب سيارتها برفقة «نزيه»، تُشغل محركها في عجالة، تستوثق من وجود المُسجِّل الصغير في حقيبتها، تفتح بابه لتضع شريطًا جديدًا؛ على الصحفي الماهر أن يكون مستعدًّا. لم تنسَ أن تُلقي نظرة وداع أخيرة على ما كان قبل قليل محضنًا لأجمل ذكرياتها، وأبشعها.

قادت الفيات بأقصى سرعة تحتملها الطرق المزدحمة بحالات الطوارئ، تقول في نفسها: *ما كان ينقصنا سوى مجنونة هاربة من مصحة، يا لها من كارثة!*

# (5)
# اليوم الثالث للزلزال

في الليلة التالية لصدور ألبوم «جنة» لحميد الشاعري[1]، أنفقَت «عيناء» الساعات ملتصقة بالنافذة المنخفضة لجدار غرفتها، تستمع إلى أغانيه من مسجل «دهشور» بائع الخردوات.

ليلتها أصيبَت بالحُمى، كانت أمها المريضة نائمة؛ بللت خرقة بماء فاتر ووضعتها فوق جبينها، بحثت في نملية المطبخ عن حبَّة «ريفو»، فلم تجد.

رأت شبح أبيها يقترب بترددٍ من الأريكة المنزوية التي تستخدمها كفراشٍ لها، خالته هذيانِ المرض، أو حلم يقظة جميلًا. عندما أطلق سُعالًا ممزوجًا بخشخشة صدره أدركتْ أنه حقيقي. قبل أن تسعَد بهذه البادرة، قال بصوتٍ رمادي يقف على الصراط بين الأبوة والعدم:

- لكل إنسان ظِل، يُخبئ فيه شروره، ورغباته المكبوتة، وأهواءه الشاذة، وأحاديث نفسه المستنكرَة من المجتمع والناس، يستيقظ هذا الظل وقت الضغوطات الشديدة، أو المواجهات العنيفة، أو المواقف المزلزلة.

لم تفهم ما أراد أن يقول، إلى أن أتبع ذلك بقوله:

- أنت ظل شرير لا ينام أبدًا.

لم تكن طفلة مشاغبة، أو عاصية، أو متمردة، أو شكَّاءة، أو كثيرة الطلب، لم تشتهِ الحلوى كأقرانها، وفي أوقات كساد سوق الفخار، لم تعترض على الطعام القليل الذي كان يكفي ثلاثتهم بالكاد، أو نوعه، أو جودته، فشهوتها منطفئة من الأساس. لذلك، لم تفهم، لماذا يراها أبوها شرًّا خالصًا؟

---

(1) 1 يناير 1988م.

ذات مساء سألته عن السبب، فأجابها دون أن يمرر عينيه على صفحة وجهها:

- لأنها الحقيقة التي لا يعرفها أحد.

قالها ولم يزِد، ولم تسأله ثانية. أما أمها فكانت تقول وهي تُضفِّر لها شعرها البندقي في سُنبلة واسعة، بينما تُقلب «عيناء» بصرها في أقدام الخلق الذين يعبرون أمام النافذة الوحيدة لغرفتها، التي أصر أبوها على أن تكون منخفضة متعامدة على الأرض، إمعانًا في إذلالها، وحرمانها من أبسط متع الحياة.

- قفز اسمك في قلبي ما إن رأيتُ عينيكِ.

فتقترب من المرآة تتأملهما؛ شهلاوين[1]، واسعتين، حسناوين، لا تخلوان من مسحة حزن أو لمعة عزم. مرَّت طفولتها ومراهقتها بين فيضان أمها وبادية أبيها، ربما لهذا السبب، وبمرور الزمن، توحَّشت شهوتها للماء، لم ينطفئ ظمؤها قط، تجهل إلى أين يذهب كل هذا الماء في جسدٍ خالٍ من المعدة!

لو كان لـ «عَيناء» عِلم بتشريح الجسد البشري، لرأت بعين الخيال المريء ممتدًا على طول جسدها، ليتصل مباشرة بالأمعاء، هكذا بغير وسيط.

ولأنها تجهل التشريح، آمنَت أن حنجرتها تُفضي إلى تجويف كبير، ثقب أسود يبتلع الطعام بداخله، دون أن ينتفع به جسدها إلا بالقدر الذي يُبقيها على قيد الحياة، لذلك هي أقرب في هيئتها إلى هيكل عظمي منه إلى فتاة يانعة.

***

كاد الظمأ يُمزق حلقها تحت الأنقاض، وفي تمام الساعة الحادية عشرة وخمس وثلاثين دقيقة مساء الثلاثاء شعرَت بهزة أرضية قوية[2] أزاحت جزءًا من الركام، فانهال التراب فوق رأسها، نقمت على حظها، ثم أدركت أن الهزَّة إنما أرسلها الله رحمة ومددًا، إذ فتحت لها طريقًا للنجاة.

---

(1) يُخالِط سوادهما زرقة.

(2) حقيقة، وقعت هزة ارتدادية في الموعد المذكور.

تمكنت أخيرًا من رؤية ضوء ضئيل يتسلل بين الركام، صرختْ كما تصرخ سرينة الإسعاف بغير توقف، تُنادي باسم «جمال» وقد ظنَّت أنه منقذها، إلى أن بلغ أسماعها صوت ذكوري غير مألوف:

- ثمة أحياء هنا.

الدقائق الأخيرة هي الأصعب، انتظرت بأعصاب مُلتهبة، وهي الفتاة العجولة التي تمقت الانتظار وأهله، إلى أن تمكن رجال الإنقاذ من إزاحة الركام، بقدر فتحة صغيرة تسع جسدها بالكاد. امتدت الأيادي تعاونها على الخروج؛ تشبثت في لحومهم بأظفارها، غير آبهة إن سببت ألمًا أو أسالت دمًا.

كانت عملية المخاض عسيرة؛ انحشرت قدمها اليُسرى تحت عمود خرساني سقط فوقها. لم تطق صبرًا على الخروج، سحبت قدمها بقوة غير آبهة إن تمزقت، ألهذه الدرجة يكره اللؤلؤ المحار؟ حاول الرجال تهدئتها، كانت عصبية، مستثارة، متمردة، فاستحالت مهمتهم معاناة بالغة.

أخيرًا تحررت قدمها، زحفت للخلف على يديها وقدميها، وقد صار فستان الزفاف الأبيض معفَّرًا، مغبَّرًا، ممزقًا من الأسفل، في خط طولي ينتهي عند منتصف ربلة ساقها. الخوف يلبد في أركان صدرها، يحثها على البحث عن «جمال» والهرب.

شَقشق لسانها بكلمات خالية المعنى، ثم استجمعتْ وعيها لتقول:

- أريد الماء، الكثير من الماء.

كلما أنهت ما بداخل زجاجة، أطلقت شهقة عظيمة، كشهقة الميلاد الأولى، ثم طالبتهم بالمزيد.

ما إن روَت ظمأها أخيرًا، حتى هبَّت واقفة، تحجل على ساق واحدة، هالها شكل المبنى الذي تزوجت في إحدى غرفه يوم أمس، وقد صار جبلًا من تراب. التفتت كالملسوعة تتفحص الوجوه من حولها، تبحث عن وجه الرجل الذي صار في اللحظة التي تزلزلت فيها الأرض، زوجها.

- أين «جمال»؟ يا عم، هل رأيت «جمال»؟ زوجي، إنه، كان معي، كان واقفًا أمامي في بيت المأذون، مد لي يده، لم... أنا... لم أستطع أن

أمسكها، أين هو؟ هل رأيته يا عم، هل رآه أحد؟ أسمر ونحيل، كان معي. «جمال» أين أنتَ؟ لا تداعبني بهذا المزاح السخيف.

حوقَل الواقفون من حولها، يضربون كفًا بكفٍ، يواسونها ببضع كلمات لا تسمن ولا تغني، كانت جائعة لشيء واحد، وهو «جمال». كل ما سكبوه في أسماعها عن القضاء والقدر، والموت الذي حضر، والميعاد الذي لا يتقدم ولا يتأخر، كل ذلك لم يسد حاجتها إلى «جمال»، زوجها ومنقذها وحاميها.

شربت كل الماء الذي منحه لها الأهالي ورجال الإنقاذ، ثم انطلقتْ منسلّة من بينهم خفيةً، في الوقت الذي كان اهتمامهم مسلطًا على أطرافٍ ممزقة، تبدَّت لهم من تحت الأنقاض.

***

سمعت من أحد المسعفين أنهم توجهوا بضحايا المنطقة إلى مستشفى قريب، فلم تجد بُدًا من أن تُناشد رجلًا غريبًا، التمسَت في وجهه دفء الأبوة، أن يوصلها إلى المستشفى لتبحث وسط المصابين عن زوجها المفقود.

سارع الرجل بمعاونتها على ركوب سيارته، لملم أطراف فستانها، بينما هي ذاهلة عما يدور حولها.

استشعرَت الطريق أمامها طويلًا جدًا، وكأنه يمتد إلى مسافات لا نهائية، تجمدت العبرات فيٰ عينيها، لن تبكي «جمال»، لن تستسلم لفكرة فقدانه، «جمال» على قيد الحياة، سيعود إليها ليفي بالعهد الذي آخذه على نفسه، سيحميها، ولن يسمح بعودتها إلى بيت المجانين مرة أخرى.

على أعتاب المستشفى استقبلتها أنّات الثكالى، وبكاء الأرامل والأيتام. بقدم عرجاء تسيل منها الدماء لتُحنّي وجه الأرض، سارت نحو المصابين بحماسة الملهوف، تبحث في الوجوه عن زوجها، تأمل أن يكون في السرير التالي، أو يفترش الأرض بجوار الجدار التالي، مرت على كل المصابين حتى هدَّها اليأس، وقضمها التعب. انهارت وسط المستشفى تنوح بغير انقطاع، عاجزة عن شرح علّتها وفداحة كربها للمواسين من حولها.

أرشدها أولاد الحلال أن تبحث عن زوجها في مكانين لا ثالث لهما، إما المشرحة، وإما تحت الأنقاض، لو كانت النجاة قد كُتبَت له، لكان بين المصابين الآن.

لم تملك الطاقة الاستيعابية الكافية للذهاب حيث ثلاجات باردة معبأة بالموتى والأطراف الممزقة، مرَّت بنوبة إنكار جعلتها تؤكد للجميع أنه لا يزال يتنفس، مستشعرة وجوده حولها.

- «جمال» لن يتركني وحدي، لقد وعدني.

تضاعفت شفقة الرجل ذي السَّمت الأبوي، أعادها بسيارته إلى حارة «العطفة الجوانية»، استجابة لرغبتها. كان عمال الإنقاذ قد انصرفوا عن البناء إلى غيره، جلست فوق أنقاض بيت المأذون، تنوح بصوتٍ أشبه بحيوان جريح علقت أقدامه في المصيدة. لم تكن الدنيا محارة ولا هي لؤلؤتها، بل كانت فكًّا مفترسًا نهش أحلامها وخططها لمستقبل آمن.

كيف لها الآن أن تثبت لأبيها أنها صارت امرأة كاملة، يتودد إليها رجل، يتخذها خليلة له، وأمًّا لأبنائه؟ أذهب الزلزال بخطتها أدراج الرياح.

مُتدرِّعة بظلام الليل، استلقت فوق الركام، تتلحف بأطراف فستان الزفاف، لم تجرؤ على الاقتراب من الميدان الكبير، مخافة أن تقع في يد رجل بلا ضمير، يُسلمها إلى رجال الشرطة، أو أطباء المصحة.

مضت تُبعثر نظرات الخوف حولها، كلما تنامى إلى مسامعها صوت أقدام، ثم ارتأت أن تراوغ هواجسها بالاستسلام للنوم، إلى أن تتسع أعين الصباح.

وضع لها أحدهم طعامًا وشرابًا، هبَّت فزِعة في البداية، وعندما انصرف دون كلمة اعتدلت في جلستها، امتدت يدها إلى الماء المعبأ داخل زجاجة فانتا تفاح، ثم تبعتها بزجاجة مياه غازية، نزعت سُدادتها المعدنية بضروسها، وتجرعتها على مرة واحدة، حتى تقطعت فيها الأنفاس.

امتدت يدها إلى الخبز بالجبن القريش تأكله في قضمات كبيرة، بلا شهوة حقيقية، وضع لها الرجل الكريم كذلك حبات ملونة من «كراملة نادلر»، كانت أمها تحبها كثيرًا، وبخاصة الصفراء حمضية النكهة، تقول عنها «فُنضام».

أخذت الصفراء تدسها في فمها، دون أن تهيج بطنها بشهوة الطعام، كأنها تأكل ورقًا أو ترابًا!

تطاير زبَد الغضب من عينيها، مزقتْ خصلات من شعرها وهي تكتم صيحة غيظ:

- فتاة لعينة، باعتني بذرة مغشوشة كسابقاتها، وتدعي أنها سليلة ساحرات متمرسات!

انزوت فوق الردم تستدر الأسى، تضم ساقيها إلى صدرها، وتطوقهما بذراعين نحيلتين. مسح القهر فوق عينيها الشهلاوين، فارتعدتا بعبرات ممزوجة بآثار الكُحل:

- ألن يكون لي معدة؟ ألن أتمكن من أن أثبت بزواجي أنني امرأة غير ناقصة؟ كيف سيحبني أبي إذن؟

فكّرت، لماذا على الحب أن يكون مشروطًا؟ لماذا تتكون دائرة المشاعر من قطبي الأخذ والعطاء، ماذا إن لم تملك ما تمنحه لأحدٍ، كيف تتحصّل على الحب إذن؟

- لا يليق بكِ إلا الفضلات يا «عيناء».

كانت تراه يبذل لأمها كل ما أمكنه من سُبل الإرضاء، وبخاصة بعد أن يضرب أمها، أو يكيل لها السباب. حتى إذا ما التفت نحوها منحها بسمة عابرة لا تستمر أكثر من ثانية، فقط إرضاءً لأمها. كان يُلقي لها بفضلات الحب، فتتلقفها منه شاكرة مُتنعمة.

حتى جاء اليوم الذي حرمها تمامًا من تلك الفتات المتساقطة من جعبة أبوّته، يوم أن ماتت أمها وألقى بها في المصحة.

- هذه الفتاة ملعونة، خذوها، ولا تعيدوها ثانية، سأدفع كل ما يتطلبه الأمر من مالٍ كي لا أرى وجهها مرة أخرى.

كلمات وداعٍ غير مألوفة في لحظات الفراق، مختومة بمعانٍ حارقة للأفئدة والأرواح، نطقها قبل ثلاثة أعوام، ولم تره بعدها.

تهامست لنفسها، تمسح عبرة مُنفلتة من زاوية عينها:

- لم يُلقِ بي في قارعة طريق، أو على أطراف بلدٍ غريب، لم يدفع بي إلى ذراعَي كهل أو موبوء، أو يدفني حية في التراب كما كان يُفعل بالفتيات في سالف الأزمان. أبي يهتم لأمري حتى وإن أنكر ذلك.

كم مرة دسّت إصبعها في الزيت عمدًا وهي تقلي البطاطس والباذنجان، ثم تركض صوب أبيها في الفاخورة لتُريه جلدها المحترق، وكم من مرة أمسكت بالسكين وأحدثت شقًّا في ذراع أو ساق، ثم تُحنّي كفّيها بالدم وتركض نحوه لتُريه آثار النزيف، وكم من مرة انسلّت إلى شارع خلفي بجوار البيت، تمزق صدر فستانها، وتخمش وجهها بأظفارها ثم تركض صوب أبيها، تشير إلى أحد المارة مدّعية أنه هاجمها عازمًا على انتهاكها.

كل ذلك لم يفلح في نيل عاطفته أو شفقته، استيائه أو غضبته، لم تنجح في مسعاها ولا مرة واحدة، بينما أمها تبكي وتتألم ويتكالب عليها المرض عند سماع قصصها الزائفة.

منَ الحبّ ما قتل، ومنه كذلك ما أمرَض، وكانت شهوتها لنيل الحب مرضية، مُميتة.

***

ما إن تمطّى الصباح في سرير الأفق، حتى انتفضت «عيناء» كالملسوعة فوق ركام بيت المأذون. بشعر ثائر، ووجه معفّر، وفستان زفاف مشقوق ومغبّر، هامَت في الشوارع والحارات، باحثة عن زوجها المفقود، كبطلة حكاية خرافية فرّت من كتاب.



# (٥)
# اليوم الرابع للزلزال

أفلتَ بياضُ النهار الخيطَ الأخير من الليل، فأذِن الأفقُ للشمس باعتلاء السماء.

عاد الزحام إلى شوارع القاهرة، بعدما تعطّل العمل في مدارسها ومصالحها لثلاثة أيام، مخافة أن تُسفر الهزات الأرضية لتوابع الزلزال عن أضرار جديدة.

لـ «أنهار» عادة صباحية رحيمة، تستيقظ مع دفقات النهار الأولى، تجمع بقايا طعام البارحة في طبق نظيف من البلاستيك، تضعه على الرصيف بجانب العمارة، لتقتات عليه قطط الشارع الجائلة في الطرقات. لا تحب «أنهار» القطط، تتخوّف منها، بيْدَ أن خوفها لا يُعطّل شفقتها.

تعود إلى غرفتها، تنشَط لجمع أغراضها، في حقيبتها الجلدية البيضاء الكبيرة، القلم الفرنساوي الأزرق، ودفتر صغير يحمل شعار الجرنال، ومسجل الصوت الصغير «ووكمان»، وشرائط فارغة، وكوداك العزيزة.

تستوثِق أن الحجارة الصغيرة الخاصة بمسجل الصوت تعمل بكفاءة، لا تريد مفاجآت غير سارة في أثناء تسجيلها لمعلومات حيوية. تفحص المسجل العُهدة بعناية، تستوكد من سلامته، فللجرنال أربعة مسجلات يابانية الصنع، يتناوب الصحفيون على استخدامها وقت الحاجة، يُقدَّر الواحد منها بألف جنيه تقريبًا، وهو مبلغ كبير جدًا لم يكن بإمكانها أن تأخذه سُلفة من الجرنال لتبتاع لنفسها واحدًا، فهي لا تزال تُسدد سُلفة الكوداك التي انبهرت بها، وأصرت على شرائها بالتقسيط، رافضة أن تستعير من مال أبيها أو أمها.

ولمزيد من التدابير التوفيرية، تخيّرت الشرائط التي لم تعد بحاجة إليها، حملتها في حقيبتها لإعادة استخدامها بالتسجيل عليها مرة أخرى، هكذا ستوفر ثلاثة أو أربعة جنيهات ثمن الشريط الواحد. يحسَب الناس أن الشرائط للأغاني والقرآن فحسب، لكن للصحفي الماهر هي أداة تسجيل مثالية، لا للقاءات الصحفية فحسب، بل أيضًا لملحوظاته الشخصية.

البيت خالٍ إلا منها، أمضى والدها الليل –كعادته– في «أجانس السيارات» الذي يملكه، أو في صحبة أصدقائه في إحدى سهراتهم الطويلة. سافرت أمها قبل يومين لزيارة خالتها التي تقيم في «بورسعيد»، حيث اعتادت أن تنفق مال أبيها على الملابس ومستحضرات التجميل من السوق الحرة، وكأن حياتهما الزوجية مبنية على معاهدة ضمنية: اتركيني أفعل ما أريد، وفي المقابل، أنفقي من مالي كيفما شئتِ.

هذه المرة، سافرت الأم لتريح أعصابها بعد الزلزال، في منزل أختها الوحيدة. من الهاتف المنزلي الأسود، المستقر فوق طقطوقة خشبية صغيرة في الصالة، سار صوتها عبر الدوائر الكهربائية جادًّا وعمليًّا:

- صباح الخير يا «نزيه»، هل من أخبار عن الفتاة المفقودة من مصحة الخانكة؟

شَغلتها هذه القصة نفَّاذة الرائحة، اقتحمت حواسها كسبق صحفي مثير، إلا أنها لم تعثر على طرف خيط واحد صالح للتتبُّع، تبخرت الفتاة كأنها لم تأتِ إلى الحياة يومًا، فُقِدَت سجلات المصحة تحت الردم، وما ضاعف عدادات الإثارة في نفسها، ما انتزعته من فم طبيبها المعالج بصعوبة وهو في طريقه للخضوع لعملية بتر لساقه، التي سُحقَت جراء اختراق أجسام معدنية لها، إذ قال: «لا يحق لي الإفصاح عن حالتها، فهذا انتهاك لخصوصية المريض، كل ما أستطيع قوله إن هذه الفتاة يجب ألا تُترك فريسة لأفكارها أبدًا، يجب أن تعثروا عليها في الحال».

وعندما سألته «أنهار» عن السبب، أجابها باقتضاب: «لأن عقلها بلا فرامل!».

بدد شرودها صوت «نزيه»، القادم عبر الهاتف الأرضي الموضوع فوق مكتبه الصغير بالجرنال:

- لا جديد عنها حتى الآن.

- لو وصلتَ إلى شيء لاندهشتُ أساسًا.

قالتها بصوتٍ منخفض. فاستوضح منها:

- ماذا تقولين؟

- لا شيء، فلتستمر في البحث، لا تنسَ أن الفتاة خطرة على نفسها والآخرين كما فهمنا من طبيبها، أي إنها في أشد الحاجة إلى إنقاذها، وإنقاذ الناس منها.

داهَن مُدرِّبته كما يليق بالمتدرِّب أن يفعل:

- بالمناسبة، مقالكِ بالأمس كان رائعًا، العنوان في غاية الإثارة، «العثور على جثة مُمسكة بسماعة الهاتف»[1]، الناس تحب هذه الأشياء.

كان خبرًا عن «عمارة الموت»، كلَّفها رئيسها المباشر بتغطيته، بناء شاهق بمصر الجديدة سقط إثر الزلزال، خمس عشرة جثة انتشلها رجال الإنقاذ، والبحث عن المزيد ما زال جاريًا على قدمٍ وساق.

الضحية التي كانت ممسكة بسماعة الهاتف، لا تفتأ تُشغل عقل «أنهار» بهواجس غير قادرة على صرفها، ستون ثانية، انقلب عالم تلك الضحية خلال ستين ثانية هي عُمر الزلزال.

أي بلاء أن تفقد من تحب فجأة، بينما يُفضي إليك بمكنونات نفسه في اتصالٍ ينحر أعناق المسافات؟ كم كانت قاسية لحظة سقوط البناء، وانقطاع الصوت، وزمجرة الأرض، وتشتت الوصل، ولحظة الصمت الطويل الذي تبع الانهيار الكبير، هل صرخت الضحية؟ هل استغاثت بالقريب البعيد؟ أم أن الوقت لم يسعها لتدرك أنها على مشارف الفراق؟ كيف استقبلت لحظات الموت الأولى؟ أيهما كان الأسبق في قتلها، الردم أم الفزع؟

نفضت «أنهار» رأسها، تطرد هواجس لئيمة تتكاثر ذاتيًا. وضعت سماعة الهاتف المنزلي لتغلق الخط، تستعد للذهاب إلى الجرنال. أمام الباب التقت أمها العائدة من سَفرتها القصيرة، كان ترحيبهما فاترًا، وعناقهما خاليًا من لهفة اللُّقى بعد الفراق.

---

(1) قصة حقيقية.

- كيف حال خالتي؟
- الجميع بخير.

تفحصتها الأم من الرأس إلى أطراف الأنامل، لوَت شفتيها في امتعاض، ولم تحجم نفسها عن الانتقاد:

- أما آن الأوان لترتدي الفساتين والتنانير مثل الفتيات؟ يرتفع ضغط دمي كلما رأيتُ وجهك الخالي من المساحيق أو شعركِ المعقوص في كعكة أو ذيل حصان، لا عجَب أنكِ بلغتِ الخامسة والعشرين ولم تعثري لنفسكِ على زوج بعد.

ها قد عادت أمها إلى أغنيتها المفضلة، عن مظهرها الخارجي الذي لا يمُت للأنوثة بوثاق، وحتمًا ستتطرق إلى هيئتها الجسدية التي تجعلها كفتاة في طور المراهقة، وتقاعسها عن إبراز التفاصيل التي تفنِّد هذا الادعاء وتدحضه.

رغم علمها بخبرة التكرار، كيف أن حوارهما سيُفضي إلى صراخ فشجار، لم تمنع «أنهار» نفسها من الرد بحدة:

- هذا أنا، اقبليني أو ارفضيني.

تحولت عتبة الباب إلى معترك للأفكار، وتراشق بالرؤى والآراء. وككل مرة ينتهي الشجار فجأة كما يندلع فجأة، وكأن كلا الطرفين يرفعان راية الاستسلام في اللحظة نفسها.

- تأخرتُ على الجرنال، فلنأخذ وقتًا مُستقطعًا، بالمناسبة، أين حقيبتكِ، هل سيحضرها البواب، أم أفعل قبل أن أغادر؟
- هذا البواب الكسول لا يُمكن العثور عليه عندما نحتاج إليه، لا بُد أنه يتهرب من العمل بالنوم أو شُربِ المعسّل فوق السطوح كعادته، لا تهتمي، سيحملها «شكري».

أشعل الاسم فتيل الفزع في قلب «أنهار»، مضت ثانيتان أو ثلاث، قبل أن ينفجر في صدرها مخلِّفًا من الشظايا الآلاف.

- مَن؟!
- «شكري»، ابن خالتكِ، ذهب ليشتري بعض الأغراض من البقال، كنت أعرف أنكِ ستتركين البيت فارغًا من الطعام، لم أنجب بناتًا أنا.

جرَّ الاسم خلفه جنزيرًا حديديًا بسلاسل صدئة، تتعلق فيها الكلمات من الأعناق: عيد ميلاد، شرفة، يد وفستان، خوف، ألم، خِزي وخُذلان.

- ما الذي أتى به؟

- لديه عدة مقابلات عمل، لذلك دعوته ليُمضي معنا بضعة أيام، أصابك العمل في الصحافة بالغباء، أدخلتكِ كلية التجارة كي تختاري عملًا جميلًا كموظفة إدارية في شركة حكومية لها تأمين صحي ومعاش، مثل «شريهان» ابنة «كريمان»، لكن ابتلاني الله بفتاة تختار كل ما يشق قلبي بالحسرة.

لم تسمع «أنهار» أيًا من هذه الكلمات، ولم تكن لتتحمل أي قدر من التبريرات، تملَّك منها الغضب، لعنت الحظ الذي دفع بأمها لأن ترحب بإقامة هذا الرجل في بيتها.

سارعت في المغادرة، كأنها تفر من الجحيم.

***

الجرنال يعمل كخلية نحل، الأخبار تتوافد كل دقيقة، والعمل يتكدس في بطون الساعات حد الاختناق.

انكبت على مقال الغد، تكتبه بكل ذرة في كيانها، تُراقِص الكلمات على مسرح الورقة البيضاء، فيما يُشكل صوت نقرات أناملها فوق الآلة الكاتبة، سيمفونية حماسية تُلهب شغفها، وتنفس عن غضبها. انطلقت كالسهم تغادر البيت دون أن تنظر خلفها، هربت كما يهرب الجندي المذعور من ساحة المعركة، في الوقت الذي وقعت فيه هزة خفيفة من تبعات الزلزال.

آهٍ لو علمت أمها أي ذئب دعته إلى بيتها، أي وضيع دنَّس قبل خمسة عشر عامًا أحلامها، وأحالها سلسلة لا تنتهي من الكوابيس. آهٍ لو تعرف أمها أي نذل تأتمنه على العِرض وهو هاتك له، أي حقير تُدنيه وتدعوه بابن أختها.

كجرحٍ في أحشاء الأرض تعرِّف البراكين عن نفسها، من جوف «أنهار» تصاعد بخار حار، وفي أحشائها اعتمل ألف بركان.

ازدادت وتيرة نقراتها فوق الآلة الكاتبة، بالضرب فوق رؤوس الكلمات تُنفِّس عن حممها، لا تستطيع تحمل سماع اسمه، أو رؤية صورته، فما بال

البقاء معه تحت سقفٍ واحد؟ أي جحيم هذه التي فتحت أمها بواباتها على مصراعيها، وألقتها بداخلها؟

باغتها «نزيه» مقتحمًا خلوتها، دانيًا من مكتبها، لاهثًا من فرط الإثارة:

- «أنهار»، هل سمعتِ بما حدث في عمارة الموت؟

رفعت رأسها عن الورقة التي أخرجتها للتو من فم الآلة الكاتبة، بهدف مراجعتها. قالت بحدة:

- اسمي الأستاذة «أنهار»، كم مرة أخبرتك أن...

قاطعها «نزيه» في عجالة:

- عثر رجال الإنقاذ على رجل حي، سمعوا صوته يستغيث من تحت الأنقاض، لم يخرجوه بعد، إنهم على وشك فِعل ذلك الآن.

ابتلعت كلماتها المعنِّفة، وبمسحة من بلاهة رمقته متسائلة:

- هل تدرك ما تقوله؟ اليوم هو الرابع بعد الزلزال، كيف لرجلٍ أن يظل طوال هذا الوقت على قيد الحياة؟

اقتحم رئيسها المباشر القسمَ الصغير، الذي يضمها و«نزيه» وخمسة آخرين من الزملاء الصحفيين، متجاورين فوق مكاتب خشبية متآكلة الطلاء في بعض مواضعها، تبتلع كل المساحة الفارغة من الغرفة. اصطدم بحافة مكتب، وكاد أن يُسقِط مقعدًا في طريقه إلى مكتبها، يصيح بوجهه اللحيم:

- أما زلتِ هنا يا «أنهار»؟! هيا إلى عمارة الموت، سواء أخرجوا الرجل حيًا أم ميتًا أريد خبرًا كبيرًا يسع صفحة كاملة. سأحجز له مانشيت الصفحة الأولى، وأريد صورًا، الكثير من الصور، تحركي يا «أنهار»، مصر الجديدة مقلوبة.

هبَّت «أنهار» على قدميها، تقول بحماسٍ بينما تجمع أغراضها داخل حقيبتها:

- حالًا يا فندم.

رفع رئيسها سبابته مهددًا، على مرأى ومسمع من زملائها:

- شغلك لم يعد يعجبني يا «أنهار»، لا يوجد أخبار حصرية، ولا معلومات مسرَّبة، يبدو أنني دللتك أكثر مما ينبغي، بل ووضعت متدربًا تحت

إشرافك أيضًا، اسمعي يا «أنهار»، تلك هي فرصتك الأخيرة لتثبتي أنكِ الصحفية التي أريدها في جرنالي، صحيح أن والدكِ صديق مقرب، لكن لن أتحمل أكثر وجود شخص في هذا القسم لا يُلبي احتياجات الجرنال، والكلام للجميع، هذا آخر تحذير.

- يا فندم، من أين آتي بسبق صحفي؟ أنتَ تطلب المستحيل، جميع الصحفيين مستنفرون بدرجاتهم القصوى، لا يوجد أخبار حصرية تخص الزلزال، المعلومات متاحة للجميع.

- تصرفي يا «أنهار»، وإلا اتركي مكانكِ لصحفي أمهر قادر على جلب الأخبار الحصرية.

قالها وهو يرمق بطرف عينيه زميلها «سمير»، القابع فوق المكتب المجاور لمكتبها الصغير، يتابع الحوار مبتسمًا، وبصدره منتفخًا. احتدت وهي ترشق نظراتها في وجه زميلها:

- بعض من يجلبون هذه الأخبار يلجؤون إلى طرقٍ مقززة تأباها نفسي و....

- أريد أفعالًا لا شعارات يا «أنهار».

قاطعها رئيسها ثم لوّح بسبابته ثانية، مردفًا بنبرة محذرة حاسمة:

- إما السبق، وإما التسريح من العمل.

وقبل أن يستدير لينصرف، أردف بنبرته الآمرة:

- آه، وخذي «نزيه» معكِ.

بطرف عينها استرقت النظر إلى «نزيه»، ودَّت لو مزَّقت ابتسامته المتحدية، وصرخت في وجه رئيسها أن هذا الشاب جِمل يُثقل عزمها. بدلًا من ذلك قالت وهي تجز أسنانها:

- حاضر يا فندم.

***

عمارة الحاجة كاملة ذات الطوابق الأربعة عشر، هذا كان اسمها قبل أن ينعتها الزلزال بـ «عمارة الموت».

بالقرب من ميدان هيليوبوليس، وفوق أنقاض العمارة التي كانت الأعلى في المنطقة، خشعَت الأفئدة تتداوَب قلقًا واضطرابًا، تتشابك الأيادي وتتعاضَد، تُفتش الأعين عن صاحب الصوت الذي ظل حيًّا لاثنتين وثمانين ساعة كاملة!

نمَت إلى أسماع أحد عمال الحماية المدنية صيحات رجل يستغيث من تحت الأنقاض، فأخبر رؤساءه، الذين أمروا على الفور بالإبطاء من وتيرة عملية الحفر القائمة للتنقيب عن الجثث[1].

رسم الغبار صورة ضبابية للمشهد، تتخللها أصوات الحفارات، توحَّدت القلوب مُبتهلة للإله أن ينتشل هذه الروح من وحل الظلمات. زاحمتهم «أنهار» يتبعها «نزيه»، وسط مشهد عصيب مهيب، التحمَت أماني الناس في لحظة ساحرة، تُنشد شيئًا واحدًا، أن يخرج هذا الإنسان من تحت الركام سالمًا.

الناس عطشى لمعجزة؛ تُشعرهم المعجزات أن القدير يسمعهم، ويراهم، يُرسل جنودًا خفية تحرسهم، وترعاهم. لم يؤمن السابقون بالإله إلا من خلال أحداثٍ خارقة، ووقائع مُلهمة، وفي عصرهم الحديث الذي خلا من معجزات عاينها أسلافهم الذين سبقوهم بالإيمان، باتت عقائدهم في الحياة على المحك.

الأمل يتفلت من بين أناملهم كالرمال، كلما قبضوا على السَّكينة تبخَّرت، النفوس تباغضَت، الأخلاق تبدلت، والسرعة التي تسير بها الحياة لا تمنحهم فُسحة لأن يعوا أين هم، وإلى أين عليهم أن يذهبوا.

ولأن قوم عيسى مهرَة في الطب، كانت معجزته إحياء الموتى، وإبراء الأبرص، وشفاء الأعمى، ولأن قوم موسى أباطرة الخداع بالسحر، كانت معجزته تحوُّل العصا إلى حية تسعى، ولأن قوم صالح نحَّاتون للصخر، كانت معجزته إخراج ناقة من الصلب.

ولأن زمن المعجزات ولَّى مع آخر نبي، تتبَّع الناس كرامات الصالحين والأولياء. والآن، في هذا الميدان، وحول هذا الركام، اتحدت القلوب، وتزاحمت الأبدان، في انتظار كرامة تُشعِرهم أنهم لا يزالون على قيد الأمل، كرامة تُنبت لهم حياة خضراء من وسط التراب.

- الله أكبر، الله أكبر.

---

(1) حقيقة.

صدحت الأصوات في أجساد مرتعدة بالفرح، تعلوها وجوه نضرة مستبشرة. بشق الأنفس، عثرت «أنهار» لنفسها على متّسع، تتمكّن خلاله من مراقبة المشهد من كثب. الأيادي التي امتدت داخل الحفرة، خرجت حاملة رجلًا بالغًا، سليمًا، معافى، حيًّا رغم أنف الفاجعة!

تسارع الناس في منحه الماء، ثم حملوه على الأكتاف صوب مستشفى هيليوبوليس لإمداده بالإسعافات. قدّرت «أنهار» من نظرتها الأولية أن الرجل في أوائل عقده الرابع، أو نحو ذلك. انضمت و«نزيه» إلى الزملاء الصحفيين الذين تبعوه إلى المستشفى، ولساعاتٍ طويلة حرصوا على اقتناص أي معلومة عنه، من الممرضات والأطباء والمسؤولين والجهات التي أُذن لهم بلقائها.

انزوَت في ركنٍ قصي، تلتقي سرًّا إحدى الممرضات التي أفضت إليها بتفاصيل ملهمة، أنقدتها أجرها كمصدر معلوماتي ثمين، ثم أمسكت بجهاز التسجيل وضغطت الزر الذي يتضمن علامة الدائرة، قربته من فمها، وبدأت في التدوين الصوتي، بحماسٍ لم يراودها يومًا:

- «أكثم إسماعيل السيد سليمان»، مهندس زراعي، خريج كلية زراعة دفعة 1981م، لديه مكتب سياحي بميدان الإسماعيلية بمصر الجديدة، كان يقطن في الشقة 19، الدور السابع من عمارة الموت، لم ينجُ أحد سواه، فقد زوجته وأمه وابنته اللاتي كن معه لحظة حدوث الزلزال، ماتت أمه أولًا، ثم ابنته، صمدت زوجته بعض الوقت لكنها في النهاية لاقت حتفها خوفًا وعطشًا، لم يرَ أيًا منهن، حالت بينهم الأنقاض، استأنس بأصواتهن حتى الرمق الأخير.

أوقفت المسجل لتُخفي عبرة تفلتت بلا مهنية، طاقت نفسها لرؤية الرجل الذي تحوّل بدوره إلى أنقاض، بعد كل هذه الخسائر المتتالية، تُرى كيف يكون حال الإنسان الذي فقد في لحظة كل شيء، وكل أحد؟ ولأن لجرنالها فضلًا على كل عزيز، كان أوان رد الجميل؛ تفتّحت لها الأبواب المغلّقة أمام غيرها من زملاء المهنة، فبادرَت بالتقاط صورة للرجل الممدد فوق الفراش، متعبًا، ذاهلًا، لا يُصدق أنه يتنفس، ومن الممرضات المبهورات من حوله تندُّ همهمات كطنين النحل.

- الناجي الوحيد!

همست «أنهار» باللقب، الذي سيتضمنه «مانشيت» الصفحة الأولى في العدد الجديد صباح الغد. أزاحت الكوداك جانبًا، تتأمله ملء البصر، بإمكانها أن تصفه بالكثير، إلا أن الصفة التي تبرز في المقدمة أنه كان ذاهلًا ذهول العائد من حافة الحياة، هذا الرجل ذهب إلى أبعد نقطة قد يصل إليها بشري، سار على الحد الفاصل بين الحياة والموت. هل ستتمكن يد الزمن من تبديد هذا الذهول الذي جثم فوق وجهه؟ هل ستسترد نظراته الشاردة أمانها؟ هل سيتمكن من النسيان؟

شغلتها كل هذه الأسئلة، زاحمت عقلها حتى بلغ توترها مبلغًا مزعجًا.

- انتهى الوقت المسموح.

بحزمٍ طالبتها الممرضة بمغادرة الغرفة، فارقتها لا تنوي إعادة الكرَّة، وقفت خارج المستشفى، تسترسل في أسئلة مريرة لن يجيب عنها أحد، بينما تُحقن دخان سيجارتها في أوردة الليل العليل.

***

آخر الليل، ساقها الفضول، ورغبتها في التقاط المزيد من الصور، إلى عمارة الموت مرة أخرى.

كانت الأجواء أهدأ كثيرًا، تمكن العمال من أخذ فُسحة من الوقت ليعودوا إلى منازلهم الآمنة وأسرهم الدافئة، يبثون زوجاتهم وأمهاتهم حكايات كل جثة عثروا عليها، وتفاصيل إنقاذ الناجي الأخير الذي توّج مسعاهم بنصرٍ مبين.

سارت «أنهار» فوق الركام حتى بلغت أعلى نقطة فيه، ترنو إلى السماء بشجنٍ كبير، هل كان سيفتقدها أبواها إن هي فُقدت في الزلزال؟ كم دمعة ستُراق من خلفها؟ هل سينسونها سريعًا وسط حياتهم المملتئة بالعمل والانغماس في الذات؟ لا تعرف، وعدم المعرفة آلمها أكثر. إنها الحيرة التي تنحر ولا تقتل.

- ساعدوني!

هبّت «أنهار» تتلفّت حولها، تتوهم صوتًا هزيلًا يستجير بها. عادت إلى وقفتها المسترخية، تعلق نظراتها فوق كتف الأفق. تسرب إلى أسماعها صوت أنين، انتفضت ثانية، بأشد من المرة الأولى، تهامست لنفسها: *هل أتخيل؟*

نادت بصوت مرتفع:

- هل من أحد هنا؟

صوت سعال مكتوم، تبعه صوت تحشرج حنجرة بكلمات لم تتبينها، دارت حول نفسها بجنون، عطفتْ رأسها نحو صوت واهن متقطع. على منبع الصوت أقبلَت، وعند موضع بعينه شمّرت ساعديها وبدأت في الحفر، بأنامل عارية، يقرضها البرد والقلق. تبدّى بين الحجارة رأس مغبر، يعلوه شعر أشعث مُعفر، وله شفتان منفرجتان مرتعدتان من الخوف والبرد، تتمتمان بكلمات غير مسموعة، وتنسكب لمعة عينيه المستجدية فوق صفحة وجهه.

- ناجٍ آخر!

سرَت في أوصالها رجفة، أرسلت في الأرجاء نظراتٍ لهوفة، تفتش عن مُسعفٍ أو رجل إنقاذ، ولما خشيت أن يلقى الرجل حتفه في أثناء بحثها عن النجدة، قررت أن تساعده بنفسها.

- أنتَ بخير، لا تقلق، سأزيح هذه الحجارة، انتبه، آسفة صدمتُ رأسك بغير قصد، لا تقلق، سأخرجكَ من هنا، لماذا لم تنادِ عندما كان المكان ممتلئًا بالناس؟ أم تراك صرخت ولم يسمعك أحد؟ انشغل الجميع بإنقاذ «أكثم»، لم نتصور وجود ناجٍ آخر، ساعدني كي أساعدك، تحرك قليلًا، حاول أن ترفع نفسك لأعلى، نعم هكذا، أحسنتَ، بقي القليل، حمدًا لله لا يوجد عائق يحشر جسدك، ادفع نفسك بقوة أكبر، استند إلى كتفي، هكذا، يا ربي! أنت ثقيل، أحسنتَ، بقي القليل، ها أنتَ ذا.

استلقَت على الأرض لاهثة من فرط الإجهاد، لا تقوى على التحدث أو الحراك، لا تُبعد عينيها عن الأشعث المُغبّر الذي اتخذ من الأرض فراشًا ممهدًا، يُعبئ الهواء إلى رئتيه بسرعة كبيرة، يُعوض نقص احتياجاتهما الحيوية لفترة طويلة.

ما إن انتظم تنفسها قليلًا، حتى غلبَها حسها الصحفي، أمطرته بالأسئلة وما تزال تلهث:

- ما اسمك؟ هل أنتَ من سكان عمارة الموت، أقصد عمارة الحاجة كاملة؟ هل كنتَ بمفردك؟ كيف، كيف تمكنت من البقاء حيًّا؟ «أكثَم»، الرجل الذي انتُشِل اليوم من تحت أنقاض المبنى نفسه، قال إنه... إنه كان يقطع أقمشة من ثيابه ويبللها ببوله كي يشرب، نصح زوجته بذلك لكنها لم تستجِب، هل، هل فعلتَ مثله؟ هل هذا سر بقائك لأربعة أيام على قيد الحياة؟

استوى الرجل جالسًا، تبعثرت أمارات الألم فوق صفحة وجهه، لم تتمكن من رؤية ملامحه المختفية وراء الغبار. شعر بكل ذرة من خلاياه وكأنها محطمة من الداخل، يعاني كي يستدر الكلمات من فم الصمت. بشق الأنفس تمكن من أن يهمس بصوتٍ متحشرج:

- عطشان.
- يا لي من ثرثارة، بالطبع، سأحضر لك الماء في الحال.

من حسن طالعهما أن أحد عمال الإنقاذ كان قد ترك خلفه زجاجة بها القليل من الماء، ما إن تلقفها بين يديه حتى سكبها داخل جوفه، لم يُرِق منها شيئًا، يُدرك قيمة كل قطرة حق قدرها.

ما إن هدأت أنفاسه، واستعاد بعضًا من رشده، حتى أعادت عليه أول أسئلتها:

- ما اسمك؟

بذل الرجل جهدًا كبيرًا، يستنطق صمته، ويحفز خلايا عقله. دقيقة أو يزيد مرّت، قبل أن يتوجه إليها بملء بصره، يجيب بصوتٍ متحشرج تائه في فضاءات النسيان:

- لا أتذكر!

# (7)
# كرة كاوتش

لا تستلزم صناعة الفخار يدين ماهرتين فحسب، تتطلب أيضًا حسًّا مرهفًا، ورؤية استثنائية فنية، تشكّل من الطين قطعًا فخارية فريدة التصميم. صناعة الفخار هي فن تحويل القُبح إلى جمال.

كم راود «عيناء» حُلم الالتحاق بـ «مركز فن الخزف» الحرفي والفني بالفسطاط، لتتعلم حرفة صناعة الفخار على أصولها، وتزيح أمهر فخرانية السوق من فوق عروشهم. ذات ظهيرة حارقة، مرَّ ببيتهم شيخ الخزّافين، الذي تربطه بأمها صلة دم بعيدة، اطمأن على المريضة ودعا لها بالبركة والعافية. استوقفته «عيناء» في الرواق، أفضَت إليه بمكنونات أحلامها، شرحت له بكلمات متلعثمة شغفها بتعلم الفخار، أبدى السخرية إزاء رغبتها، وهي الجاهلة بالقراءة والكتابة، وتتلعثم فوق لسانها الكلمات.

تلمَّظ الغيظ في أحشائها، داخل الفراغ الذي كان مخصصًا لمعدة لم تمتلكها يومًا، انتظرت فوق السطح خروج شيخ الخزافين من الفاخورة، ثم قذفته بحجر شجَّ رأسه، وفجَّر الدماء من ينابيعها.

أبوها الذي شهد على فِعلتها، جرَّها كما تُجر الثيران المُعمَّاة من أعناقها في الساقية، ألقى بها وسط غرفتها. أقسمت له إنها لم ترغب في إيذاء الشيخ، وإن قوة بداخلها أجبرت يدها أن تلقي بالحجر، بعد أن استهزأ بطلبها. لم يلتفت لتبريرها، غلّق الأبواب هادرًا:

- هنا عشتِ وهنا ستُدفنين، وفي الفترة القصيرة بين الحياة والموت ستعيشين وكأنكِ لم تولدي قط، هذا قدركِ فاقبليه، ولا تحاولي أن تُغيريه.

«عيناء» أمهر فخرانية في حي مصر القديمة، خاطرٌ راوَدها طويلًا، حُلم كان أجمل من أن يتحقق.

***

باتت في الشارع فوق الركام، شربت من ماء السبيل، وتناولَت لقيمات معدودات لتُبقي جسدها حيًا. طافت على المستشفيات التي استقبلَت مصابي الزلزال، دخلت المشرحة، عاينت جثثًا مجهولة الهوية، لم يُستدَل لها على صاحب أو قريب، قابلَت الموت ذا الفم الأسود الطويل مرة أخرى وجهًا لوجه، في صورة أشد شراسة من لقائه السابق مع أمها، الهادئ السريع.

توحّش الموت هذه المرة، صار أكثر تعطُّشًا للأرواح، لم يعد يمتصها قطرة بقطرة داخل جسده الهلامي العظيم، صار ينهشها بأنيابه الطويلة، ثم يبصقها في قارعة الطريق.

الألم، العويل، الحسرة، النزف، كانوا أضخم من طاقتها الصغيرة على الاحتمال. ثالث أكبر ألم عاشته بعد كُره أبيها، وموت أمها، هو ألم فقدها لـ «جمال». ظلَّت تبحث عنه بعزمٍ وإصرار، لم تسمح للموت أن يُعجِزها، ولا لرائحته أن تزكم أنفها.

رغم عزمها الذي لا يفتَر، لم تعثر لـ «جمال» على أثر، لا وسط الأحياء، ولا بين الجثث والأطراف الممزقة. وها هي تلجأ للمكان الوحيد الذي تبقى لها، قسم شرطة الجمالية بشارع بيت القاضي.

- أرجوك يا عَم الصول، أدخلني إلى مكتب الضابط.
- وماذا سيفعل لكِ الضابط يا سِت؟ هل يترك جنابه أشغاله وأحواله ليبحث لكِ عن زوجك في المستشفيات؟

حدثتها نفسها أن تخلع نعلها وتنهال به فوق رأسه، أو ترشق كعبها في عُمق عينه اليُسرى متهدلة الجفن.

- نعم فليبحث عنه، أليست الشرطة في خدمة الشعب؟ إذن فمهمة الباشا العثور على زوجي.
- الصبر يا رب، اذهبي يا سِت في طريقك وإلا ألقيتُ بكِ في التخشيبة.

قبل أن تأتي إلى القسم، حاول الخوف سلسلتها ومنعها من القيام بتلك الخطوة المتهورة، استطاعت بعناد كسر سلاسله، لا يحركها في ذلك إلا رغبة مستميتة في العثور على «جمال»؛ زواجها منه هو البطاقة الوحيدة التي ستمكنها من أن تثبت لأبيها أنها امرأة تستحق الحب.

- لن أتحرك من هنا حتى أعثر على زوجي.

تعاظَم صياحهما في الخارج، مما دفع الضابط لاستطلاع الأمر، وبخاصة وقد استحوذ على انتباهه فستان الزفاف الذي ترتديه «عيناء». ما إن علم بمصابها، حتى عاونها على الجلوس في المقعد المواجه لمكتبه. فقدت «عيناء» عدة جرامات من وزنها الهزيل في الأساس، بدَت للناظرين هيكلًا عظميًا يتحرك بمعجزة من رب السماء. نالت طبقات الوسَخ والتراب من فستانها، صار من العسير تمييز لونه الأصلي.

تناولت كوبًا من الماء المثلج، كان موضوعًا على مكتب الضابط، بجوار فنجان قهوة نصف ممتلئ، تجرعته على رشفة واحدة بغير استئذان، ثم أزالت آثار الرطوبة عن فمها بطرف فستانها المتسخ. أمر الضابط بتدوين بيانات «جمال» في بلاغٍ رسمي، ووضعه في ملفات المفقودين. أشفق على حالها، رغم إرهاقه الشديد، دلّك صدغه بسبّابته، طاردًا لصداع لازمه طوال الأيام الشاقة الماضية:

- يبدو أنكِ لا تتابعين «أهم الأنباء» على القناة الأولى، زوجك ليس الحالة الوحيدة، نتلقى بلاغات بمفقودين في الزلزال منذ ساعاته الأولى، رغم المعدات وجهود رجال الإنقاذ، إلا أن انتشال الجثث والتعرف عليها يتم بصعوبة نظرًا لحجم الكارثة.

ثم أردف بأسى:

- الجمّالية وآثارها وبيوتها من المناطق التي تضررت بدرجة كبيرة للأسف، الآلاف ممن تهدّمت منازلهم أو تصدّعت أصبحوا بلا مأوى، لكن تأكدي أن الجميع يبذل قصارى جهده للتعامل مع هذه الفاجعة.

لم يكن يعنيها حجم الفاجعة، ولا آثار الجمالية وبيوتها، ولا المفقودون والعائدون، ما أرادت إلا شيئًا واحدًا فحسب.

- أريد زوجي.

اقشعر بدنه للطريقة التي تحدَّثت بها، ليس أسلوبها فحسب، بل نظراتها كذلك، شيء ما في عينيها الشهلاوين دفع بدبيب نمل خيالي ليرسم طريقًا فوق أطرافه ومؤخرة عنقه، كيف لعينين سوداوين أن تشتعلا بنظرات وحشية؟ يكاد يقسم إنه رأى نارًا همجية تستعر في عمق حدقَتيها. نفض هذا الخاطر السخيف عن رأسه، استشعر كونها في أقصى درجات الإجهاد الجسدي والنفسي، وأن الحديث المنطقي معها لن يُفيد. فأردف مشفقًا:

- اسمعي، توفر الحكومة حاليًا مساكن بديلة في المدن الجديدة للمتضررين من الزلزال، مثل القطَّامية حي المقطَّم، سأتواصل مع أحد المسؤولين وأوفر لكِ مأوى، ترتاحين فيه إلى أن تعثري على زوجك، اسمعي، تحتاجين أيضًا إلى رعاية طبية فجبينك به آثار كدمات ودماء متجلطة، سيصحبكِ العسكري إلى أقرب مستشفى و...

لم تُمهله «عيناء» ليتم حديثه الذي لم تأتِ لتسمعه، قاطعته وهي تنهض، صارفة نظراتها الممتعضة عن وجهه:

- سأعثر عليه بنفسي.

محاولاته الحثيثة لإقناعها بتلقي الرعاية الطبية اللازمة لم تُسفر عن شيء، غادرت «عيناء» دون أن تستجيب لنداءاته من خلفها. مطَّ شفتيه في أسى، ثم التقط سماعة الهاتف الأسود الرابض فوق مكتبه، يدير قرصه الدائري برقمٍ يحفظه. ما إن أتاه صوت المتصل به حتى بادره:

- خشيتُ ألا تكون على مكتبك، اسمع، جاءتني عروس تبحث عن زوجها، القصة مأسوية جدًا، وقع الزلزال في لحظة إتمام زواجهما ببيت المأذون، ظننتُ أن مثل هذه القصص مفيدة لكتابة مقال جذاب من أجل الجرنال الذي تعمل به، ماذا أفعل؟ أخي الصغير «نزيه الليثي» صحفي تحت التمرين وأحب مساعدته بتمرير مثل هذه الأخبار المثيرة لشهيته، اشكرني لاحقًا، الآن، إليكَ التفاصيل كاملة!

***

أمضت «عيناء» سنوات عمرها حبيسة غرفتها الصغيرة، بأريكتها القديمة التي تتخذها متكأ وطاولة وفراشًا، لم يسمح لها أبوها برؤية الشارع إلا من خلال النافذة القريبة من الأرض.

كان مستوى النافذة المنخفضة مساويًا لأقدام السائرين بالخارج، خافت أن تسأله عمل نافذة بمستوى أعلى، فيثور غاضبًا، ويسد عنها المنفذ الوحيد على الشارع.

ما كان بإمكانها رؤية الوجوه، ولا الأجساد، فقط الأقدام وأجزاء صغيرة من السيقان. قسَّم أبوها البناء إلى فاخورة وبيت، يقع البيت في الجزء الخلفي من الفاخورة، غرفة لأمها وأبيها، واسعة، رحبة، مطلية بلون أخضر، في أركانها تتناثر قطع الفخار للزينة، صنعها أبوها بيديه الماهرتين، وركن قصي اتخذت منه غرفة لها، صنع له أبوها بابًا ونافذة.

عاشت «عيناء» لا ترى من الناس سوى أقدامهم، هي جدُّ ماهرة في تصنيف الناس حسب أحذيتهم، وألوانها، وأنواعها، ودقة صنعها. مثلًا الرجال الذين ينتعلون الخُف بأصابع عارية صيفًا وشتاءً، هؤلاء لا مبالين للحياة بدرجة كبيرة، واقعيون، لا ينتظرون من المستقبل سوى أن يمر هونًا كما مرَّ الماضي سهوًا، لا يمنحون الكثير، لأنهم لا يملكون الكثير.

أما ذوو الأحذية الرياضية عريضة النعل، بيضاء اللون، لا يصرفون وقتًا طويلًا في التفكير، يفعلون ما يشتهون، دون مراعاة السوابق أو العواقب، يتظاهرون بأنهم أناس غير الذين يرونهم في المرآة، يرتدون أقنعة الصمت حين يُحشرون في زوايا السؤال، لا يرتضون بالقليل، ولا يكفيهم الكثير.

أما النساء اللاتي ينتعلن الصندل المفتوح ذا الكعب القصير، بلون النيل، لا يملكن فائضًا من جمال الخِلقة، لكنهن كريمات الروح، طيبات المعشر، لا يُتقنَّ فنون الإغواء، يحرصن على الصداقة حرص الطبيب على الحياة.

أما ذوات الكعب العالي الدقيق، بخامة جلدية حمراء اللون، مشاكسات، عنيدات، متمردات، يصفعن الحياة إن هي أدارت عنهن وجهها، لا يثقن بالغرباء، ويتباهون بالشمائل والأنساب

تنفق «عيناء» ساعات النهار بين تأمل الأحذية وتصنيف الخلق، ومشاهدة التلفاز، وبخاصة القناة الأولى والثانية، إذ تتشوَّش عندها القناة السادسة. تدمن مشاهدة الأفلام، وتحفظ بعض مشاهدها عن ظهر قلب.

التلفاز هو نافذتها الوحيدة على الحياة، ولأنه قديم الطراز، لا يعرض الصورة بالألوان، ظنَّت لسنوات أن الحياة خارج بيتها باللون الأبيض والأسود.

مهما كان شكل الحذاء، جميعهم يثيرون في نفسها الشيء نفسه، الحقد والرغبة في الإيذاء.

بشريط مطاط تستخدمه كـ «نبلة»، كانت تتلذذ بقذف الحصى الصغير على الأقدام التي تمر من أمام النافذة المنخفضة لغرفتها، تكتم ضحكاتها كلما تنامت إلى مسامعها آهة ألم، أو رأت قطرات الدماء تنِز من السيقان التي تنجح في إصابتها.

سمعت مرة في أحد الأفلام بطلها يقول: «الألم يُذكرنا أننا على قيد الحياة».

هكذا تشعر أنها تقدم لأهل منطقتها خدمة جليلة، بنبلتها والحصى الصغير.

يحل المساء، ينام الشارع، وتقل النقرات فوق وجهه، يعود أملس خاليًا من شوائب البشر، فتغلق التلفاز، تلقي نظرة على أمها المريضة النائمة في الغرفة المجاورة، ثم تعود إلى غرفتها تغُط في نوم عميق، حتى يستيقظ الشارع في اليوم الجديد، وتتكاثف الخطوات بجوار النافذة.

في هذه الطرقات تسير الآن، مثل كرة كاوتش، ما إن تُدفَع بقوة صوب الجدار، حتى ترتد بقوة أكبر عند النقطة صفر، ها هي متوجهة إلى فاخورة أبيها، بمنطقة بطن البقرة، مدينة الفسطاط، بمصر القديمة.

جُل ما تخشاه أن تكون الفاخورة قد تهدّمت إثر الزلزال، ثم ذكّرت نفسها: *الفخراني الكبير لا يسمح لفاخورته أن تنهار.*

كان ارتداؤها لفستان الزفاف لافتًا للأنظار، لا صارفًا لها، بلغ منها التوتر مبلغًا عظيمًا، إلا أنه لم يُثنِها عن وجهتها.

- لم تتهدم الفاخورة.

قالتها بغبطة، كانت تثق أنها ستراها قائمة أمامها، في زهو يضاهي زهو صاحب الأيادي الحريرية، كما يطلق عليه زبائن الفسطاط. باب الفاخورة مغلق بقفل كبير من الخارج، مما يعني أن أباها لم يمضِ ليلته في البيت، هل خاف الزلزال؟ أدهشها ذلك، لم ترَ يومًا الفخراني الكبير يهاب شيئًا، سواها!

مرّتْ ساعات النهار بوتيرة بطيئة مستفزة. جالسة بظهر يستقيم إلى جدار المخبز القريب، تُجاوره عصّارة قصب صغيرة، ومقهى قديم جدًا، مرّ به أكثر من قرن فوق صهوة الزمن، ولا يزال بناؤه قادرًا على حمل رسائل التاريخ. راقبَت الشمس وهي تتقلب فوق العُشبِ السماوي الأزرق، من المشرق إلى

المغرب، وعندما أطلَّ القمر يمسح عن عينيه أثر النعاس أدركت أن أباها لن يعود هذه الليلة أيضًا. تعرف حبه للمباهاة كفاعل خير ذي قلب كبير، لا بد أنه تطوَّع لرفع حجر أو شق جدار بمعيَّة فرق الإنقاذ، لا تظنه يقرب المستشفيات لمساعدة طواقم التمريض المتعَبة، فأبوها يكره مرأى الدماء.

نامت حيث جلست طوال النهار، بعدما أجهزَت على ما اشتهت من ماء السبيل.

في الصباح التالي أرسلت الشمس كفًّا توقظها، رمتها نظرات المارة بالريبة تارة، والشفقة تارات، مسحت عن عينها آثار الانتظار الطويل، وجدّت للبحث عن مكان تلتجئ إليه، إلى أن يعود أبوها من غيبته. لا بد أن يعود؛ لا يهجر الفخراني الكبير فاخورته وإن فارق الحياة، سيُدفن فيها كما أوصى صديقيه؛ المرخماتي «منشور» صانع المرمر والرخام، وصاحب السَّرجة «مستتار» بائع بذور السمسم والزيت الحار.

- يا عم، هل هذا البنسيون يستقبل الزوار؟

ألقت سؤالها على عابر طريق، تشير بإصبعها صوب مبنى لا يتبدَّى سوى نصفه العلوي، بينما أسفله مخفي خلف فرن كبير يُخدِّم على سكان المنطقة، أخبرتها أمها سابقًا أنه بنسيون قديم بعُمر مصر القديمة نفسها. صبَّ الرجل تركيزه على هيئتها العجيبة، لولا الفستان لما كان بإمكانها لفت الأنظار، بوجهها الذي بلا ألوان تعلق بالذاكرة، كبيوت مصر القديمة التي نحتها الزمن، وتركها متشابهة بلا مزية تُفرق إحداها عن الأخرى.

بادرها الرجل:

- فتاة مثلك يجب ألا تسكن غرف الغرباء، أليس لكِ بيت أو أقرباء؟

وعندما لم تُجِب، حوقل مستطردًا:

- مسكينة يا بنتي، مات أهلك في الزلزال وتهدم بيتك، أليس كذلك؟ لا تخافي يا صغيرة سيمنحنا الرئيس بيوتًا بديلة عن التي فقدناها.

ثم اتشحت عيناه بالحداد مردفًا:

- ولكن من سيعيد إلينا الأهل والصحب والأحباب؟

لم تكن «عيناء» فتاة مرهفة الشعور، ولا تعرف كيف تكون، بينها والبشر حاجز بسُمك جدار غرفتها، تشعر أنها تطل عليهم من نافذة صغيرة في

مستوى الأرض، لا ترى فيهم إلا أقدامًا كبيرة. أزعجها بكاء الرجل، الذي رأته كحذاء قديم من «باتا» أبلته المسافات، وأنهكته الاحتمالات، فاضت مشاعره الجياشة بأكثر مما يُمكن لطاقتها الضيقة استيعابه.

ندَّت عنه عبارات لوعة شوقًا لأهله الذين دفنهم بيديه، بدا حنونًا، مكلومًا، ولشد ما تزعجها المشاعر الشفافة. يقول طبيبها في المصحة إنها معتلة اجتماعيًا، لا تستجيب عاطفيًا لآلام الآخرين، وتقول زميلتها في العنبر إنها مسخ يخلو من الشعور.

فارقته مبتعدة في الحال، وسؤاله بلا مآل.

***

في طريقها إلى البنسيون، استوقفها صوتٌ عذبٌ لمُقرِئ طويل النفَس ينبعث من جهاز الراديو، يُرتِّل «الطارق» برواية ورش عن نافع، لم تفطن لاسم السورة ولا مُقرئها. ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝﴾[1]. هذا ما استوقفها للحظات، كانت كافية لترفع رأسها صوب الفاترينة، لتكتشف وجود أجزخانة بالقرب من فاخورة أبيها.

ساورها العجَب إزاء فكرة الخلق من الماء، أي نوع من الماء؟ لم تصل إلى مرام الكلمة، ضلَّت عن التفسير القويم للآيات، بذلت خيالها لتتصور إنسانًا يخرج من وسط البحر، أو يزحف على ضفة نهر، أو ينبت في قاع قُلة من الفخار، تنمو له ذراعان، وعينان وساقان، فيحاول الخروج من الفتحات الصغيرة طلبًا للحرية، هل يحتاج الإنسان إلى الحرية؟

هي لا تحتاج إليها، كان يكفيها أن تعيش في الفاخورة مع أمها وأبيها، تُنفق عمرها وهي تعجن الطين الأسواني، تَطحن الصخر، وتُشكِّل الفخار.

- أريد... دواء.

قالتها بارتباك ملحوظ، تتحاشى النظر إلى وجه الأجزجي[2]، مخافة أن يتعرف عليها، وإن كانت تراه للمرة الأولى. ثمة زبون يستند بتلكؤ إلى

---

(1) سورة الطارق، الآية 5- 6.

(2) الصيدلي.

الأرفف، يجري حوارًا مع الأجزجي، كانت في عجالة من أمرها، لم تطق صبرًا على تلبية طلبها.

- طبعًا، أي نوع من الأدوية.

قررت ألا تستسلم. كي تنال حب أبيها عليها أولًا أن تكون لائقة بهذا الحب، كما أخبرها الطبيب في المصحة، إن الحب مشروط بالأفعال، وها هي تفعل ما بوسعها كي تستنبت معدتها في الحال!

عندما تنبت معدتها، سيراها أبوها امرأة كاملة، وسيعاونها في العثور على «جمال». كم أن الدنيا غريبة، ظنت في البداية أن حب «جمال» سيقودها إلى أبيها، الآن يبدو أن حب أبيها هو الذي سيقودها إلى «جمال». حتى وإن استنبتت معدتها، وتقافز قلب أبيها نحوها، ومنحها جناحيه تستظل بهما وتحتمي من غدر الزمان، ستظل بحاجة إلى رجل، كي تكتمل صورتها في عين أبيها، ويراها كغيرها، بلا خلل أو شذوذ.

استرقت نظرة سريعة صوب الزبون الذي بدا غير مبالٍ بها، مما أشعرها بقدرٍ من الراحة، جعلها تميل صوب الأجزجي، تقول بصوتٍ خفيض:

- هل أجد لديك بذرة لإنبات المعدة؟

هزَّ رأسه، ينفض ما علق بأذنيه من كلمات شائهة، ومعانٍ خرفة. أطفأ الراديو كي يتمكن من سماعها بوضوح.

- معذرة لم أسمعك.

- بذرة، لإنبات... المعدة... في الأجزخانة هنا، لا بد وأن تُباع كل البذور والأدوية، في فيلم «حياة أو موت»[1] ذهبت «سميرة» إلى الأجزجي ليصنع دواءً لأبيها المريض، بالطبع لن تعطيني بذرة مسمومة فأنا لا عنوان ثابت لي، لن يتمكن حكمدار العاصمة من البث عبر الإذاعة «إلى السيد أحمد إبراهيم الساكن بدير النحاس لا تتناول الدواء، الدواء به سمٌّ قاتل».

جابهها بصمتٍ طويل، ونظرات ذاهلة، تتهمها بالكثير. أردفت بصبرٍ شحيح:

---

(1) فيلم مصري، قصة: كمال الشيخ.

- أنت أجزجي، أليس كذلك؟ أقول هذا لأنك ترتدي معطفًا أبيض، أخبرتني زميلتي في العـ... أقصد زميلتي في مكان ما أن الأجزجية لديهم حبوب صالحة لإنبات كل شيء، تناولتها لكنها لم تأتِ بنتيجة.

كان هاجسها الأكبر أن يُفرّغ جسدها تمامًا من الأحشاء؛ بالأمس معدة، وغدًا كُلية، وربما بعد غد قلب أو طحال، فتصير في أرذل العمر كبرميل طرشي في آخر النهار، لا يحوي إلا سوائل لاذعة.

سألها بريبة لم يخفِها:

- تناولتِ دواءً كي ينبت لكِ معدة؟ هل ما فهمته صحيح؟

تبًا له، هكذا تهامست. كان صوته عاليًا إلى الحد الذي استرعى انتباه الزبون، الذي يبعد عنها خطواتٍ قليلة، فانفجر ضاحكًا من قولها باستخفافٍ مقرف. أربكتها وقاحته، استشاطَت غضبًا، ضمت أصابعها بقوة مُشكّلة قبضتين من فرط الغيظ.

استطالت وقاحة الزبون، إلى الحد الذي دفعه ليختصر المسافة بينهما، إلى ثلاث خطوات فحسب، ويقول بنبرة جادة تُنافي الضحكة التي أطلقها منذ لحظات:

- لعل زميلتكِ أخطأت ومنحتكِ بذرة صالحة لإنبات شيء آخر، فكما تعرفين، البذور تتشابه.

التفتت «عيناء» صوبه، كادت تسبه، لولا أن رأت الجدية على وجهه، لا بد أنه أجزجي هو الآخر، وإن كان لا يرتدي معطفًا أبيض، لعل في وصفته شفاء لحالتها. سألته متلهفة:

- أي بذرة أكلتُها يا تُرى؟

تظاهر بالاستغراق في التفكير، يحك ذقنه بسبابته. ثم قال يُطالع عينيها مستدعيًا نبرة قاطعة:

- بذرة إله.

ما إن نطق بها حتى تحركت الأرض بهزة خفيفة، فزعة ظنتها عودة للزلزال، ما إن سكنت حتى أدركت أنها إحدى تبعاته. كررت من خلفه بدهشة كأنها منوّمة مغناطيسيًّا:

- بذرة إله!

- نعم، لعل إلهًا صغيرًا ينمو بداخلكِ الآن.

ودَّت لو تسأل هذا الرجل أكثر، الذي يبدو عليمًا بشتى أنواع البذور، لولا أنها لا تحب الحديث المطوَّل إلى الغرباء، إذ يضيق نفسُها، وتصاب بهلع غير مبرَّر. شكرته واجمة، ثم لملمت أفكارها ومضت. أطلق الزبون ضحكة أخرى ساخرة، مؤشرًا صوب الموضع الذي كانت تقف فيه. قائلًا:

- من هذه المعتوهة؟

هزَّ صاحب الأجزخانة كتفيه بلا مبالاة، ثم عكف على جمع طلبية الزبون من فوق الأرفف.

***

على مشارف البنسيون أقبلَتْ، وفي لافتته الباهتة أمعنَت، ومن الحروف العربية المتلاصقة لم تتمكن من أن تُقيم كلمة، أو تستدِر معنى. لو لم تُحرَم من الكتاب والكرَّاس، لقرأت «عيناء» بوضوحٍ:

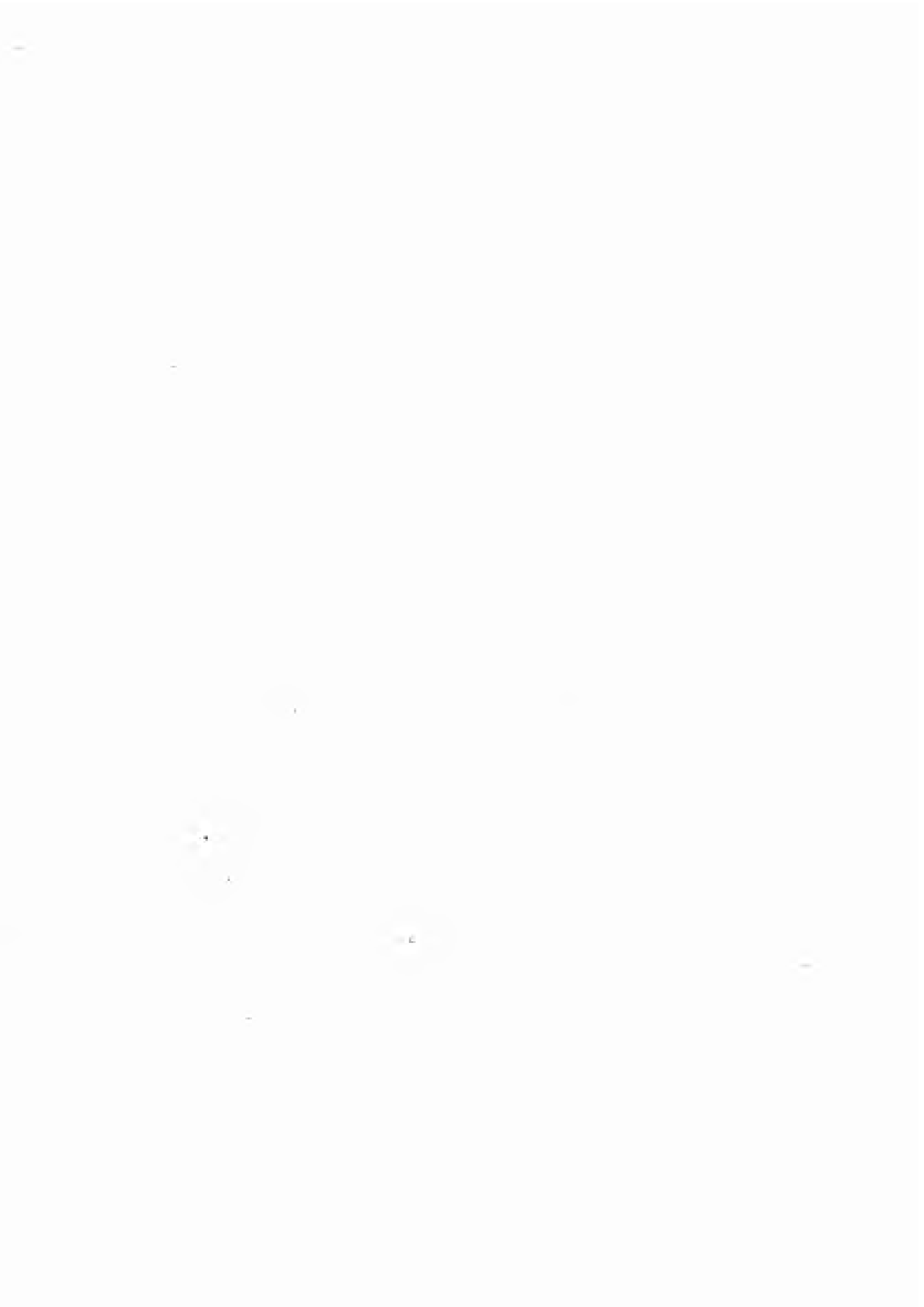
**«بنسيون عجَب هانم».**

لكنها لم تفعل، بل فعل «نزيه الليثي»! الصحفي المتحمس الذي ما كان ليسمح أن يذهب هذا السبق إلى سواه. لم يكن من العسير أن يستدل على مكانها، بعدما أخبره أخوه أنها خرجت من عنده بقسم الجمَّالية، متوجهة مرة أخرى إلى الركام الذي كان سابقًا بيت المأذون، هذا ما أفاد به العسكري الذي أرسله لتتبُّعها.

عثر عليها «نزيه» في المكان المعلوم، تعقَّب خطواتها الضائعة، ورصد قوتها الخائرة، إلى أن وجدها تتوجه إلى منطقة بطن البقرة بالفسطاط عبر الأتوبيس، بعدما سدَّد عنها أبناء الحلال ثمن التذكرة.

ستصبح قصة هذه الفتاة خبرًا مدويًا، منجمًا إنسانيًّا، يستدر عاطفة القراء، تمامًا كما يحب رئيسه في الجرنال. مجالات العمل هي ساحات شرسة للتنافس، على المرء أن يثبت كفاءته طوال الوقت، ولا يتأتَّى ذلك إلا بإزاحة الآخرين عن مقاعدهم، ومن ثمَّ احتلالها. تلك كانت الفكرة الأثيرة التي تملكت وجدانه منذ أن خطى خطواته الأولى في سوق العمل.

سيتفوق على تلك المتغطرسة «أنهار»، بخبر العروس التي تطوف شوارع مصر القديمة بفستان الزفاف، بحثًا عن عريسها.



# (8)

# الرجل الذي لا يتذكّر

- لا أتذكر شيئًا على الإطلاق!

ما فَتِئ يرددها، ذاهلًا عما حوله، يعتصر عقله في محاولة ميؤوسة لاستخلاص معلومة، يستدل بها على اسمه، أو عمره، أو أحد من صَحبه، أو امرئ من أهله. لا يتذكر كيف عجن الزلزال بيته، أمسَت ذاكرته صفحة بيضاء خالية من النقوش.

أشفقت «أنهار» على حاله، ساندته ليقف على قدمين متزلزلتين برعدة ظاهرة، في جسدٍ متصدع آيل للسقوط. متشبثًا بذراعيها خطا كطفل تعلم المشي للتو. ناشدته أن يتحامل على نفسه قليلًا، حتى يصلا إلى سيارة إسعاف تقف في حالة تأهب، على مقربة من ميدان هليوبوليس. انتفض بفزعٍ هاتفًا:

- لا.

لم تفهم كيف «لا»؟ هدأت من روعه، أو بذلت جهدها لتفعل، لكن الرعدة لم تتوقف، و«لا» لم تتبدّل. أدهشها إصراره على عدم الذهاب إلى المستشفى، أو تلقي المساعدة من رجال الإنقاذ، وعندما اقترحت أن يذهبا إلى أقرب قسم للشرطة، علّهم يستدلون على هويته، امتلأت عيناه فزعًا:

- لا أريد، أنا... أريد فقط أن أسترد أنفاسي، أريد... أن أرتاح قليلًا، وسأكون بخير.

- ممَّ أنتَ خائف؟

- لا أعرف!

بدا مشوشًا جدًّا، إلى الحد الذي ضاعف شفقتها، فلم تدرِ ما تصنع سوى أن تسوقه إلى حيث أوقفت سيارتها. فتحت باب الفيات تعاونه ليستريح فوق المقعد، جاورته في مقعد السائق، تُمرر له نظرات جانبية مُستطلعة طوال الطريق، لم تلتقط عيناها آثارًا للدماء، فاطمأنت إلى أنه غير جريح ظاهريًا.

ملابسه الممزقة، ووجهه المُعفَّر، وشعره الطويل المبعثر فوق جبهته، كل هذا منعها من تقدير عمره. توقفت بعد ثلاث دقائق عند كُشك صغير، يعرض البسكويت والكيك والعصائر والمشروبات الغازية، ملأت كيسًا بلاستيكيًا كبيرًا من كل ما طالته يداها.

انقض على الطعام يلتهمه بنهمٍ عظيم، أتى على كل ما ابتاعته «أنهار»، باستثناء العصير والمياه الغازية.

- لا بُد أنكَ متعطش لشُرب الماء.

قالتها وهي تناوله زجاجة مياه تحتفظ بها داخل تابلوه سيارتها، طالبها بالتوقف على جانب الطريق، فتح الباب وترجَّل منها، راقبته متحفزة مخافة الهرب، شرب نصفها، ثم أراق النصف الباقي فوق وجهه ورأسه كاملًا، يزيل ما علق بهما من غبار كان يواري ملامحه.

عاد إلى السيارة وأغلق الباب، فاندهشت «أنهار» إثر رؤيته، ليست المرة الأولى التي تلتقي فيها رجلًا له حظ وافر من الجاذبية، سبق وأن أجرت حوارات متفرقة في مطلع حياتها الصحفية، خلال دراستها الجامعية، مع مشاهير شاشة ونجوم شباك. ما أذهلها حقًّا الوحمة العجيبة التي تتوسط جبهته العريضة؛ دائرية، قرمزية، كأنها تجمُّع دموي، يخالطها القليل من الصُفرة، شبَّهتها بلون الزعفران. دققت النظر عن مقربة، بدت لها أكثر بروزًا ودقة من أن تكون وحمة، دائرة من الشمع الأحمر الذي يختم الرسائل المهمة والوثائق السرية، الذي كان متداولًا بشكل خاص بين الملوك والأمراء قديمًا، حتى إذا ما حاول متطفل فض الرسالة وسرقة فحواها، تفتت الختم نظرًا إلى شدة التصاقه بالورق، وتنفضح عندئذ جريمة التلصص.

سبق وأن رأت «أنهار» شرطيًا يستخدم الشمع الأحمر، في أثناء غلق أحد دكاكين حي النحَّاسين المخالِفة لقوانين سير العمل، الذي صدر بحقِّه حكم قضائي.

يومها، تعرفت على المادة الشمعية من كثب؛ دهنية، صلبة في درجة حرارة الغرفة، تنصهر بالتسخين، ثم تعود سريعًا جدًّا إلى حالتها المُتحجرة، تتمسك بشدة في السطح الذي انصهرت فوقه. لم يسبق لها أن رأت إنسانًا مختومًا بالشمع الأحمر!

تحيَّر الرجل الذي لا يتذكر اسمه من نظراتها المتمعِّنة، ثم اضطرب، ثم استاء، ثم امتعض:

- هل ترين عفريتًا؟

أمسكت بالمرآة الأمامية وأدارتها صوبه، لوهلة أصابه الذعر، لم يتعرف على الوجه الذي طالعه في المرآة، لم يبدُ مألوفًا ولو قليلًا، لو لم يعرف أنها مرآة، لظن أنه يلتقي غريبًا لأول مرة. قرَّب وجهه من السطح العاكس، يتحسس الختم الأحمر، بتحفظٍ كبيرٍ، كأن جبهته تخص جسدًا آخر غيره.

سألته بدهشة بالغة، لم تبذل جهدًا لتخفيها:

- كيف حدث هذا؟ لماذا يريد شخص أن يختم جبهته بالشمع الأحمر؟

ازدرد ريقه وهو يعود بجذعه إلى ظهر المقعد، يُخلخل مقدمة شعره الطويل بأصابعه، ويُلقي ببعضه ستارًا فوق جبهته.

- لا أتذكر.

أجابها باقتضاب استدعى صمتًا ثقيلًا، جثم فوق أنفاس الكلمات. أوقفت «أنهار» سيارتها في باحة مستشفى هيليوبوليس، وما إن قرأ اللافتة حتى التفت صوبها، هادرًا بغضب:

- ألم أقل لكِ إنني لا أريد الذهاب إلى أي طبيب.

انفعلت بدورها:

- لا أفهم سبب اعتراضك، أنت بحاجة إلى فحص طبي شامل، ربما أُصِبت بنزيف داخلي، أو تلف في عضو، أو الأسوأ، ارتجاج في المخ.

فتح باب السيارة بنفاد صبر، ثم أغلقه بعنف، سار في الاتجاه الذي ساقته إليه قدماه، مستدبرًا المستشفى، ومستقبلًا المجهول. تبعته «أنهار» تهرول من خلفه:

- انتظر، أنتَ يا...

تصيح فلا يلتفت. تجذب ذراعه تستوقفه، تبذل جهدًا لتستنطقه:

- لا أفهم رفضك لأن يفحصك طبيب، هل تعاني رهاب المستشفيات؟

- أنا رجل لا يتذكر اسمه، كيف أعرف إن كنت أعاني نوعًا من الرهاب؟ كل ما أعرفه أنني لا أريد أن يفحصني أحد.

رعدة مفاجئة أصابت جسده، لم تعرف إن كان مبعثها نسمة الهواء الباردة التي هبَّت نحوهما، أم أنها نمَت من داخله. شعرت بالأسى تجاه هذا الرجل الذي سلبه الزلزال أهم ما يملك المرء؛ ماضيه وذكرياته.

قادته صوب الفيات مرة أخرى، تعده بصدق هذه المرة ألا ترغمه على ما لا يطيق. حاولتْ بث شيء من الدفء في الأجواء، فتنحنحت قائلة:

- بالمناسبة، اسمي «أنهار».

رمقها زاويًا ما بين حاجبيه، ثم أبعد وجهه عنها، عاجزًا عن أن يمنحها اسمه. قالت بلطفٍ كبير:

- لا تقلق، ستتذكره.

شعرت بحكة في أرنبة أنفها، فقبضته مرتين، يبدو أن حِسها الصحفي استشعر بحنكته أن في هذا الرجل غرابة غير مسبوقة، ترقد على سبقٍ مثير لم يُؤتَ لصحفي قبلها.

تظاهرت بمرح مفاجئ، وهي تتخطى سيارة تزاحمها على صدارة الطريق:

- أظنكَ اكتفيت من النوم في الخلاء الآن، فلنبحث لك عن فندق.

***

تَسربَل القمر في عباءة الليل الحالِكة، تُطارده أنَّات الحزانَى وهمهمات الحيارَى، يقتطفون من نوره ما يستترون به أمام العالمين.

أرسل الرجل الذي لا يتذكر اسمه نظراته صوب القمر الرابض في أحشاء الظُّلمة، يُقلبه ذات اليمين وذات الشمال، يفتِّش في ثناياه عن رُكن يألفه، يُذكِّره بما كان، لم يجد لمبتغاه من سبيل، كان القمر في عينيه طازجًا، وكأنه خرج من فرن السماء للتو، شعر أنه لم يُبصر القمر قبلًا، وكأنه كان يعيش في عالمٍ بلا أقمار!

- ستحتاج إلى هذه الأغراض.

ترك مكانه أمام النافذة، وخطا القليل صوب «أنهار»، يسترق النظر إلى طاولة خشبية صغيرة، تركت فوقها أكياسًا بلاستيكية، تحوي طعامًا وشرابًا وكسوة. لم تتمكن من أن تحجز له غرفة في فندق جيد، نظرًا لعدم حمله هوية شخصية، اختارت له لوكاندة صغيرة، يعمل بها أحد مصادرها المعلوماتية، تطل على بحيرة عين الصيرة الكبريتية القريبة من سور «مجرى العيون» بحي مصر القديمة.

- الغرفة متواضعة جدًا، لكن هذا ما بإمكاني توفيره في الوقت الحالي، لا تقلق فالحكومة تبذل وسعها لإيواء ضحايا الزلزال، اخترت لك هذا المكان كي تتعرفه عن قرب، فمن المتوقع أن يُسكَّن بعض من فقدوا مأواهم في مساكن عين الصيرة المؤقتة، إلى أن تنتهي الحكومة من توفير منازلهم الجديدة.

رجل خرج منذ ساعتين من بطن الأرض، لن يهتم كثيرًا بجودة الغرفة التي سيمضي فيها ليلته، لكنها أرادت انتزاع الكلمات من فمه المختوم بالصمت. لم تصب هدفها، لاذ بخرس عجول يستجدي العُزلة، وكأن الأيام الأربعة التي أمضاها وحيدًا تحت الأنقاض لم تكفِه.

طفل كبير تائه، يرمق ما حوله برهبة مَن فتح عينيه على الحياة للتو، استدر فيها الشفقة، وكثيرًا من الرحمة، وربما شيئًا من الطمأنينة، وهذا شيء نادر أن تشعر به تجاه رجل. بيدَ أن الرجل الواقف أمامها الآن أعزَل من كل ما قد يتسلَّح به غيره من أبناء جنسه، هذا الرجل لا يملك أن يؤذيها.

أدركت أنها غير مرغوب فيها، غادرت الغرفة بلا تباطؤ، رغم أنها ودَّت لو لم تُغادر، أجَّلَت عودتها إلى البيت ومن فيه حتى مشارف الفجر، لم يعد بوسعها التأجيل أكثر.

لا مكان لتهرب، لن تسمح لهذا البغيض بتدنيس بيتها بأنفاسه الخبيثة، عليها أن تبحث عن وسيلة لركله خارج حياتها.

***

بعد مغادرة «أنهار» اغتسل طويلًا، تخلص من التراب ورائحة التراب التي اشتمَّها في جسده، ارتدى بنطلون باجي شبابيًا بجيوب متعددة يصعب حصرها، وقميصًا منقوشًا بألوان متداخلة، امتعض إثر المظهر الذي انعكس على وجه المرآة، بدا بجلاء أنه يرتدي ملابس رجلٍ آخر.

دنا من المرآة أكثر، حتى لم يفصل بينهما إلا بضعة سنتيمترات، راحت الأسئلة تتزاحم في عقله؛ من هذا الرجل الذي يراه في المرآة؟ ولماذا سؤال «مَن أنا» هو أول ما يتبادر إلى خاطره؟ مثلًا لا يتساءل عن المكان أو الزمان بقدر اهتمامه بمعرفة ذاته أولًا، كأن الكون بأبعاده كلها ما هو إلا وعاء يحفظ الشيء الثمين الذي هو نحن.

«من أنا؟»، سؤال يطوف برأسه، يُخيم في ساحات النسيان، يحفرها، ينقب فيها عن مشهد أو ملمح يُرشده إلى هويته المفقودة، لا شيء، لم يحصد من جراء هذا النبش الذي اقتطع جزءًا كبيرًا من الليل سوى صداع ألمَّ برأسه، وفراغ كبير بحجم السماء استوطن قلبه، حتى شعر أن بداخله ظلامًا باتساع مجرة، كأن الكون بداخله وليس هو داخل الكون.

راح يستكشف المحتويات القليلة للغرفة، يستاء منها، يحسدها، على الأقل هي أشياء تعرف ماهيتها، بعكسه هو الفاقد لهويته. انتهى به الإجهاد صوب الفراش غير الوثير، الذي يكفي لحمل النوم الثقيل، تمدد مسترخيًا، وللأحلام مستدعيًا، علَّه يرى فيها دليلًا أو أمارة.

ما إن أخذته سِنَة من النوم حتى انتفض، والقليل من الأمان الذي أمسك به قد انفلَت، وضع كفًا فوق موضع قلبه واعتصر، شيء ما يتجول في مغارة الصدر بمحاذاة أضلعه؛ الحذر، والأرق، والتوجُّس، والحسرة، والخوف، والشوق ربما، كل ما كان على يقينٍ منه في تلك اللحظة، أنه بكيفية ما، وفي مكانٍ ما، وزمانٍ ما، قد فقدَ امرأة تخصه!

امرأة بها علامة مميزة، في شكلها أو لونها أو رائحتها، لا يتذكرها الآن، لكنه على ثقة أنه ما إن يراها سيتعرَّفها.

امرأة يجب أن يعثر عليها قبل فوات الأوان!

# (9)

# محارة العالم القديم

عبرَت «عيناء» عتبات البنسيون قديم الطراز، متهالك الطلاء، كأنه عجوز يتكئ على عصا الزمن النخرة. تتعجب، كيف بينما صمدت هشاشته أمام الزلزال تساوَى بيت المأذون بالأرض، مُبتلعًا خططها وأحلامها؟

حقدَت على هذا الجماد الذي ظلَّ متماسكًا، لو كان لبيت المأذون ربع حظه لكانت في بيت منقذها الآن، تتجهَّز للقاء أبيها، تخبره أنها صارت امرأة بلا نُقصان، استعاضت عن معدتها بزوجٍ من لحم ودم وعظام.

وقفت أمام مكتب الاستقبال الخالي تكتنفها الحيرة، تتلفت حولها في اضطراب مفضوح، تدق جرسًا ذهبيًّا صغيرًا، سرَت رنَّته في أعصابها مسرَى النبضات.

أطلقت شهقة فزع حين قفز قط أسود سمين، من النوع الفارسي طويل الشعر، فوق مكتب الاستقبال، يجلس على قائمتيه الخلفيتين، ويمد لها قائمته اليُمنى الأمامية، فيما يُشبه المصافحة.

رجعت خطوتين إلى الوراء، تثبت نظراتها فوق القط، الذي استعاد قائمته، يلعقها ببطء باعثًا على التوتر، يُثبّت فوق وجهها عينين فيروزيتين واسعتين، تلمعان بشكل أزعجها، واستجلَب نفورها.

- أهلًا وسهلًا.

استدارت «عيناء» صوب مصدر الصوت الأنثوي المتحشرج، طالعتها عينان صغيرتان لوزيتان، بلون فيروزي بهيج، في وجهٍ لحيم أبيض يرتكز على عنقٍ مكتنز، وشعر رمادي طويل يلامس رقبتها. سيدة قصيرة مكتنزة التكوين، دسمة التفاصيل، ما إن رأت القط حتى أمسكته من موضع رخو بخاصرته، حملته بعناية فائقة، صنعت من ذراعيها مهدًا له، وتكاد «عيناء»

تُجزم أن السيدة أحنَت رأسها أمام القط، فيما يُشبه تحية احترام وتبجيل موجَّهة لملك أو أمير.

اختفت قليلًا في الممر، ثم عادت من دونه، تقف خلف مكتب الاستقبال، ترحب بها ثانية:

- أهلًا بكِ في «بنسيون عجب هانم»، كيف أستطيع مساعدتك؟

صوت المرأة الخمسينية باعث على الراحة. أرخت «عيناء» قبضتيها المتشنجتين، تقول:

- أأأريد، غرفة.

ثم أردفتْ بلهفة:

- وماء، الكثير من الماء.

تركَّزت اللوزتان الفيروزيتان على وجهها، فتذاوَبت خجلًا. استطردت تُجيب سؤالًا لم يُسأل:

- أنا عطشَى.

قدَّمت لها الماء من مطبخ قريب، شربَت الكثير حتى ارتوَت، رمَت ببصرها صوب الجدران فستقية اللون، رغم أصُص الزرع الأخضر المتناثر في الأرجاء، ثمة رائحة عطونة تخيم على المكان. تسمَّرت اللوزتان الفيروزيتان فوق وجهها، فتوتَّرَت، حاولَت مداراة قلقها بممارسة لعبتها الذهنية المفضلة، عصفَت أفكارها في محاولة لإيجاد حذاء يتوافق مع صاحبة البنسيون، وللمرة الأولى منذ أن بدأت هذه اللعبة، عجزَت عن تخيل واحد مناسب!

لم يتجسَّد في ذهنها إلا نعل عريض، بمقاس 37، بلا وجه، أو تفاصيل، كأن الإسكافي توقف عن خياطته مُجبرًا لا مُخيَّرًا.

حالة فريدة جدًّا، أثارت شهيتها للتأمل.

لم تكن الوحيدة التي تشتهي التأمل، فاللوزتان الفيروزيتان لم تحيدا عن وجهها قيد خلية. تدافعت جيوش القلق إلى ساحات صدرها، تصول وتجول حتى تفصَّد جبينها عرقًا، وتشربت وجنتاها بحُمرة لئيمة، فضحت اختلال توازنها.

استدركت المرأة تلملم نظراتها، ثم تطالع دفترًا كبيرًا مستقرًّا فوق المكتب.

سارعتْ «عيناء» تضيف:

- أريدها رخيصة، ليس معي... لا أملك... مالًا، لدي القليل.

في الواقع لم يكن لديها أي مال على الإطلاق.

- ثلاثة جنيهات لليلة الواحدة.

«عيناء» التي لم تعاقر الحياة إلا لمامًا، لم تقدِّر إذا كان الثمن غاليًا أم زهيدًا، ولم تملك كذلك رفاهية التفكير أو الترجيح.

- حسنًا، لكن المال ليس معي الآن، سأحصل عليه في الصباح، لقد فقدتُ كل شيء في الزلزال.

ثم رمقتها برجاء، تُبرم اتفاقًا صامتًا، وقَّعت عليه المرأة المتأنية بصمتٍ طويل، بينما تدون بقلم حبر أسود داخل الدفتر، تتساءَل:

- اسمك؟

- «عيناء».

عضّت شفتها السفلى فور أن نطقت بها، ثم استدركت باسم أب وجد ولقب عائلة لا تمت لهم بصلة دمٍ. دوَّنتها السيدة الخمسينية في الدفتر، ثم بسطت كفها دون أن تنظر إليها. قائلة بصوتها المتحشرج:

- هويتك الشخصية.

ها قد أتت اللحظة التي خشيتها «عيناء»، كيف تخبرها أنها لم تُمسك بيديها يومًا وثيقة هوية أو شهادة ميلاد كأي شخص طبيعي في هذا العالم؟ يحتفظ والدها بكل الأوراق الرسمية، في درج شكمجية صغير، تستند إلى الجدار المواجه للعجلة الدوارة في الفاخورة، له مفتاح يلفه في خيط حول رقبته. منعها من الاحتفاظ ببطاقة هوية، تضم اسمها إلى جوار اسمه، حرمها من الضم حتى على الورق.

عاشت كالظلال، بلا هوية، بلا وجود، حتى رآها «جمال».

- آآآ، فقدتها في الزلزال.

خشيت ألا يكون جوابها مقنعًا، لكن العينين اللوزيتين تلكأتا فوق وجهها لثانيتين فحسب، ثم استدارت السيدة تلتقط أحد المفاتيح القليلة المعلقة فوق مسامير مثبتة بلوح خشبي قضمته الرطوبة، تنحسر ياقة الفستان عن رقبتها من الخلف.

- في البنسيون سبع غرف، وحمام واحد مشترك، يمكنكِ استخدام الحوض في آخر الممر، غرفتك رقم (6)، أقيم في الغرفة رقم (2)، آه، الضجيج ممنوع، الهدوء شرط الإقامة في البنسيون.

انتبهت «عيناء» إلى اللكنة الغريبة للمرأة المتحفظة في حديثها ونظراتها، دماؤها ليست عربية خالصة، فيها صبغة أجنبية تفضحها مخارج الحروف، مُحببة للآذان، ونبرة أرستقراطية راقية مُدغدغة.

أومأت برأسها بغير اكتراث، جُل ما أرادته أن تختلي بنفسها في غرفة نظيفة، تستلقي فوق الفراش، وتمعن التفكير في خطوتها التالية، قبل أن تُفتضَح هويتها الحقيقية.

- هذا فأل حسن.

رمقتها «عيناء» متسائلة في حيرة، فأشارت السيدة صوبها، ثم أردفت:

- ارتداء الملابس المقلوبة مصادفة، فأل حسن.

نظرت «عيناء» إلى فستان زفافها لتتفاجأ به مقلوبًا! كيف لم تنتبه؟ يُقال إن أعين المحب ترى تفاصيل المحبوب كأنها تحت عدسة مكبرة لفرط العناية والاهتمام، كيف تفلّت هذا من عينَي «جمال»؟ ألم يحبها إلى الحد الذي يجعله ينتبه إلى تفصيل واضح للعيان كالفستان المقلوب؟ شعرت بغتة بالحزن، والألم، والخذلان.

استطردت السيدة، وهي تشير صوب كتف «عيناء»، تحديدًا عند ثقب باتساع عُقلة:

- إذا أردتِ تجنب الفقر والفضيحة، فإياكِ أن تُرتِّقي ملابسك وأنتِ ترتدينها.

بدت لها امرأة مخرفة، تولي عناية فائقة بالفأل، والطالع، وكل هذه الخرافات. لم تخشَ «عيناء» يومًا مداعبة قط أسود، أو السير تحت سلم، أو وضع الزر في العروة الخطأ، وقلب المملحة رأسًا على عقب، إلى آخر كل هذه الأفعال المنذرة بالشؤم، لكن يبدو أن هذه السيدة تهتم كثيرًا بهذه الأمور.

انشغل عقلها بالرغبة في العزلة داخل غرفتها، لم تولِ اهتمامًا كبيرًا لتحذيرات السيدة القصيرة التي تتحرك كبطريق، التي قادتها صوب باب الغرفة رقم (6). تقول بروتينية:

- السعر شامل الفطور.

- أريد أن أسأل، آه، كم شخصًا يقيم في البنسيون.

بدا السؤال مهمًا لـ «عيناء» التي تتحسس من الغرباء وتكره الزحام. أجابتها السيدة قبل أن تستدير على عقبيها:

- صبي نجار يقيم في الغرفة رقم (3)، و«عجَب هانم» تقيم في الغرفة رقم (1).

- آه ظننتكِ «عجب هانم».

لم تسمع المرأة كلماتها، إذ كانت قد ابتعدت عن الممر. ألقت «عيناء» نظرة مطولة على باب الغرفة رقم (1) المواجه لغرفتها، عندئذ رأت القط السمين الأسود يخرج من فتحة الباب الموارَب، ويسُدد في وجهها عينيه الفيروزيتين الباعثتين على التوتر، فقط لتُدرك أن لون عين القط مماثل لعين السيدة التي لا تعرف اسمها.

***

غسلَت شمسُ المغيب وجهها في نهر الشفق الأحمر، ثم نفضت رذاذ صبغتها على رؤوس المخلوقات والأبنية. تناثر بعضه على وجه «عيناء» وهي تطل من نافذة غرفتها بالبنسيون، تولي عينيها شطر الشمس الآفلة.

*لماذا لا يعود أبي؟*

يتآكلها القلق، ويعض الخوف أعصابها، فيما تهبط نظراتها صوب نصف باب الفاخورة البادي من وسط الأبنية. كان الحظ حليفها، ربما لأول مرة في حياتها، إذ أطلت النافذة الوحيدة لغرفتها بالبنسيون على أحد جانبي الفاخورة. نافذة عالية تصل إلى خصرها، تراقب الشارع لأول مرة وهي واقفة.

الشمس غابت، والغائب لا يعود، نهشها القلق حتى تكشَّف فيها العظام، وأمسَت روحها مرتعًا للظنون والأسقام. لا بد أن يعود، يمنحها صك الحب الذي لا يبلَى، يعترف بها، يقبَلها، كي يتحقق وجودها المنشود.

لكن كيف يحبها وهي لا تزال ناقصة؟ لم تستطع لا إثبات معدتها، ولا العثور على «جمال»، الذي كان فرصتها المثالية كي تكتمل. تدور في الغرفة الصغيرة، ذات البلاط الأبيض المنقَّط بالأسود، يتسرب إلى أسماعها صوت دقات ساعة جامعة القاهرة، من الراديو القابع فوق مكتب الاستقبال عند مدخل البنسيون، تشم رائحة بصارة بالتقلية قادمة من المطبخ. تدور في خلدها أفكار كثيرة عن عمل الله في خلقه.

لطالما سمعت أباها يقول إنها لن تعثر أبدًا لنفسها على رجل، ليست جيدة كفاية لتكون محط أنظار وموضع رغبة، ستظل هائمة في الحياة، وملفوظة منها. بينما تستشيط غضبًا وقهرًا تفكر، لماذا تحتاج إلى رجل كي تكتمل؟ لماذا لم تُخلق من البداية كاملة؟ كأن يُشكّلها الله برجل ملتصق في ظهرها، أو ملتحم في كتفها، تسير معه جنبًا إلى جنب، دون أن تضطر إلى البحث عنه بين جموع البشر؟

لماذا يبدو لها الجميع وكأنهم يسيرون في الحياة وهم يعرفون مهامهم، بينما هي تتخبط فيها بلا هدف، سوى العثور على طريقة لإنبات معدة، أو اصطياد رجل؟

تعود إلى النافذة، تتأمل الأفق وتتذكر الزلزال، وولادتها المتعسرة من بطن الأرض، بعد حمل استمر ساعات، داخل أغشية العتمة لمحارة العالم القديم، لؤلؤة تحتاج إلى من ينفض عنها التراب. الحبل السري الذي يربطها بالمحارة لم يُقطَع بعدُ، ربما لهذا السبب لم يعُد أبوها إلى الفاخورة، ربما لهذا السبب لم تعثر على «جمال». هكذا انتبهت بغتة.

دارت حول نفسها في الغرفة التي لم تُشعِل ضوءها، تفتش عن سكين من سراب أو مقص من صُنع المُخيلة، حتى عثرت على واحدٍ في أحد الأركان. كشفت عن بطنها، وقرّبته من موضع سُرتها، ثم أغمضت عينيها بشدة، تقطع بمدية غير متجسدة الرابط الوحيد الذي يصلها بالعالم القديم.

تنهدت بارتياح لما انتهت، هكذا اكتملت عملية ولادتها بشكل سليم. صحيح أن زميلتها في العنبر خدعتها ببذرة معدة مغشوشة، لكنها كانت صادقة فيما يتعلق بالتعويذة السحرية التي تستجلِب من بطن الأساطير مخلوقًا يُقال له الـ «عفريت»، يهدم عالمًا ويبني غيره، ها هي في عالم جديد، ستُحقق فيه كل معاني الحب المقدس.

طالعَت الأفق بنظرةٍ شغوفة، تُحاوره بصمتٍ حكيم، وأخيرًا، عثرت في جيب الشمس الغاربة على فكرة فريدة، تستجلب بها حُب أبيها واعترافه باستحقاقها، تستدر رحمته، وتُفجِّر ينابيع أبوّته.

كل ما هي بحاجة إليه الآن منشار كهربائي، أو فأس وساطور!

***

# (10)
# زعفران

على أعتاب الفجر، عندما عادت «أنهار» إلى البيت، كان الهدوء مخيمًا. الأم التي سئمت الشجار معها بسبب تأخرها في بعض الأحايين، كانت قد نامت منذ وقت طويل، فلم تُدرك أن ابنتها أمضت ليلتها بالخارج. بدا لها كل شيء طبيعيًا عندما استيقظت قُرابة الساعة التاسعة صباحًا، لتجد «أنهار» في غرفتها. سرَّها تأخرها على الجرنال، فعزمَت على ألا توقظها، علَّ رئيسها يغضب ويفصلها عن العمل، لكن لماذا تُغلق الباب على نفسها من الداخل؟ هذا ليس من عاداتها أبدًا.

استيقظت «أنهار» إثر الطرقات المتتابعات، وما يزال النوم مُستلقيًا بثقله فوق جفنيها. بادرتها أمها بدهشة

- لماذا تغلقين الباب؟

- لأن هناك غريبًا بالبيت.

أبدت أمها امتعاضًا. نهرتها مُستنكِرة:

- «شكري» ابن خالتكِ ليس غريبًا.

- لا طاقة لي للشجار الآن، تأخرتُ على العمل.

مُبلبَلة الفِكر، طائشة الحواس، مسحَت الجزء البادي من الصالة بعينيها، ودَّت لو تقصَّت عنه بسؤال استفهامي مجرَّد، إلا أنها لم تجرؤ، وكأن ذِكر اسمه أو الإشارة إليه بعثٌ لتلك الليلة البغيضة من مرقدها.

قالت أمها من حيث لم تتوقع:

- غادر «شكري» باكرًا للقاء عمل، ولم يعد أبوكِ إلى البيت بعدُ، هل سأتناول طعام الفطور كل يوم بمفردي وكأنني أعيش في فندق؟

لم تهتم «أنهار» إلا بالقسم الأول من حديثها. سارعت بارتداء ملابسها كيفما اتُّفق، تخيرت بنطلونًا واسعًا من القماش، وفوقه قميص وكرافت، منحها ذلك مظهرًا ذكوريًا متعمّدًا. كدَّست أغراضها في حقيبتها الجينز الكبيرة، حملتها فوق كتفها تغادر البيت مثل طلقة.

تعرف أنها تنحى مَنحى جبانًا، يُحابي الفرار على المواجهة. إنها الطرف الذي عليه أن ينظر بقوة من عليائه، بينما هو الطرف الأذَل الأدنى، الذي عليه أن يُنكّس رأسه بخزيِ الموقف. تعرف أن الصمت لا يليق بها، وأن الجرأة من شيمها، تعرف كل ذلك، لذا، أغاظها أن تأتي تصرفاتها بعكس ما تعرف.

المواجهة التي هربت منها كانت لحظة مقدَّرة، طافت العالم تتخفَّى في جلباب الدقائق وجيوب الساعات، ثم جاءت أخيرًا لتبيت أسفل قدميها. عند مدخل العمارة ركضت العقارب في اتجاه الطواف المقدس، بسرعة لم يختبرها الزمنَ قبلًا، إلى أن توقفت عند تلك الليلة الصيفية الحارة، عيد الميلاد، والشرفة، والفستان.

أدركت الآنَ أنها صنعت من خوف تلك الليلة صنمًا، وأنها طوال هذه السنوات كانت تتعبد إليه بإخلاص، تدين له بالولاء والطاعة، وتبذل من أجله النذور والقرابين. أدركت أنها لم تخلف له عهدًا، وأنها كانت -وما تزال- خاضعة لمشيئته وسطوته عليها.

- «أنهار»! أم أقول أستاذة «أنهار»؟ دعيني أنظر إليكِ، كبرتِ لكنكِ لم تتغيري كثيرًا، كيف حالك؟ أنا «شكري»، ألم تتعرَّفيني؟

كيف يجرؤ؟! يتبادل معها أطراف حديث بسيط، هادئ، كأنهما أصدقاء طفولة أو رفقاء صِبا. كيف يجرؤ؟ يبتسم، يتصرف بسعةٍ وحرية، ينظر إليها من مرتفَع شيَّده فرق الطول بينهما، يقف مستقيمًا، بكتف منبسطة، وقبضة مرتخية. كيف يجرؤ على ألا يضطرب، ويستحي، وينقبض، ويحترق، ويتشظَّى؟

ضمت سترتها الجينز إلى صدرها بقوة، وكأن لكلماته ولنظراته ولأنفاسه أيادي خفية تقتحم وتجوس وتُعرِّي. انطلقت صوب سيارتها، تغلق بابها،

تضرب المقود وتصرخ. من أحشائها تتصاعد حمم بركانية، تغلي الدماء في عروقها، صوت النحيب في أعماقها يعلو ويطفو، في ساحات صدرها يرتع الغضب والقهر والكرب والمهانة، يُمسك الصمت بتلابيب لسانها ويأمرها أن تحفظ عهده، هكذا تبقى على ولائها لصنم الخوف صامدًا، غير مزلزل.

***

الرجل الذي لا يتذكّر، مرّت ليلته مجردة من الأحلام، لم يزُره طيف ذكرَى، أو شبح خبرة، أتعسه هذا في الصباح. أما الشعور الغريب الذي راوده مساءً، فقد استيقظ معه ولازمه، ثمة امرأة مهمة في حياته، لا بُد أن يعثر عليها في الحال. دقّ هذا التحذير كناقوس خطر في رأسه، ناقوس مبهم التفاصيل.

شعر بقلبه ينبسط، ثم يعود لينقبض، بوتيرة أسرع من انقباضته الأولى. نسي اسمه، وعمله، وبيته، والرجل الذي كان عليه، والرجل الذي أراد أن يكون، إلا أنه لم ينسَ أن ثمة امرأة وجب العثور عليها.

جال في غرفته بالفندق كالممسوس، يتساءل كالملهوف، هذه المرأة من تكون؟ قريبة أم بعيدة؟ زوجة أم حبيبة؟ لماذا لم تخرج معه من قلب الأنقاض؟ لماذا لم تُفتش عنه تحت الردم وفي الطرقات؟ هل نجت من الزلزال المهول الذي تحدثت عنه الصحفية بالأمس؟ الصحفية، ماذا كان اسمها؟ «أنهار»، قالت إنها ستمر عليه في الصباح، لماذا تأخرت إلى الآن؟

وقف يتطلع إلى انعكاس صورته في المرآة، بنظرة جوفاء، خاوية من الألفة والإيناس، هذه المرة لم يفتش في وجهه عن نفسه، بل عنها، المرأة التي تقفز فوق أسوار الذاكرة، تتمرد على أغلال النسيان، وتتملك فيه الفِكر والوجدان.

لم يتعرّف في وجهه على أحد، لا على نفسه، ولا على المرأة، ولا على الرجل الذي وقف في الموضع نفسه يتطلع إلى المرآة ليلة أمس، وكأنه ينظر إلى وجهه للمرة الأولى. أمسك بمزهرية صغيرة بها وردة اصطناعية أرجوانية، هشّم الانعكاس إلى عشرات الأوجه الصغيرة.

طرقات على الباب، فغضب واستياء، لم ينقذه من توبيخ العامل إلا مجيء امرأة تستبقي الاعتذار لترفع عنه اللوم والمؤاخذة.

– من تكونين؟

بادرها متسائلًا بعد انصراف العامل وبقائها، فأتاه جوابها مفعمًا بالدهشة:

- أنا «أنهار أبو عوف»، الصحفية، هل فقدت ذاكرة الأمس أيضًا؟!

- أتذكرك.

قالها باقتضاب، يتفرس في وجهها، يُنقِّب فيه عن ملمح يألفه، فلا يجد. أردفَ بغموضٍ:

- لكن... وجهكِ، لم أتعرَّفه.

- كيف ذلك؟ لقد رأيتني بالأمس مدة كافية لتتذكر وجهي!

- لم أتعرفكِ، تبدو ملامحكِ... كيف أقول؟ تبدو عجينية، قابلة للتشكيل والتغيير.

سمعت صفات كثيرة تلتصق بوجهها؛ جميلة، وجذابة، ورائقة، ومليحة، وعادية، إلا أنها لأول مرة يطرق سمعها صفة «العجينية»، لم تعرف حتى هل تعدها مدحًا أم قدحًا، مجاملة أم إساءة؟

كانت قد استعادت بعض هدوئها، بعد لقائها العاصف بالماضي وجهًا لوجه. تلكأت نظراتها للحظات عند ختم الشمع الأحمر في منتصف جبهته، الذي واراه جزئيًا بخصلاته الطويلة الفحمية. رأت الأسى يعسكر في عينيه، ولمحت الأسى يخط اسمه فوق جبينه المتجعد. ومن حوله تتناثر شظايا الزجاج فوق الأرض. قالت بجدية بالغة:

- فقدان الذاكرة يسلب المرء اتزانه النفسي، البعض يواجه النسيان المؤقت وفشله في استعادة ذكرياته بنوبات غضب، لذلك يجب أن يفحصك طبيب في الحال، لا تُعاند أرجوك.

- لا أطباء.

قالها بحزم، يستقبل النافذة، ويوليها ظهره، ليُنهي بذلك أي بادرة للنقاش حول المسألة.

- لا أفهم عنادك! على الأقل لنذهب إلى قسم مصر الجديدة، يجب أن نستخرج بدل فاقد من هويتك الشخصية، أو لنسأل عمال الدفاع المدني إن وجدوها في موضع سقوط بيتك.

استدار يواجهها، ويُسارع في قول:

- هناك شيء أهم، كان معي امرأة، هل رأيتِها؟

رفعت حاجبيها بحيرة، تردد:

- امرأة! كيف تعرف ذلك، هل تذكرتَ شيئًا؟

- تذكرتُ، لكن لم أتذكر.

- فزُّورة؟!

بدا نافد الصبر، عاجزًا عن البيان. قال ويداه تتحركان في الهواء لترسما ما فشلت الكلمات في تبليغه:

- لم أتذكر معلومة واضحة، أو بيانات يُمكن الاستدلال منها على هويتي أو أهلي أو الرجل الذي أنا عليه. ما تذكرته هو شعور، إحساس داخلي، بصيرة، لحظة إدراك، حاسة سادسة، سمُّها ما شئتِ.

- وهذا الإحساس يخبرك أن امرأة ما كانت برفقتك وقت وقوع الزلزال؟

- ليس بالضبط، إنه يخبرني أن ثمة امرأة، لكن لا أعرف إن كانت معي في الزلزال أم قبله أم بعده، لا أشعر بالزمن.

- ومن تكون تلك التي تتذكرها ولا تتذكرها؟

- لستُ متأكدًا، لكنها... تبدو مهمة، لا أستطيع التفكير في شيء سواها، إن وصلنا إليها سأعرف من أكون، يجب أن أعثر عليها، من فضلكِ ساعديني.

بدا يائسًا جدًّا، إلى الحد الذي لم يسمح لها بمعارضته. لماذا أزعجها ذِكره للمرأة المهمة؟ هذا ما ساءَلَت نفسها حوله وهي ترافقه إلى سيارتها، تنطلق معه صوب الجرنال.

ما كان بإمكانها الكشف لزملائها عن حكايته، وإلا سينقَضون عليه -وأولهم «نزيه»- باعتباره وليمة دسمة تثير شهية أي صحفي. لا تنقطع أخبار الناجي الأخير «أكثم» عن الظهور في الصفحات الأولى من الجرائد الكبيرة، ولا عن أحاديث الناس في الشوارع والمقاهي والبيوت. وعندما أخبرت الرجل الجالس بجوارها في السيارة، كيف تحوَّلت قصة «أكثم» إلى

حكاية شهيرة، تثق أن الأجيال ستتناقلها جيلًا بعد جيل كلما ذُكِر زلزال 92، استحلفها قائلًا:

- لا أريد أن يعرف أحد بشأني، فليبقوا على ظنونهم أنه الناجي الأخير.

فوعدته بصدقٍ:

- اطمئن.

كان عليها أن تخترع له اسمًا، وهي تصحبه إلى مكتبها بالجرنال. أطالت النظر إلى جبهته المختفية تمامًا وراء خصلات شعره، تتخيل الختم الأحمر الممزوج بخطوط صغيرة باللون الأصفر. قالت تُقدّمه إلى «نزيه»، بصوت مرتفع، يُسمِع زملاءها بالمكتب، الذين رمقوا الرجل بفضول صارخ:

- هذا «زعفران»، أحد مصادري في الإسماعيلية، جاء إلى القاهرة صباح اليوم يطلب مساعدتي. «زعفران» يشتبه في وجود معارف له في عمارة الموت وقت وقوع الزلزال، نبحث عن رجل وامرأة، غير واضح صلة القرابة بينهما، أين كشف أسماء الموتى والمصابين؟ وكشف المفقودين أين وضعته يا «نزيه»؟ لا أعثر عليه وسط أكوام الورق المكدسة فوق مكتبك، ألا ترتبه أبدًا؟

تفرس «نزيه» طويلًا في الرجل الذي يتحاشى النظر إلى عينيه، ينقل بصره من وجهه إلى وجه «أنهار» وفئران الشك تتقافز في عبِّه، تخمش صدره بأظفار اللايقين. تقدَّم صوب مكتبه، وأخرج سجلًا به أوراق مُكدسة بغير عناية، فتَّش قليلًا فيها، بينما يسترق النظر كل حينٍ إلى الرجل، يُحاول قراءة لغة جسده التي ولا شك كانت تصرخ بالاضطراب.

- تفضلي يا أستاذة «أنهار».

تناولت «أنهار» الكشوفات بلهفة، راحت تُمرر نظراتها المتلهفة فوق الأسماء، تحاول أن تستنبط هوية ملائمة للرجل الواقف أمامها. هل يبدو كل منا مشابهًا للاسم الذي يحمله؟ هل تبدو من الخارج كـ «أنهار»؟ هل يبدو «نزيه» ملائمًا لاسمه؟ لا تعرف، لكن ثمة شخصًا لا يجوز أن يطابق اسمه وصفه، ذاك البغيض الذي عاد يقتحم حياتها بصفاقة، ويجرؤ على أن يقيم معها تحت سقف واحد.

هزّت رأسها، تُنفض ما علق به من أفكار شرسة، وذكريات مُهلِكة. صبَّت تركيزها على الورق بين يديها. كان حصاد الجثث الذي عثر عليها رجال الإنقاذ تحت أنقاض عمارة الموت خمسة عشر، سُلِّموا جميعًا إلى ذويهم، ودُفنوا كما يليق بالميت أن يُكرَم. لم يُعثَر على جثة امرأة بلا هوية، ولم يضم كشف المفقودين من المنطقة أي أسماء قيد البحث.

تجعد جبينه يتساءل بنبرة منفعلة:

- ألم تعثري على اسم امرأة؟

- في المفقودين كلا، وجميع الجثامين استُخرِجت تصاريح لدفنها، لا يوجد جثة لامرأة مجهولة الهوية.

جاوَر «أنهار» في وقفتها، تطوف نظراته فوق أسماء النساء اللاتي فقدن حياتهن تحت الأنقاض، يُفتش بين ثنايا الحروف عن امرأة يعرفها ولا يذكر كيف يعرفها. امرأة ستتجسَّد له فوق الأوراق إن وقعت عيناه على اسمها. هكذا فكَّر. ثم انتقل إلى أسماء المصابات، لو كانت إحداهن هي المرأة التي يبحث عنها، فمؤكد أنها كانت ستبحث عنه بدورها، فلماذا لم تفعل؟

أخرجه صوت «أنهار» الخفيض من استغراقه:

- لو كانت المرأة التي تبحث عنها على قيد الحياة، فلماذا لم تُبلِّغ عن فقدانك في الزلزال؟

لم يخبرها أن هذا تحديدًا ما تملَّك تفكيره. مالت صوبه تستطرد:

- لعل لها أقرباء حضروا لاستلام جثتها ودفنها، لماذا لا تفكر في هذه الفرضية؟ أقصد... أنها ماتت.

- لم تمت.

أجابها بسرعة واقتضاب، فأبدت عنادًا بلهجة هجومية لا تليق:

- أنت لا تتذكر أي شيء، كيف تعرف؟

بدا تائهًا كرحَّالة نفد زاده، وأضاع خارطته، وسرقت الريح كل أثر يُمكِّنه من العودة إلى أهله وعشيرته. قال ولم يزد:

- لو ماتت لشعرتُ.

استوقفتها الثقة في نبراته، واضطراب كلماته المشحونة بطاقة هائلة، هل الحب شيء كهذا؟ أن يشعر أحدهما بالآخر حتى وهو عاجز عن تذكُّره؟

انتفضت إثر مقاطعة «نزيه»، الذي تململ في وقفته عاجزًا عن سماع الكثير من الحوار الدائر بينهما:

- يبدو أنه أخطأ، لا يوجد أثر لمعارفه في عمارة الموت.

«نزيه» على حق، ناهيكَ بالمرأة، لا أثر له هو شخصيًا في كشوف مُلاك العمارة ومستأجريها حسب العقود الموثَّقة، إذ حُدِّدت هوية جميع القاطنين فيها، لا أحد مفقود. وهذا يعني شيئًا واحدًا فحسب. رشقت في وجهه عينين ضيقتين ترسمان في الهواء إشارة استفهام كبيرة، تُلقي عليه سؤالها مُستريبة:

- أنت لست من سكان عمارة الموت، إذن، ماذا كنت تفعل هناك وقت الزلزال؟

لم يحِر جوابًا، كان عقله يهدر في محاولة للعثور على جواب سؤال آخر: من تلك المرأة الذي يشعر أنها تنتمي إليه أكثر من انتمائه إلى نفسه؟ كأنها كانت مسكوبة بداخله، متمازجة بروحه، والآن لم تعد، تركت فراغًا كبيرًا من خلفها باتساع مجرَّة كاملة.

في تلك اللحظة أقبل زميل لها، يُدني صوبها ورقة صغيرة، مجتزأة من أطراف أخرى أكبر، قائلًا:

- أستاذة «أنهار»، كنتِ تبحثين عن رجل مفقود في محيط ميدان هيليوبوليس، هذه الإخبارية أتت قبل ساعة.

تناولت منه الورقة بانفعال، أشارت بإصبعها فوق الكلمات تتمتم بلهفة:

- هذا الرجل لم يُعثَر عليه بعدُ.

ثم رفعت رأسها صوب الرجل الذي يحلو لها أن تدعوه «زعفران»، وكأن النظرة إشارة أذنت له بالتحرك، دنا منها بلهفة يتأمل الاسم غير المرفق بصورة، يقرأ البيانات الشحيحة، فقط ليدرك لأول مرة أنه يجيد القراءة.

بينما «أنهار» تقرأ الكلمات نفسها بصوتٍ خفيض:

- «مصطفى السيد»، أسمر، طويل، جسد رياضي، ثلاثيني، يعمل أمين مكتبة بالقرب من ميدان هيليوبوليس، آخر مرة شوهد فيها كان متوجهًا لركوب الترام في استراحة الغداء.

ثم أردفَت توجه كلماتها إليه، بنبرة محتدَّة كأن له يدًا في نسيانه:

- متزوج، وأب لطفلين!

***

صحيح أن «نزيه» لم يتمكن من سماع الكثير، مما دار بين «أنهار» والرجل الغريب، إلا أنه فهم بسهولة أنه يبحث عن امرأة تخصه، وغالبًا يُعاني مشكلة في ذاكرته، وإلا لأعطاهم اسمها مباشرة، بدلًا من لعبة البحث عن الاسم.

بعد انصرافهما، جلس إلى مكتبه شاردًا، تطوف بخياله الفتاة التي ترتدي فستان الزفاف، التي تقيم حاليًا في بنسيون قديم بالفسطاط، أيكون الرجل الذي يرافق «أنهار»، هو نفسه العريس المفقود؟

تهامس لنفسه قائلًا، وهو يرسم بقلمه دوائر متداخلة فوق ورقة بيضاء:

- الفتاة تقول إنها فقدت الرجل في حي الجمالية بمصر القديمة، والرجل يقول إنه فقد المرأة في ميدان هيليوبوليس بمصر الجديدة! كيف يُعقَل أن يفقد كل منهما الآخر في مكان مختلف؟

تفكَّر لبرهة، ثم تنهد بيأس قائلًا وهو يمسح عينيه بأطراف أنامله:

- مؤكد أن الحادثتين لا علاقة لإحداهما بالأخرى، هذا ما يقوله المنطق أليس كذلك؟!



# (11)

# الفخراني الكبير ونبتة الشر

اعتاد أبوه أن ينظر بعين المجد إلى كل قطعة فخار يصنعها، وبغبطةٍ يقول:

- نحن خلّف أجدادنا جواهرجية الطين.

يرمي بذلك إلى قدماء المصريين. لم يسأم الاستماع إلى حكايات أبيه المفخخة بأسرار المهنة، عن الأواني الفخارية التي استخدمها القدماء لحفظ الطعام، وتخزين الحبوب والغلال، كم أجادوا صناعة المزهريات، والأكواب، والقدور، والصوامع، والنوافير، ومجسمات الطيور والحيوانات.

سارت عائلة «الفخراني» على درب الأسلاف، أبدعوا في صناعة الشمعدانات، والأباريق، والمسرجة، وقواديس السواقي، وبناني أبراج الحمام، والتحف الشعبية كالتماثيل المجوفة، وقصاص الزرع.

توارثوا لقب «الفخراني الكبير» كما يتوارثون الفاخورة أرضًا وبناءً.

علَّمه أبوه فنون الحرفة مبكرًا، ولأنها مهنة الإحساس زرع الشعور في كفه الصغيرة، فعرف وهو ابن سبع سنوات متى يختمر الطين ويستوي، فيقدمه لأبيه كي يصبغه بالألوان.

اختار له أبوه ابنة خزَفي له سمعة طيبة بالفسطاط، ارتضاه نسبًا مشرفًا، وابنته زوجة أنيسة. لم يرَها إلا ليلة الزفاف، وجدها طيِّعة بين يديه كالطمي الخام، بلا شوائب، ملساء، لم ينقشها فخراني قبله، ولم تمسُّها ريشة رسَّام،

فوقع حبها في فؤاده وتملَّك فيه الإحساس، أضاف اللبشة[1] والماء، ثم عجنها كيفما شاء.

في صبيحة الزفاف أسلم أبوه الروح إلى بارئها، وأورَث ابنه الفاخورة ولقب «الفخراني الكبير». طوَّر الابن الوحيد الفاخورة بأكثر مما فعل أبوه والأجداد، حلم باستبدال فرن غاز صديق للبيئة بالفرن البلدي الذي يشتعل بالخشب، اشترى الخرابة المجاورة وضاعف مساحة الفاخورة، ثم اقتطع منها جزءها الخلفي ليكون بيتًا صغيرًا، كي لا يصرف وقتًا وجهدًا في المجيء والذهاب، بعد أن فتك المرض بجسد زوجته، وظل ينهشه لأعوامٍ طويلة، حتى أكله بالكامل. راقب زهرته وهي تذبل، يمزقه انعدام الحيلة.

- المرض في مراحله الأخيرة.

لعنة الله على الأطباء أجمعين، لم يفلحوا في شيء بسيط كإنقاذ زهرته من فك الداء، لم يفهم مصطلحاتهم اللاتينية، التي يتوارون خلفها ويسترون بها سوءة فشلهم، سبَّهم ولعنهم وبصق في وجوههم.

- أريد النوم في فراشي.

هبَّ يُلبي نداء زهرته، أخرجها من المستشفى رغم اعتراض الأطباء، مرَّضها بنفسه، خفف عنها هجمات الألم، بإعادة تدوير حكايات أبيه التي لا يعرف سواها، ونظمها في متنٍ طازج يليق بحسنائه، التي لم يخبت جمالها في قلبه وعينيه، حتى سقطت آخر بتلاتها قبل ثلاثة أعوام، في ليلة حالكة غبراء.

صرف الفخراني الكبير وقته فوق كرسيه الخشبي أمام العجلة الدوارة، سخَّر نفسه لمراقبة العجين وهو يتشكل، بيدين ماهرتين ورثهما عن القدماء، ينقشه من وحي الذائقة، ثم يسوِّيه في الفرن عند درجة حرارة مثالية.

استلهم الموروث الشعبي النوبي في النقوش والألوان، وأنتج أطباقًا فخارية ضخمة، تعكس حرارة الشمس في مداخل البيوت، فاستحق مكانته كـ «شيخ الكار».

---

(1) تعمل على تماسك العجينة ليسهل تشكيلها، يُحصَل عليها من أنقاض المنازل.

ولأن لكل شيء ثمنًا، دفع من صحته فاتورة اللقب، حساسية بالصدر وآلام مزمنة بالعظام والجهاز التنفسي، أورثته إياها الأتربة والأدخنة المتخلفة عن حرق الفخار داخل الأفران.

ولم يكن ذلك كافيًا للحفاظ على نجاح الفاخورة في ظل الكساد الذي لحق بتجارة الفخار، بعد أن توجه الناس إلى الأكواب الزجاجية، والآنية البلاستيكية، وصواني الألمنيوم والتيفال، والبايريكس والصيني والأركوبال، وتحف الكريستال والمعدن، والأواني المستوردة التي زاحمَت الفخار المحلي على عرش السوق المصري.

رغم المعوقات والمثبطات، استمر في مهنة الأجداد. علّمه أبوه وهو ابن التاسعة، أن قطعة الفخار المشوهة يجب أن تُكسر ويعاد تشكيلها من جديد، حفاظًا على سمعة الفاخورة. لم يخرج من بين يديه منتَج مشوه قط، باستثناء قطعة واحدة، آدمية، ممتلئة بالشر، لا علاج لها سوى التدمير، اسمها «عيناء»!

***

عندما حضر الزلزال، كان الفخراني الكبير جالسًا أمام أسطوانة الرنج التي تدور دون توقف، يضيف ذراعين ثخينتين إلى مزهرية كبيرة، أراد أحد الزبائن وضعها في مدخل مطعمه السياحي. كان قد انتهى للتو من تحديد الرسوم بخطوط دقيقة، مخزوزة في بدن المزهرية، استعدادًا لتلوينها، وهي حيلة يلجأ إليها الفخراني كي لا يفسَد الرسم وتمتزج الألوان، عندئذ انحرف الخط بغتة عن مساره مسافة بوصتين!

فزع الفخراني الكبير لوهلة، خال نفسه قد أتى بالزلة الأولى له في عالم الفخار، حتى ارتج المكان بأكمله، مادَت به الأرض، تلقّفته الجدران، وتماطرَت من حوله الآنية، والأباريق، والقُلل، والمسارج، والمواجير[1].

وقفت الفاخورة صامدة في وجه الزلزال، كما يليق بإرث عظيم تتبادله الأجيال، لم ينغز قلبه سوى كسر الفخار الذي افترش الأرض من حوله. وقتها سمع الصراخ، فأغلق الفاخورة ومضى في سبيله يمد يد العون إلى الجيران،

(1) تُستخدم لعجن الدقيق.

وجيران الجيران، وكل غريب يتوسله المدد والمؤازرة. تطوَّع مع عمال الإنقاذ، مُشهرًا سلاحه في وجه الموت الذي اقتلع منه زهرته، نزوعًا إلى الانتقام.

أمضى ليلته الأولى في خدمة الناس بالميدان، والليالي التالية في أماكن متفرقات، ليلة غلبه النعاس وهو جالس على الرصيف، مستندًا إلى جدار مسجد الأزهر، وليلة في فراش غريب يسعه بالكاد، ببيتٍ طيب في الغورية فتَّح له الأبواب، وقدم له الزاد والماء، وليلة في القرافة ممددًا بجوار حبيبته «زهرة».

وها هو يعود إلى فاخورته بعد أن هجرها لأيام، لم يزل تفترش أرضها الكسور والشظايا، رمقهم بأسى، ثم مضى يجمعهم في أحد الأركان.

- لا بأس، سأعيد تشكيلكم من جديد.

علَّمه أبوه أن كسر الفخار يُسمى بـ «الكاسورة»، يستخدمه في إحماء الأفران، أو يعيد بلَّه وعجنه وإضافته إلى المنتج ليزيد من تماسكه، مرددًا المثل الشعبي «لولا الكاسورة ما كانت الفاخورة». كان يخبره: الفخار أكثر صلابة من بني آدم، مهما أصابه فإنه يعود سيرته الأولى، رائقًا، أملس، بلا أثر لصدع أو خدش، أما الرجل منَّا حين يُهشَّم فلا جبر له ولا شفاعة.

والفخراني تهشَّم مرتين؛ حين ماتت زهرته، وحين اصطدمت نظراته بـ «عيناء» الواقفة أمام باب الفاخورة الآن!

***

خامره شعور لزج، وكأنه أبصر أفعى، أو عقربًا، أو برصًا يتسلَّق ربلة ساقه، دومًا ما تنجح هذه الفتاة في إثارة أعتى مشاعره اشمئزازًا، فقط بمجرد أن تتراءى له بعينيها الواسعتين المحدقتين إلى وجهه، كما لو أنهما عينا ميدوسا التي تُحوِّل من ينظر إليها إلى حجر صوان.

كان الفخراني يتجمد في مكانه إذ يراها، تتسلق تنميلة خفيفة من أطراف أنامله، لتغمر الأحشاء.

- أبي، اشتقت إليك كثيرًا.

وخز صوتُها الحاد الهواء، فكاد ينفض أذنيه ليزيل ما علق بهما من نبراتها الناشزة، الجارحة للأسماع، وهي تقول:

- كنت أبحث عنك، قلقتُ كثيرًا، أنت بخير؟ لم يصِبك أذى في الزلزال؟

ودّ لو ينطلق هاربًا من تأثير تلكما العينين، قدماه مثبتتان في أرض الفاخورة، وكأنهما شجرتان بذرَهما فلاح قبل مائة عام. الجهد الذي يبذله كي يُحرك قدمه بوصة واحدة، كالجهد الذي يتطلبه اقتلاع جذر عملاق من أحشاء الأرض.

- ألم تشتَق إليّ، ولو قليلًا، قليلًا جدًّا؟

لماذا تأكُل المسافات وتُقلّص بينهما الهواء؟ فلتبتعد إلى حافة الأكوان، ولتختفِ هناك مثل ذرة غبار. كانت أمنية أجمل من أن تتحقق، إنها تدنو منه، لتقضم لقمة كبيرة من خبيز المسافات الطازج.

- لماذا أتيتِ؟ الأطباء، الممرضات، الحراس، كيف تركوكِ تذهبين؟

- انحشرتُ تحت الأنقاض، نجوتُ بأعجوبة، التجأتُ إليكَ، أنا خائفة يا أبي، خائفة ووحيدة.

تدنو أكثر، ينجح أخيرًا في اقتلاع قدميه، يبتعد إلى آخر الفاخورة. يصيح بها:

- لا مكانَ لكِ هنا، اذهبي.

- إلى أين أذهب؟ لا أحد لي سواكَ.

- اذهبي إلى الجحيم إن أردتِ.

- أبي، لقد تزوجتُ، رجل اسمه «جمال»، ستُحبه كابنٍ لكَ، ألم تقل دومًا إنك وددتَ لو أنجبت لكَ أمي ولدًا، سيكون لك ولد وبنت.

- أي زوج؟ أي تخريف هذا؟

وضعت أرضًا حقيبة الكتف التي تحملها، تقول بلهفة وحماس:

- أقسم لك أصبح لي زوج، ألا ترى فستان الزفاف؟ صحيح أنه مقلوب لكن هذا فأل حسن، لي زوج لكنني فقدته، اختفى تحت الأنقاض، ستُساعدني في العثور عليه، أليس كذلك؟

اللعنة عليها، تأبى أن تتركه وشأنه، وكأنها أقسَمت أن تُفسد عليه ما تبقى من حياته. تأملها الفخراني بحذائها المتسخ، وفستان الزفاف المشقوق،

وملامحها الدقيقة الشاحبة، بدت شاذة وكأنها فائضة على الحياة. لم يصدق حرفًا مما تقول، لا يوجد رجل على سطح الأرض يرتضي أن يربط حياته بملعونة مثلها، لا يقبل بها إلا ميت أو مجنون.

- قلتُ لكِ اذهبي، لا أريدك، هل سمعتِ؟ لا أريدك.

ارتجفت أنامله خوفًا وغضبًا، وتكسّرت سَكينته تحت قدميها، إذ توجهت صوب الوابور الصغير الذي طوّحه الزلزال في أحد الأركان، أقامته على استقامةٍ، ثم افترشت الأرض أمامه، أخرجت من حقيبة الكتف كنكة نحاسية وقرطاسًا من الورق به ملعقتان من البن المحوج بالحبهان، وملعقة، وكبريت وفنجان، استعارتهم من مطبخ البنسيون، في غفلة من السيدة القصيرة التي تسير كالبطريق.

يُبسط كفه فوق صدره، يُطلق سعالًا طويلًا، يلعن الحساسية. يسألها:

- ماذا تصنعين؟

- قهوة.

- لا أريد.

- من غير سُكر، لا بُد أنك اشتهيتها.

- لا أريد.

- كنت تحبها من يد أمي، لكنها لم تخبرك قط أنني من كنتُ أصنعها لك.

- أقول لكِ لا أريد.

- خافت أن تغضب فلم تخبرك، وعندما كنت أراكَ تتذوقها مُنتشيًا، تُرفرف الفراشات في قلبي.

- لا.. أريد.. قهوة! ما أريده هو أن تذهبي.

- تبدو متعَبًا، أريد أن أقدمها لكَ كهدية صغيرة بحجم عُقلة إصبع، لن أغادر قبل أن تشربها يا أبي.

اللعنة عليها ألف مرة، ترمقه ببراءة، يعرف جيدًا أنها مصطنَعة، إنها كالقط الذي يزوم في رضا زائف، قبل أن ينقض ليخمش صاحبه، ويحقن جسده بالداء. منذ اليوم الأول الذي رأى فيه عينيها، كرهها، تنامى كرهها في

قلبه مع استطالة الأيام، هل يبغض المرء طفلة صغيرة؟ هل يخافها؟ فعل هو، لا يخامره الندم أو التأسُّف أو الامتهان.

كانت لها -ولا يزال- تلك النظرة التي تُشعره أنه مُراقَبٍ من جميع الأركان، أنه محاطٌ بجيش من الأعين الثاقبة، كان يستلقي فوق مخدعه ليلًا فتزوره عيناها في الكوابيس، تقول كل شيء، دون أن يُفلت فمها كلمة واحدة.

يخامره شعور غامر بأنها تحصي عليه الخطايا والآثام، بدقة وحرص لا يتوفران إلا في ملَك مُكلَّف، تُدوِّن كل خلجة من خلجاته في صحيفة أعمال، كل رغبة، كل نزعة لا يُصرِّح بها إنسان.

كان يشعر بها تتنصَّت بعينيها على حديث نفسه، تريان وتتحدثان وتسمعان، وكأن حواسها كلها قد تجمعت في ماء عينيها. كلما رأى دموعها تتشنَّج فيه الأطراف، هل يُمكن للمرء أن يرى حروفًا وكلمات في ثنايا العبرات؟ فعل هو، رأى صحيفة أعماله مكتوبة كلمة بكلمة وحرفًا بحرف في ماء عينيها!

- سأذهب بعد أن تشربها، إنها هدية صغيرة.

مرغمًا، تناول منها الفنجان، تجرعه على ثلاث رشفات، حرَق النهر الأسود الساخن روافده، وجرَّف الألم خلاياه، لم يولِ لذلك ذرة اهتمام، كل ما أراده أن يتخلص من وجودها في الحال.

مضت دون كلمة، رغم ذلك شعر أن عينيها تصرخان بأنه مُتَّسخ، مُدنَّس، مُفعم بدناءة الشهوة وقذارة النكران. كانت هي الشاهد الوحيد على أفعاله الشائنة مع زبائن الفاخورة من النساء. ينتقي الغنمة الشاردة، المترددة، قليلة الثقة، متزعزعة الإرادة، التي تخشى الفضيحة، ويُلجمها بصوته الجهور، لم يُكتشَف أمره قط؛ كلما أبدت امرأة غضبها استبعدها من القائمة، لا يُعيد الكرَّة إلا مع تلك التي تُشاركه الرغبة، وتلكن اللاتي يبتلعن الغضب والصراخ. لم يفضَح أمره ويهتَك ستره سوى أمام العينين الشهلاوين، فكرهها كرهًا على كره.

هدَّه التعب بغتة، تحامل كي يستريح فوق مقعده أمام الفرن، ثقلت أجفانه، وخبَت أفهامه، وبهتت الدنيا أمام ناظريه، لم يدرِ إلا ورأسه يسقط فوق صدره. ما هي إلا لحظات حتى عادت «عيناء»، غلَّقت باب الفاخورة من

الداخل، بروية وحِنكة تعلمتها من معلمها الأكبر: الموت ذي الفلم الطويل الأسود كزلومة الفيل. ومن حقيبة الكتف البالية التي عثرت عليها فوق دولاب غرفتها أخرجَت منشارًا كهربائيًا وضمادة وصبغة يود.

قبَلت يديه طويلًا، ثم تهامست في أذنه اليُسرى:

- وهذه هديتي الكبيرة لكَ يا أبي.

اتسعت ابتسامتها، تُثبت يدَي الفخراني فوق العجلة، التي شهدت مهاراته لعشرات الأعوام، وصَّلت المنشار بالكهرباء، ثم أدارت زر التشغيل. سرَى الصوت الآلي في الأرجاء يشُق الصمت، ويُخرِّط العتمة.

أردفت بثقة، وهي تستعد لتشكيل منتجها الفخاري الأول:

- سأخلصكَ من يديك الآثمتين، سأبترهما كما تقص الفائض من عجين الفخار الذي يشوه مظهره، سأجعلك قطعة مثالية يا أبي، وعندئذ ستقبَلني خليفة لك وللفاخورة، وستُحبني للأبد!

***

# (12)
# المرأة المجهولة

- كيف تنسى أنك أب يا «زعفران»؟!

ألقت «أنهار» بسؤالها مستنكِرة، تتميَّز غيظًا بلا موارَبة، كل شيء محتمَل، كل زلل يُغتفَر، إلا أن يتناسى الأبُ فلذة كبده. لماذا في العالم ثمة آباء بلا ضمير؟ أحدهم ينسى أنه متزوجٌ من الأساس، والآخر يُهمل ابنته ويجهل أحوالها، لا يعرف بالجرح الكبير الذي استنزف براءتها في عيد ميلادها العاشر، يعيش معها في بيت واحد، دون أن يشاركها اهتمامًا واحدًا، ترى ماله أكثر مما تراه، لا يعرف أنها تهاب الناس، والطرقات، والمواصلات، تخاف الأيادي التي تمَد صوبها، وتلك التي لا تمتد، فجميع الأيادي سواء، تهديد ووعيد واعتداء.

انطلقت بالفيات تُسابق الريح، بسرعة لم تعتَد السير بها في قلب القاهرة ساعة الذروة. تمسَّك «زعفران» جيدًا بالنافذة نصف المفتوحة، يحاول استبطاء قيادتها بقوله:

- ستقتلين روحًا.

تلتفت إليه في المقعد المجاور، وكأنها انتبهت بغتة أنه معها في السيارة. أبطأت سرعتها، وهدأت غَضبتها، ذكَّرت نفسها بأن الرجل مريض بفقدان الذاكرة، لم يتعمَّد نسيان زوجته وطفليه؛ لا لوم عليه ولا تَثريب. سألته مُتلطفة:

- منذ اللحظة الأولى شعرتَ أن لكَ زوجة، طلبت مني أن أساعدك في البحث عنها، ألم تشعر أنك أب لطفلين؟

اسودَّ وجهه، وانقبض صدره. قال بكلمات مقتضبة وصوت مختنَق:

- لا أشعر بشيء على الإطلاق.

بلغا المكان المنشود، بدا لهما من الخارج كبيت جِداد؛ المُعزّون أو المواسون من الجيران وأهل المنطقة لا تنقطع خطواتهم عن الدخول والخروج. جميعهم يؤمن بموت الزوج الغائب والأب المفقود، فقط يحتاجون إلى جثة وقبر معلوم، كي تهدأ أنفاس الوجع في صدور أهله وأحبائه.

أمام مدخل البيت شاهدا طفلين يلعبان بالتراب، توءمان من الصبيان يصنعان دوائر بعصيان قصيرة من الخيزران، دنت منهما «أنهار» تستنطقهما أولًا، بينما يراقبها «زعفران» من مقربة، دقائق مسحت خلالها على رأسيهما وظهريهما بحنان بالغ، ثم عادت إلى الرجل الذي تجمَّد كالأصنام، تقوده من يُمناه، تستنطق فيه مشاعر الأبوة، تقول:

- إنهما طفلاكَ، ضمهما إلى حضنك فهما ينتظرانك، هيا يا «زعفران»، أقصد يا «مصطفى».

تراقب «أنهار» ثلاثتهم من مبعَدة، تمتلئ عيناها بعبرات التأثر، فيما يجثو أمام الطفلين معانقًا ومتشممًا لجسديهما، أيحاول استفزاز ذاكرته بالرائحة؟

طال لقاؤه بهما لخمس دقائق أو يزيد، أزعجها ثِقل المشاعر التي جثمت على صدرها، وربما أزعجها الفراق.

عادت إلى سيارتها، تُدير محركها عازمة الرحيل دون وداع، كم تكره عبارات الوداع، تشعِرها بالابتذال؛ من يهتم لا يفارق، ومن يفارق لا يهتم.

ما إن تحركت السيارة خطوات إلى الخلف، حتى فوجئت بطرقات على النافذة، انتفضت تضغط الفرامل، تُنزل الزجاج، مرسلة إلى وجهه سؤالًا غير منطوق.

ضنَّ بالجواب، التف حول السيارة، متخذًا مكانه بجوارها. لم تتحمل الصمت الثقيل، وعلامات الاستفهام المتطايرة، فاحتدت متسائلة:

- ماذا تفعل هنا؟ لماذا عدتَ؟

التفت صوبها يقول بهدوء:

- ليس أنا.

ظل وجهها جامدًا، فاستطرد يوجه نظراته المشفقة صوب الطفلين الصغيرين اللذين عادا إلى رسم الدوائر بالخيزران:

- التقيتُ عم الطفلين، أكَّد لي أن أخاه المفقود ليس أنا.

لسبب تجهله، أو تتظاهر بتجاهله، سرَّها ذلك وأذهَب حزنها. قادت سيارتها بتأنٍّ هذه المرة، خبأت ابتسامتها في جيب اللامبالاة، أو ظنَّت أنها تفعل.

***

ألن يتذكر أبدًا؟ ألن يعرف من يكون؟

هل كُتب عليه أن يمضي في الحياة كبيت مهجور يتوسَّط عالمًا نائيًا مجهولًا، لا يزوره أحد، لا يعرف عنوانه موصِّل طلبات أو ساعٍ للبريد، تنسج العناكب بيوتها في سقفه، تتكاثر الحشرات في زواياه، يتفشَّى الغبار، وتتكاثف الأقذار، يقف وسط غابات الحياة موحِشًا، كاسِدًا، بغير أنيس؟

- هل تعرف «الأنيما» و«الأنيموس»؟

مزَّقت «أنهار» بسؤالها خيطًا ثخينًا، قيَّده بالرؤى المريرة لمستقبلٍ دامِس. تقود سيارتها بروية عبر شوارع القاهرة، بمحاذاة النيل، كأنها تملك الزمان كله، أو لم تستقر بعدُ على وِجهتها المرتقبة.

أجابها مضيفًا السخرية إلى الألم:

- حتى وإن كانا يقربان لي بصلة دم، فلن أتذكرهما.

استوقفها اليأس في نبراته، والغضب المكبوت في نظراته، تجاهلَت سخريته، أردفَت:

- حسب موديل «كارل يونج» للذكورة والأنوثة لنظرياته حول اللاشعور الجمعي، آه بالمناسبة «كارل يونج» طبيب نفسي سويسري، كان بينه و«فرويد» اختلافات عديدة في الأفكار ووجهات النظر، لن أشتِّتك بالمعلومات الآن، ما كنتُ أقوله، حسب موديل «يونج»، فـ «الأنيما» **Anima** هي البُعد الأنثوي داخل الرجل، و«الأنيموس» **Animus** هو البُعد الذكوري داخل المرأة، أي إن الإنسان يعيش حالة من الازدواج النفسي على مستوى اللاشعور، لا يدري الرجل أن ثمة مكنونات نفسية أنثوية تعيش بداخله، وتجهل المرأة أن ثمة مكنونات ذكورية تعيش بداخلها، حتى على المستوى الهرموني فكلٌّ منا يحمل الهرمونات

الذكورية والأنثوية معًا في جسد واحد بنسب متفاوتة بالطبع، وهذا الازدواج النفسي هو الذي يفسّر العلاقات بين الرجل والمرأة.

لم يتخلَّ عن سخريته، وإن تخفَّف قليلًا من الألم:

- إذن بداخلي الآن «أنيما» أي أنثى لا أعلم عنها شيئًا؟ جميل، وهذه الأنثى الخفية هل يطلقون عليها اسمًا عند الولادة؟ لأن هذه معضلة جديدة، عندئذ لن يتوجّب عليَّ أن أتذكر اسمي فحسب، بل اسمها كذلك.

تجاهلَت سخريته، ناورَت سيارة يقودها شاب بتهوُّر، أنزلت زجاج نافذتها وأطلقَت سبة أزعجت الرجل الجالس جوارها، أعادت غلق النافذة كي تُبعد ضوضاء الشارع. أردفت باستياءٍ مكظوم:

- «الأنيما» يسهل تشبيهها بالدينامو، أو الطاقة الإبداعية الكامنة التي يحتاج إليها هيكل الرجل كي يعمل بشكل حماسي، إنها القدر اللازم من الجنون والاندفاع، و«الأنيموس» هي ماكينة المنطق وتوربينة الفِكر التي تحتاج إليها الطاقة الشعورية الفاعلة للمرأة كي تجعلها هيكلًا منتجًا وراسخًا.

- فهمتُ، أنا الآن ماكينة معطَّلة بلا دينامو، ألا تصلح الطاقة الشمسية هنا؟ أو ربما الفحم؟

استمرت في تجاهل سخريته. أردفَت:

- القطب الأنثوي في الرجل، طاقة نائمة، مكبوتة، والطاقات المكبوتة يسهل إسقاطها على الآخرين، وهذا يُفسر الانجذاب أو السحر أو الحب أو أيًا كان اسمه، الذي يشعر به الرجل تجاه امرأة ما دون غيرها، التقاها فجأة، أو تحدث إليها لمرة واحدة، إنه ببساطة يكون قد أسقط عليها مواصفات «الأنيما»، قطبه الأنثوي الذي يعيش بداخله، فيشعر أنه يعرفها منذ زمن طويل، والشيء نفسه يحدث للمرأة التي تعثر على رجل يشبه قطبها الذكوري «الأنيموس»، وهذا يُفسّر سر شعورنا بـ «الاكتمال» حين نحِب.

لم يسخر هذه المرة. كانت قد بلغَت وجهتها، أوقفت السيارة إلى جانب الطريق، ثم التفتت صوبه تقول:

- الإنسان، أي إنسان، يعيش في حالة جوع مستمرة بحثًا عن المُكمِّل الآخَر، يفعل ذلك حتى وهو لا يدري أنه يفعل، البعض يبلغ به الجوع حد الشراهة فتتعطل حياته حتى يعثر عليها، المرأة التي تبحث عنها يا «زعفران»، التي لا وجود لها في الأوراق الرسمية، المرأة التي تشعر أنها بداخلك، التي لا تستطيع أن تنساها حتى وإن سقط كل ماضيك من ثقوب الذاكرة، هذه المرأة، ربما تكون امرأة أحلامك يا «زعفران»، امرأة ليس لها وجود لأنك لم تعثر عليها بعد، لم تلتقِها بعد، صوّر لك خيالك أنها حقيقية فقط ليملأ الفراغ الكبير الذي تركته ذكرياتك الضائعة، أنت تحاول العثور على امرأة تُشبه قطبك الأنثوي الكامن في أبعد نقطة من أعماقك.

حلَّ صمت طويل، كثيف، أثقل وزنًا من الهواء داخل السيارة، فترسَّب فوق بدنه، أعجزه عن الحركة لدقائق متتالية. ثم استدعى نبرته الاستهزائية، وهو يرمقها بنظرات حادة:

- هل تحاولين أن تقولي إنني مُخنَّث؟!

أغمضت عينيها للحظات، تكبح غضبًا متناميًا بداخلها. لم تنجح، إذ اتسمت نبراتها بالحدة وهي تقول:

- أحاول تفسير ما تشعر به، لستُ عدوتكَ، أنا أبذل جهدي لأساعدك.

لم تنتظر ردًّا، ولم يملك واحدًا.

***

في مطعم يطل على النيل مباشرة، شاركته طاولتها المفضلة، طلبت «الكِشك ألماظية» الذي يعدُّونه هنا بطريقة مميزة، بإضافة الشوربة والزبادي، مُزيَّن بالبصل المحمر على الطريقة الصعيدية، تمامًا كما تحبه.

«زعفران»، على وزن «فَعلّان». لسببٍ غير مفهوم أقرَّت أذناه بإيلاف الاسم الذي اختارته «أنهار»، بحروفه التي تُشكّل مقطعًا صوتيًا مميزًا. وبخاصة أنه يُلائم الختم الشمعي المُلتصق بجبهته، عندما استحمَّ بالأمس حاول كحته وكشطه، مستخدمًا أظفاره ولوفة خشنة وطرف سكين! لم يتزعزع الختم من موضعه، كأنه جزء أصيل من بشرة وجهه، مع «أنهار» كل

الحق في استنكارها، لماذا يُقدم إنسان على ختم نفسه بالشمع الأحمر؟ أم تُراه مفعول به لا الفاعل؟

قال بنفاد صبرٍ، ممزوج بقلة حيلة، وقدر كبير من اليأس:

- كما قلتِ سابقًا، قد لا أكون من سكان عمارة الموت، ولا مصر الجديدة كلها، وهذا يجعل الأمر كالبحث عن إبرة في كومٍ من القَش.

أنهى عبارته المتشائمة وهو يتفرّس في النيل، كم هو طويل، متشبّع بالأسرار، والخطايا والأخبار، يُلقي فيه كل إنسانٍ هواجسه، ويُسائله عمّا أشغَله وأهمّه، لا يفضح سطحه ما تواريه مكامِن الأعماق، تمامًا كما يُخفي هو بداخله غضبًا متناميًا، واستياءً مريرًا، لعجزه عن تذكر ملمح واحد عن نفسه. لا يعرف حتى إن كان أحب سابقًا «الكِشك» الذي تُقبِل «أنهار» عليه بنَهَم، يُشاركها في تناوله بشهية كبيرة، حتى أجهز وحده على طبقين كاملين.

- وماذا كنتَ تفعل في العمارة وقت الزلزال؟

اصطدم مرفقه بكوب الماء نصف الممتلئ، فتناثر الماء فوق ملابسه.

أخرجَت من حقيبتها منديلًا من القماش مُطرّز الأطراف، أنفقتْ في حياكته ليلتين ونصف نهار، عندما حلّ عليها الأرق زائرًا غير مُرحب به. مسح قميصه بالمنديل، بدا لها طفلًا كبيرًا ضائعًا، وحيدًا، في هذا الكون الفسيح، استدر ضعفه رهافتها، وأثار فيها شعورًا غريبًا بالأمومة. لم تتخلَّ يومًا عن الحذر، حتى وهي مع أناس يبدون لها أهلًا للثقة، بيدَ أنها مع هذا الرجل الذي بلا ذاكرة، تشعر أنها تتخلى عن قيودها شيئًا فشيئًا، ترغب في الاستماع إليه وإن تحدّث إلى الأبد.

أجاب سؤالها واجمًا، ومفكرًا:

- أزور صديقًا، ربما.

جذبه النيل بسحره، ودّ لو يُلقي نفسه بداخله، يستمتع بالماء كأي مخلوق مائي أو برمائي. تساءَل في نفسه: *لماذا لا نعيش في الماء وينتقل السمك للعيش في البر؟*

قالت في محاولة رخوة لمنطَقَة لغز الرجل الذي تساقطت ذكرياته كأوراق الخريف:

- تقصد أنك كنتَ ذاهبًا للقاء المرأة التي تبحث عنها؟ هذا منطقي.

استبد بها الضيق ثانية، إذ تطرق الحديث إلى المرأة المجهولة، التي تشغل حواسه وتسكن جوارحه. المرأة ليست نديمتها أو غريمتها، لا تعرفها لتُنمّي شعورًا تجاهها، فلماذا الانزعاج إذًا؟

أردفت بقسوة من حيث لا تشعر:

- ربما هي امرأة متزوجة، وهذا يُفسر عدم سؤالها عنك بعد الزلزال، وقد...

- إنها امرأتي.

باقتضاب وحزم، حسم مجرَى المحادثة لصالِح المرأة المجهولة. استطرد مفسرًا بينما يتكئ إلى الطاولة الخشبية بمرفقيه:

- لا أعرف كيف أشرح ذلك، كما أخبرتك صباحًا، هو شعور وليس ذِكرى، لكنه شعور أقوى من الذكرى، كمعلومة بديهية لا يُمكنكِ نسيانها.

ثم أشار إلى الموجودات من حوله، وأردف برويّة:

- مثلًا أنا لم أنسَ الشمس، والنيل، والشجر، والحجر، لم أنسَ أن هذا كوب وأن ما بداخله ماء، لكنني مثلًا لا أتذكر متى آخر مرة ركبتُ فيها فلوكة في النيل، أو جلستُ تحت الشمس، أو قذفتُ حجرًا من فوق جبل، إنه شيء كهذا، هذه المرأة بالنسبة لي كالنيل والشمس والماء، حتى وإن نسيتها لا يُمكنني نسيانها، لذلك أنا متأكد، إنها تنتمي إليّ، جزء مني، إنها امرأتي يا «أنهار».

الحسد، باتت واثقة الآن. شعور الانزعاج الذي راودها ولم تعرف له سببًا، كان دافعه الحسد. تغار من امرأة لا تعرفها، لما يكنُّه لها رجل لا تعرفه، مِن مشاعر تتجاوز حدود الذاكرة. *كم أنتِ بائسة يا «أنهار»*، هكذا تهامست لنفسها بمرارة. مشاعره المتينة ذكّرتها بكل الروابط الهشة في حياتها، بعجزها عن العطاء، وشُح ما يُمنَح لها بغير استِعطاء، تجدُّد إدراكها بوحدتها الأزلية الأبدية، كنبتة على فوهة بركان.

سألته بوهَن:

- إن كنتما مُقرَّبين إلى هذا الحد، فلماذا لم تبحث عنكَ كما تبحث عنها؟

حكَّ كفيه ببعضهما، مال قليلًا صوب الطاولة، مجيبًا:

- لا أعرف، ويؤلمني أنني لا أعرف، ربما تبحث عني، لكن في المكان الخطأ.

الألم المتنامي فوق قسماته أحجَم أسئلتها المُدججة برغبة خبيثة في استفزازه. بحركة عصبية خشنة أشعلت سيجارة، نفثت سحائبها في وجوه لا مرئية، ثم أسقطَت الرماد في المنفضة البنية، التي تتوسط الطاولة. سألها:

- هل طعمها شهي؟

لم تفهم مقصده للوهلة الأولى، ثم أدركتْ، عندما أشار برأسه صوب السيجارة، أجابته:

- بغيضة.

- هل مفيدة؟

- مُميتة.

- هل توزَّع مجانًا؟

- أشتريها.

- هل أرغمكِ أحدٌ على شُربها؟

- اختياري.

- بغيضة ومميتة وتُنفقين مالك لأجلها وفوق ذلك فهي اختيارك، لماذا؟

ولماذا نسيَت والدتها أنها تكره البرتقال وصنعت منه كعكة عيد الميلاد؟ ولماذا توقفت عن اللعب مع أطفال الجيران واختارت الخروج إلى الشرفة لمشاهدة شجرة الجميز؟ ولماذا فضَّلت الفستان ذا الورود الزرقاء على السالوبيت العفريتة؟ ولماذا لم تصرخ أو تبكي بصوت يستجلب انتباه الكبار المنشغلين بوليمة طازجة من أشهى الأخبار؟ ولماذا لم تمزق بأظفارها وجه «شكري» صباح اليوم حين التقته للمرة الأولى بعد سنوات؟ ولماذا اختارت أن تعتنق دين الصمت، تقربًا لصنم الخوف الرهيب؟

ما كان بإمكانها أن تشرح الخيارات المعقدة وتداعياتها النفسية، لرجلٍ وُلِد للتو، بلا ذكريات، بلا مخاوف، بلا دين. اكتفَت بقولها:

- الحياة ليست بهذه البساطة.

كلٌّ منا يحارب شياطينه، وكانت شياطينها متجسدة في فكرة خبيثة، لا يُمكنها أن تمضي في المستقبل، بينما الماضي لا يزال معلقًا، بنهاية مفتوحة. لا تستطيع أن تتوقف عن لوم نفسها، بشأن اللحظة التي شُلّت فيها إرادتها، وحُبس صوتها، فلم تتمكن من الصراخ. لهذا أنزلَت بنفسها عقوبة أبدية، أن تصرخ كل يوم، وكل ساعة، داخليًا، بلا صوت، ودون أن يسمعها أحد.

فقدت شهيتها للكِشك، لم تُكمل الطبق. أخرجت مالًا ووضعته فوق الطاولة، ثم صحبته إلى الخارج. تمشيا قليلًا بغير اتفاق، تشاركا الصمت الذي يرتدي برقعًا يكشف عن عينيه بالكاد، عينان نهمتان لفض أختام الكلمات.

تنحنح قائلًا:

- بصراحة أنا مُحرَج منكِ، أشعر أن صُحبتي بغيضة ومُميتة وغير مجانية كسيجارتك، لكنها ليست من اختيارك.

منحته ابتسامة رائقة، ثم قالت مُتبسّطة وهي تُلوِّح بسبابتها:

- إياك أن تظن أنني لن أسترد مالي، ما إن تستعيد ذاكرتك حتى أطالبكَ بكل قرش أنفقتَه عليك.

منحها ابتسامة واسعة، عرفانًا بجميلها في رفع الحرج عن كاهليه.

***

في دروب مصر القديمة ساقها الحنين، حملتها الخُطى من شارع إلى حارة، ومن حارة إلى عَطفة، ومن عَطفة إلى زقاق. يُشاطرها المسير مدفوعًا بالفضول، لملء صفحاته البيضاء بأحبار المعرفة.

شعرت بجوعه إلى الإنصات، فتحدثت بغير انقطاع، كدليل يُرشِد سائحًا:

- هل تعرف أن هذه الشوارع سُمِّيت وفقًا لنوعية سُكانها؟

التفت إليها برأسه، وعلامات الدهشة تتسور وجهه. يسيران كتفًا بكتف، بخطواتٍ ذات إيقاع متأنٍّ، ومناورات حركية يتفاديان بها الزحام. أردفَت بصوتٍ يحمل من الشجَن قنطارًا، ومن الوَجد أطنانًا:

- عِندك مثلًا درب البرابرة، أو درب السعادة كما أحب أن أسميه، فيه تجد مستلزمات الأفراح والسبوع، و«البرابرة» هم الأمازيغ الذين قدموا

مع جوهر الصقلي والفاطميين ليستقروا في هذا المكان، أما شارع السيوفية، فسُمي نسبة إلى ورَش السيوف التي كانت منتشرة في المنطقة في عهد المماليك، والمغربلين نسبة لأصحاب مهنة العطارة الذين كانوا يغربلون التوابل والبهارات، والسروجية اشتهروا بعمل السروج وحَدوات الخيل، والخيامية اشتهروا بحياكة الخِيَم، والقِربية عكفوا على صناعة قِرَب الماء، يملؤها السقاؤون من حمام القربية، ويطوفون في حارة السقايين على البيوت ويمنحون الناس الماء.

لاحت على شفتيه ابتسامة رائقة، يمازحها:

- على هذا المنوال، فسور مجرى العيون حيث اللوكاندة التي أقيم فيها، سُمي بذلك لوجود بئر للعيون المقتلَعة يحاوطها سور أثري قديم.

شاركته ضحكة صغيرة، ثم قالت بحماس طفولي:

- هل تريد أن ترى بئرًا حقيقية؟ سآخذك إلى بيت الكريتلية.

نطقت ملامحه بالترحيب، انطلقت بشغف صوب أحد أعرق شوارع مصر القديمة، أشرت إلى بناء أثري بديع، يمثل أحد الآثار الإسلامية النادرة، بجوار مسجد أحمد بن طولون، ثم تتابعت الكلمات فوق شفتيها بحماس كبير:

- في الحقيقية إن هذا البناء الجميل هو منزلان منفصلان، كلٌّ منهما بُني على طراز معماري مختلف، ويفصل بينهما مائة عام، حتى جاء طبيب إنجليزي يُدعى «جاير آندرسون»، رممهما وربط بينهما بقنطرة تصل بينهما.

أبهره البناء، تفكّر في القنطرة التي استطاعت أن تمزج بين زمنين بعيدين، وعالمين متباينين لكلٍّ منهما ذوقه وفنه وأدواته. بدا البيتان المتلاصقان كروح واحدة سكنت جسدين متخلفين في الشكل والتكوين. أيكون الحب شيئًا كهذا؟ كيان متجانس التكوين يقبل القسمة على اثنين؟ انشغل عقله بهذا السؤال، دون أن يجسر على طرحه عليها.

عيناه تتأملان التفاصيل بنهم، تُنقِّبان في المباني والوجوه عن الجمال، والذوق، والمعنى، أغرتها قسماته المتأملة بالتصوير، فأخرجت الكوداك من

حقيبتها والتقطت له صورة مباغتة، أزعجته المفاجأة، إلا أنه ابتسم بتوتر، ولاحظ عندئذ أنه لا يحب التصوير.

أشَّرت «أنهار» صوب البئر، ثم قالت بافتتان حقيقي:

- وهذه تُدعى بئر الوطاويط، تقول أسطورة قديمة إن هذه البئر مسحورة، إذا نظر العاشق بداخلها وتمنَّى، سيرى وجه محبوبته مطبوعًا على صفحة مائها.

ثم هزَّت كتفيها مردفة:

- لكنها خرافات كما ترى.

استحوذت الأسطورة على جُل اهتمامه، دنا «زعفران» من البئر، لم يجد فيها ماء، كانت جافة كقربة منسية في الصحراء، اشرأب بعنقه أكثر، وتمعن في عمق الظلمات.

لم يكن في البئر ماء، هكذا أكدت «أنهار»، وهكذا رأى ابتداءً، إلا أن ثمة وجهًا أنثويًا نحيلًا تبدى له من الداخل، من الأعماق!

شهق بقوة، وأرجع رأسه إلى الوراء، أمسكت به «أنهار» مخافة أن يفقد توازنه فيسقط في البئر، لم يخبرها عن الوجه الذي رآه، طبعه في ذاكرته وأخفاه.

عادا الأدراج من حيث استهلا التجوال، هذه المرة يرافقهما صمت ثقيل الخطوات.

أعادته إلى اللوكاندة، ألقت عليه التحية مودعة، فلم يجبها من فرط الشرود. بغتة، وقبل أن تدخل سيارتها، استوقفها بلهفة مناديًا باسمها، فاض الحماس من قِربة عينيه ليُغرق وجهها. قال بصوتٍ هدَّجه الشجن:

- «أنهار»، باغتتني الآن شعور قوي أن المرأة التي أبحث عنها قريبة جدًا، لو مددتُ يدي، سألمسها.

عجَن صوتُه الكلماتَ بشوق مُعتَّق كالنبيذ، وخمَّرها بقنطار من اللهفة. لم يسبق لها أن نظرَت إلى عينَي عاشق محروم، هناك في أعماق الموج الأسود، رأت حربًا طاحنة تدور، لا فائز فيها ولا مهزوم، رأت اليتامى والأرامل يطوفون على الأشلاء، يجمعون في أجولة الرؤوس والأبدان والأطراف، أحجية تركها

الموت وراءه كهدية عيد ميلاد. وقف هو يتأمل ما حوله بحسرة، هو الممزّق الوحيد الذي لم يجمعه أحد.

سمعتْ دقات قلبها تطرق بوابات الضلوع، اشتهتْ بقوة أن تكون المرأة المجهولة التي تجمع فيه الأشلاء.

***

# (13)

# الخضر الجديد

لم تكن بذرة معدة، بل بذرة إله!

هذا بالضبط ما شعرَت به ينمو في الفراغ الأزلي بين أحشائها، كما قال الغريب الحكيم الذي التقته في الأجزخانة.

في ليالي الصيف الخاملة، عندما تختنق برطوبة غرفتها ذات النافذة المنخفضة، كانت أمها تسكب في أسماعها حكاياتٍ مدهشة، عن الله القدير، ورسله الأوفياء، وأنبيائه الأتقياء، والصالحين من عباده والحُكماء. لشَد ما جذبتها حكاية «الخِضر» مع «موسى» عليهما السلام، لغرابتها وفردانيتها. كثيرًا ما تساءلت، كيف لعبدٍ أن يُحيط بعلمٍ مُسبَق، ويكون يدًا تُنفِّذ إرادة الله في خلقه؟ لماذا استأثر هو بالذات بهذه المعجزة؟ بماذا امتاز عن سائر الخلائق لتكون له تلك القدرة المدهشة؟

أنفقَت «عيناء» ليالي طويلة تغزل من خيالاتها أحلام يقظة، ودَّت فيها أن تُبعَث مِن غرفتها الخانقة خِضرًا جديدًا، يُلهم العالمين ويرشدهم وينقذهم. ربما لو أصبحَت كذلك لأحبها والدها رغمًا عنه، مَن ذا الذي لا يُحب قدرة «الخِضر» التي أوتيها، ولا يرق قلبه وتفيض عينه بحكاياتٍ ثلاث يرويها؟ الطريق إلى قلب أبيها لا يبدأ من معدتها كما توهَّمت، بل من قلبها كما تؤمن الآن!

هل سمع الأنبياء وَحيَ ربهم كصوت داخلي يسري في أفهامهم مسرَى اليقين؟ هل تزلزلت دواخلهم بكلمات مُلهمة ومفاهيم أوسع من إدراكهم لكنها داعية للمعرفة والاستزادة؟ لا بُد أن هذا ما وقع لهم وللصالحين، لأن هذا ما تشعر به يسري بداخلها الآن. صوت يعلو فوق صوتها، يُرشدها إلى الطريق الذي عليها أن تتبعه، صوت نوراني عجيب يخبرها بمهمتها الحقيقية في هذه الحياة!

أخبرها طبيبها في إحدى الجلسات العلاجية أن عليها تجاهل هذا الصوت الذي تتردد أصداؤه في رأسها، نصحها أن تُخرِسه، لأنه ينبعث من نفسها المريضة الأمارة بالسوء. بِئس الطبيب هو، وما أعظم الغريب الحكيم الذي التقته في الأجزخانة بترتيبات قدرية. هكذا فكَّرت.

لو أدرك الرجل الغريب أن الكلمة التي بذرها بعفوية ستجد في تربةٍ خصبةٍ للإنبات، ربما ما سمح لها أن تفلت من بين شفتيه قط. كم من كلمة ألقاها غافل تُنبت خبائث الشجر، وتطرح لئيم الثمر.

كانت الأفكار في رأس «عيناء» تتلاقح، ومن ثم تستطيل كالعشب الضار غير المجثوث، عشب لم يجد مِجثاثًا[1] حكيمًا يُهذبه، ويروضه.

أودَع الله في كل قلبٍ ما يُشغله، ورسم له هدفًا كي يبلغه، هكذا أخبرتها أمها الحبيبة في ليلة قاست فيها آلام المرض لساعاتٍ طويلة، كانت «عيناء» خلالها منصرفة إلى فراغ معدتها فلم تسمع نداءات قلبها كما تفعل الآن.

كبرت البذرة بداخلها، صارت شجرة يانعة، وحان وقت الحصاد.

أمسكت بالمنشار الكهربائي، وثبّتت كفّي أبيها الآثمتين فوق العجلة بعدما كفّت عن الدوران، كي تُنفّذ فيه إرادة الله.

أليس غريبًا أن اليد الماهرة هي ذاتها النقمة التي حلّت على صاحبها؟ كم هي عجيبة هذه الدنيا، تحمل المتناقضات كلها في سلة واحدة. هكذا فكَّرتْ وهي توشك على بتر الإثم عن جسد أبيها الطاهر العفيف، لولا أن رأت برهان ربها. أوحى لها كسر الفخار المبعثر في الأرجاء بالخطأ الرهيب الذي كادت أن تقع فيه قبل قليل، كيف تبتر يده وليس لها خبرة عملية في هذا الشأن؟ تهامست لنفسها بغِبطة وهي ترفع رأسها صوب السماء:

- أشكرك يا ربي القدير، كدتُ أقع في الزلل لولاك.

فصلت الكهرباء عن المنشار، ثم توقفت لبرهة، تُنقل أنظارها إلى يدي أبيها فاقد الوعي، تردف في ثقة:

- يجب ألا أفعل ذلك بلا تجربة سابقة، قد أوذيه من حيث أريد أن أعالجه.

---

(1) محراث خاص يستعمل لاقتلاع الأعشاب.

أعادت المنشار إلى الحقيبة، تمّمت على أنفاس أبيها التي تعبر منخريه بانتظام، ثم غادرت الفاخورة بعدما أطفأت الأنوار. مضت في الطرقات يسندها الظلام، متوجهة صوب البنسيون في غفلة من أعين النجمات، وجّهت وجهها شطر السماء:

- يجب أن أتدرب أولًا، لا يَصنع الفخراني تحفته الأولى من غير مِران، أشكرك ربي القدير، لم تدعني أغرق، وأبلغتني بحكمتكَ الشطآن!

***

عليها قبل كل شيء أن تُعيد المنشار الكهربائي إلى حقيبة العدّة بسرية تامة.

وقت المغربية، كانت السيدة القصيرة المكتنزة قد طلبت من صبي النجار الذي يشغل الغرفة رقم (3)، أن ينشر باب المطبخ الذي تمدد وتعفّن بفعل الرطوبة. رأت «عيناء» حقيبته التي يعلقها على كتفه، مفتوحة في الصالة، وأدواته متناثرة فوق البلاط، فأخذت المنشار من حيث لا يشعر، وعليها الآن أن تعيده إلى مكانه.

كان النجار قد انتهى من عمله، ولبّى دعوة السيدة لعشاءٍ خفيف، مقابل صنعته، هذا ما جعله قليل الانتباه لمنشاره المفقود.

استرقَت «عيناء» السمع إلى بعض حديث النجار في المطبخ، في أثناء دسّها للمنشار في موضعه، كان يتساءل:

- لماذا سمّيته بـ «بنسيون عجَب هانم»؟

لم تنتظر «عيناء» سماع جواب السيدة ذات الصوت المتحشرج، واللكنة المحببة. توجهت من فورها صوب غرفتها، توقفت للحظات في الممر تحاول أن تتذكر رقمها.

بغتة صرخت بهلع، إذ خرج القط الأسود السمين من باب الغرفة رقم (1)، التي مرت بها قبل لحظات وتكاد تُجزم أن بابها كان مغلقًا، ثم قفز أمام قدميها يغرز أظفاره في لحم ساقها، متكئًا على قائمتيه الخلفيتين، يميل برأسه ويتطلع إلى وجهها من رأسها إلى أخمص قدميها بشكل أربكها وبدّد ثباتها، نظراته حادة، إيماءاته متسارعة، مواؤه قوي متواصل، كأنه يحكي لها قصة.

حضرت السيدة وصبي النجار، يسألانها عن سبب الصراخ. أشارت صوب القط بأنامل مرتعدة، تمسح فوق الألم الحارق في ربلة ساقها، وهنا استدار القط على قائمتيه الخلفيتين، ثم سار في الممر متبخترًا عائدًا إلى الغرفة.

شعرت بالحرج، فاعتذرت للسيدة التي حذَّرتها بشأن الصراخ والإزعاج غير المقبولَين. تُركت وحيدة في الممر مع صبي النجار، الذي رحب بها في البنسيون، ولما لم تجد ما تقول همَّت بدخول غرفتها، عندئذ دنا منها الرجل بشكل أربكها، ودفعها لترجع خطوتين إلى الوراء، ثم قال بودٍّ:

- البنسيون جيد ورخيص ويغري بالبقاء، لكن خذي حذرك من «عجب هانم»، كما ترين إنها شرسة جدًّا.

رمَت «عيناء» بنظراتها صوب الغرفة رقم (1)، التي ولجها القط قبل قليل، ثم قالت للرجل في ارتباك ملحوظ، وقد أزعجها أن تتبادل حوارًا مع غريب:

- أنا لم ألتقِ «عجب هانم» بعدُ.

- لقد التقيتِها للتو.

فلما وجدها ترمقه في بلاهة، أضاف في حسم:

- «عجب هانم»، هي القطة السوداء السمينة!

أصابها من العجب الكثير، لماذا تمنح المرأة المكتنزة اسمًا ولقبًا لقط أسود لقيط؟ ولماذا تُسمي به البنسيون؟

دخل الرجل غرفته، تركها وحيدة في الممر فريسة بين مطرقة الدهشة وسندان الفضول. على أطراف أصابعها خطت صوب الغرفة رقم (1)، التي ما زال بابها مواربًا، من المساحة الضيقة سددت نظراتها المستطلعة، التي مسحت جزءًا يسيرًا من الغرفة، لم يكن كافيًا لرصد محتوياتها بالكامل، بيْد أنه كان أكثر من كافٍ لرؤية كرسي هزاز بجوار النافذة الطويلة المغلقة، وعلى ضوء اللمبة السهاري القادم من الممر تمكنت من رؤية القطة السمينة متربعة فوقه، بينما يهتز إلى الأمام والخلف بوتيرة ثابتة، من يُحرك الكرسي؟ لم تكد تسأل نفسها حتى أصابها العجب، جنبًا إلى جنب الارتباك والفزع، إذ كانت القطة ذات العينين الفيروزيتين اللتين تلمعان في الظلام تمسك بين

قائمتيها الأماميتين بخيط من الصوف وإبرة كروشيه، تغزل بإتقانٍ وثبات، غرزة وراء غرزة، كأي امرأة متمرسة في الحياكة!

***

احتمَت بغرفتها وغلَّقت الباب بالمفتاح، طاردة من عقلها المشهد الذي رأته منذ قليل، كأنه لم يكن. لأن البديل الآخر هو الفرار من البنسيون دون النظر خلفها، وهي لا تملك المال الكافي لتعثر على مكان غيره، قريب من فاخورة أبيها.

- لا بُد أن الظلام جعلني أتوهم، أو لعله التعب، نعم إنه التعب.

استعادت رباطة جأشها، وهدَّأت من تسارع أنفاسها، بعد أن شربت زجاجة كاملة من الماء، كانت قد ملأتها سابقًا من حوض الممر.

ودَّت لو تستحم، وتستبدل بفستان الزفاف آخر نظيفًا، لكن من أين لها بالمال؟ من حسن حظها أنها لا تملك معدة، وإلا لكانت تعض نفسها الآن مطالبة بحقها في الإطعام.

*كيف سأدفع أجرة البنسيون؟*

تساءلت وهي تُعد نفسها لتفترش الطرقات من الغد، بعدما تطردها السيدة لعجزها عن سداد ثمن إقامتها كما وعدتها. لاح بخاطرها أبوها الذي تركته في الفاخورة غائبًا عن الوعي، بعدما دسَّت حبة منوِّم مطحونة في فنجان قهوته، كانت قد أخفتها تحت لسانها متظاهرة أمام الممرضة أنها ابتلعتها بشربة ماء، وقبل أن تفارق المصحة يوم زواجها بـ «جمال»، أخفت جميع الحبوب في الشراب، ثم نسيت أمرهم حتى رأت من شباك غرفتها بالبنسيون أباها وقد عاد إلى الفاخورة، فاكتملت الخطة في ذهنها.

كان بإمكانها أن تسرق المال من جيبه، لكنها لم تفعل، لأن الصالحين المختارين يترفَّعون عن محقرات الذنوب، ما كانَ «الخِضر» ليقع في هذا الزلل وإن غرقَت السفينة، وإن اختفى الغلام.

طرقات متتابعات جعلتها تجفل، وارتَب الباب تسترق النظر بريبة واضطراب، طالعها وجه السيدة صاحبة البنسيون الخالي من الشعور،

وجهها كتمثال من الشمع، لا يتمكن الناظر إليه من استنباط الفكرة التي تساورها الآن.

- لديكِ زائر.

- زائر! لي أنا؟

رجل أتى لزيارتها، من يكون يا تُرى؟ هل استعاد أبوها وعيه بهذه السرعة وعرف مكانها الذي يبعد عن فاخورته عدة أمتار؟ مستحيل، كان سابحًا في مملكة النوم عندما غادرت الفاخورة وغلّقت الأبواب. لا بُد أنه زوجها «جمال»!

- شكرًا يا ستِ، قولي له سآتي في الحال.

غسلت وجهها في الحوض الصغير، بجوار باب الحمام المخصص للنزلاء، قرصت خدّيها إلى أن اندفعت فيهما الدماء، وهذا كل ما استطاعت تدبيره من زينة قبل استقبال زوجها العائد من الغياب.

دخلت الصالون بابتسامة متلهفة، ما فتئت أن تجمّدت قبل أن تتكسر ببطء على شفتيها، إلى أن ذابت في بئر الخذلان.

- أهلًا يا آنسة «عيناء»، أقصد مدام.

بكل الغضب المستعر بداخلها، وكأنها تعاقب الزائر على كونه رجلًا آخر غير «جمال»، ألقت بسؤالها:

- من أنتَ؟ ولماذا طلبتَ رؤيتي؟

لم تفتها ملاحظة صاحبة البنسيون، التي اتخذت موضعها خلف مكتب الاستقبال، بغير حاجة مُلحة، تتظاهر بحل الكلمات المتقاطعة في الجرنال، وتسترق السمع إلى حوارها مع الزائر الشاب، الذي بادرها يقول، وهو يرفع كفه سدًّا منيعًا أمام شلال نيراتها المحتدة:

- آسف على زيارتك بغير ميعاد، أنا «نزيه الليثي» صحفي في جرنال «الحياة».

تركت يده الممتدة بالسلام سابحة في الهواء. شعر بالحرج، تنحنح مردفًا وهو يعيدها بمحاذاة جسده:

- عرفتُ من مصدر خاص بقصتك الأليمة، وأردتُ مساعدتك في العثور على زوجك المفقود.

- أحقًا ستُساعدني في العثور على «جمال»؟
- بالطبع، لكن أحتاج إلى المزيد من المعلومات، تفضلي بالجلوس من فضلك.

انساقت «عيناء» وراء أمل تبدّى لها في نهاية النفق، تمسّكت به تمسُّك الغريق بالحياة، تلقي نظرات مستطلعة حول مقاعد الأنتريه الأسيوطي المغطى بالبياضات، بحثًا عن القطة السمينة الرابضة، مخافة أن تفاجئها بالقفز فوق ساقيها من جديد. سألها عن اسم «جمال» كاملًا، ومؤهله الدراسي، ومكان سكنه، وطبيعة عمله. أخبرته كل ما تعرف من معلومات اكتشفت أنها شحيحة جدًا، كانت تكفيها وقت أن قررت اصطياده للزواج. كان الرجل الوحيد الذي قبل أن يجعلها امرأة كاملة؛ لم تهتم لما تقف عنده الفتيات عادة من أمور تستوجِب البيان.

- المشكلة يا مدام «عيناء» أنني بحثت جيدًا في الأماكن التي ذكرتِها كمكان عمله السابق وعنوان بيته، لم أستدل على رجل بهذا الاسم
- كيف ذلك؟ «جمال» له أم أرملة، وأخت لم تتزوج تكبره بخمسة أعوام، لا بُد أنهما تبحثان عنه.
- صدقيني، بحثت جيدًا في الأماكن التي ذكرتِها لضابط قسم الجمّالية، لم أجد شخصًا واحدًا يعرفه، لذلك أردتُ مقابلتك شخصيًا، قلتُ لعلك أخطأتِ في البيانات أو لعل الزلزال تسبب في إصابتك بتشتت في التركيز، هل أنتِ واثقة من أنكِ تزوجتِ في بيت المأذون في اللحظة التي وقع فيها الزلزال؟
- طبعًا متأكدة، هل تنسى المرأة لحظة زواجها؟
- أرجوكِ تذكري جيدًا.
- ذاكرتي أقوى من الحديد.
- هذا غريب، لأن رجال الإنقاذ أفادوا بأنهم لم يستخرجوا إلا جثة واحدة من بيت المأذون، وهي جثته شخصيًا! وثلاثة مصابين ليس من بينهم رجل يُدعى «جمال»، وبسؤالهم تبين أن لا أحد منهم يعرفه، وأفادوا أنهم كانوا مجتمعين في بيت المأذون تلبية لدعوته على الغداء، فهو رجل وحيد، لا بُد أنكِ أخطأتِ و...

قد تبدو هشة من الخارج، إلا أن عنادها كالفخار الذي يقسو بالنار، ولا يلين:

- أي خطأ، أقول لك إن زوجي «جمال» رجل من لحم ودم تزوجته على سنة الله ورسوله وعلى يد المأذون الذي يعيش في العَطفة الجوانية بحي الجمالية!

ثارت ثائرتها، حاول «نزيه» امتصاص غضبتها، مخافة أن تفوح رائحة الخبر فيتشممها صحفي غيره، ويضيع منه هذا السبق المثير.

- أخطأ رجال الإنقاذ إذن.

- نعم، هم المخطئون لا أنا.

- عامة سأواصل البحث عن زوجك، لا تقلقي، ثقي بي ثقة كاملة، وبالمناسبة عليّ تحذيرك من التحدث مع أي صحفيّ غيري، تعرفين أن بعض زملاء المهنة بلا ضمير، قد يستغلون الخبر لصالحهم ويشوهون صورتك وصورة زوجك بادعاءات باطلة.

أصابت كلماته كبد مخاوفها، فآخر ما تريده أن تُفتضح هويتها، وأنها إلى المصحة تنتمي. تفهَّم «نزيه» من فستان زفافها الذي أصابه ما أصابه، أنها لا تملك قرشًا واحدًا، فتوجه من فوره إلى صاحبة البنسيون التي لا تزال تسترق السمع بجلاء لا تُجاهد لإخفائه. وعلى مرأى من «عيناء»، وضع فوق المكتب عشرين جنيهًا كاملة، أجرة ستة أيام بلياليهم، ثم أنقدها ثلاثين غيرها، قائلًا بابتسامة حرص كل الحرص على أن تبدو ودودة مطمئنة:

- لا بُد أنك فقدتِ مالك في الزلزال، اعتبريني أخًا لكِ، أمسكي لا تخجلي.

تلقفت منه المال بخجل كبير، لولا الحاجة لما أقدمت على الاستدانة من غريب. سرَّه قبولها للمال، فها هو يُنقِدها في اتفاق ضمني، ثمن الخبر الحصري الذي يُغلف حكايتها المثيرة.

***

شقشق الصباح عن يوم جديد، تمطَّت الشمس في سرير الأفق، ثم تمايلت لتسكب أشعتها فوق رؤوس الخلائق.

كانت حارة على غير العادة فوق رأس «عيناء»، وهي تسير في شوارع لا تعرفها، تنتقي فستانًا برتقاليًا من أحد دكاكين البالة، طويلًا، ذا أكمام واسعة، وحذاء أخضر بسير يلتف حول إبهاميها، حذاء أنيق لا يُشبهها. كان ليُناسبها الأسود، أو البني المحروق المغلق بالكامل كصندوق، إلا أنها لم تتحمل ثمن واحدٍ. اقتصدت كثيرًا في الإنفاق، مخافة أن تنتهي الجنيهات الثلاثين سريعًا، فلا يزال أمامها طريق طويل مجهول المعالم، شحيح الإشارات.

لم تستطع منع نفسها من أن تمسك بأكثر حذاء أعجبها، وعجزت عن دفع ثمنه، ثم تُمزقه بطرف أسنانها، وتحدِث به خدوشًا مُتلِفة، تُنفّر أي امرأة من شرائه.

استشعرت في فِعلها عدلًا وإنصافًا، إن لم تتمكن النساء الفقيرات من الحصول على ما يشتهين، فعليها أن تُنغص متعة من تستطيع، لم ترَ في فعلتها ما يشين، بل هو شعور بالغضب محمود، وتصريف له في محله، تخيرت أسوأ الضررين بإتلاف الحذاء نفسه، بدلًا من تمزيق المرأة التي ستشتريه بأسنانها. كم أنتِ حكمية يا «عيناء»، هكذا استشعرت في نفسها، التي تُركت على سجيتها تفعل ما تشتهي، وتسوق من المبررات والبراهين ما يثبت أنها إنسانة صالحة. غاب عن حياتها من يُقارع الوهم بالحقيقة، والباطل بالحق، والسفاهات بالمنطق.

لم تتخلف عن المرور على العَطفة الجوانية، لا تمل السؤال عن «جمال»، حتى حفظها أهل المنطقة، وتسابقوا في نسج خيوط حكايتها المبتورة، بخيالاتهم الرحبة الجامحة.

فلمَّا يئسَت الجواب، وهدَّها الإرهاق، قررت العودة إلى البنسيون.

في الأتوبيس، أحبَّت الزحام، فكرة التقارب مع الآخرين تُربكها، إلا أنها كذلك تُشعرها أنها ليست وحيدة. تزعجها الضوضاء، وكذلك الأضواء، غير ذلك كانت مستمتعة بمراقبة الناس، حركاتهم، طريقتهم في المشي والحكي، في الضحك والشجار.

لم تشعر بنفسها على قدم المساواة مع ملايين البشر، الذين مروا فوق هذه الأرض، هي تعلوهم قليلًا، اختلاف طبقات، لا ينبغي للجميع أن يصلوا -مثلها- إلى منزلة الصالحين والربَّانيين وأرباب الكرامات. فوق رأسها تطوف

يراعات كونية، مُشكِّلة تاجًا لا مرئي، منظور فحسب بأعين الحُكماء، هي المحظوظة من بينهم، وقد اكتشفت المهمة المقدسة التي خلِقت من أجلها. هذا ما كانت تفكر فيه حين اصطدمت بأول لمسة.

خالتها في البداية زلة غير مقصودة، سببها التدافع والزحام داخل المستطيل المعدني، الذي يتوقف كل حين ليُعلّب راكبًا جديدًا في وضع الانسحاق. فلمّا تكررت اللمسات، وتقاربَت وتيرتها، استطاعت معرفة إلى أي الأيادي الآثمة تنتمي. علق الطعم في السنارة، غير مُدرك أنه الفريسة لا الصياد، سمكة أثيمة خرجت عن استقامة السرب، منحته نظرة مطولة، قبل أن تتوجه صوب الباب، وتنزل من الأتوبيس.

لا تعرف أين هي، ولا إلى أين ستقود صيدها، خرجت من شارع لتدخل آخر، ومنه إلى آخر فآخر، في حركات ثعبانية تقوده عبر متاهة لا منتهى لها. تلتفت كل حين، مُلقية فتات نظراتها على الأرض، والصيد يتبعها لا يحيد، غير مدرك ما ينتظره في آخر الطريق.

بلغت منطقة خالية من الخلق، أسفل كوبري تمر فوقه السيارات بأبواق مزعجة، تبعها الصيد ولا يزال يحسب أنه الصياد. لم يفطن للحجر الذي تحمله في يدها، لم يرَ الضربة وهي قادمة في اتجاه رأسه، مرة واثنتين وثلاث، حتى مادت به الأرض واسودّت السماء، وتبددتْ من حوله الموجودات.

أسفل الكوبري، لن تجد مصدرًا للكهرباء كي يعمل المنشار، حمدت الله القدير الذي ألهمها في آخر لحظة قبل أن تغادر البنسيون أن تستبدل به ساطورًا رأته في نملية المطبخ.

ثبّتت اليدين الآثمتين فوق الأرض، تتحسس بشرته اللينة كعجين قابل للتشكيل، فما الناس إلا فخار، أبدعته يد الصانع القهار، لكن بعض الآثمين يصرون على الخروج عن الهيكل المنشود، والهدف المرصود. وهي أحد أولئك الذين أرسلهم الله لإعادة عباده إلى جادة الطريق. رفعت الساطور عاليًا، أغمضت عينيها للحظات في خشوع، تُسمّ الله، وتُكبّره ثلاثًا، ثم تفتحهما لتنهال بضربات قاضية، انفجرت على إثرها ينابيع الدماء.

وقفت تتأملها، مُنتجها الأول، بانبهار، كأعظم فخرانية بشرية في التاريخ.

# (14)
# عمى الوجوه

بينما يقرأ «زعفران» أخبار الزلزال في الجرنال، أخذ يتساءل: إذا كان الإنسان بهذه الهشاشة، فلماذا يسعى لبناء البيوت، وصناعة السيارات والقطارات والطائرات، التي قد يلقى في أحدها حتفه؟

لماذا لا يعيش الإنسان في الخلاء، يعب الماء الرقراق من النيل، يجمع فائض الأمطار، يزرع ويحصد، يصطاد طعامه بنفسه؟ لماذا يختار أن ينغمس في بناء المجتمعات وتشييد الحضارات، بدلًا من أن يكون شاغل همه الطعام والشراب والتكاثر؟

لماذا يحارب ويصارع وينازع الآخرين على ملك ومال وسلطان؟

لماذا خلق الله الإنسان محمَّلًا بكل هذا القدر من الشرور؟ أما كان الأولى أن يخلقه كالملائكة؟ عباد مكرمون، لا يعصون الله ما أمرهم، لا هُم بالذكور ولا هم بالإناث، رُسلٌ أولي أجنحة، مثنى وثُلاث ورُباع.

اعتملت كل هذه الأسئلة بداخله، من غير إجابة وافية تشفي غليله. وعندما دخل المصعد واختار رقم الطابق الذي يريده، من بين كل الأرقام الأخرى، شعر أنه وقف على الجواب الذي ينتظره. لو خُلق الإنسان بلا نوازع بشرية، لما كان له حرية الاختيار.

نحى بتفكيره صوب المرأة المجهولة، هل اختلقها عقله كوسيلة دفاعية ضد فشله في استعادة ذكرياته؟ مَلهاة ألقاها عقله في طريقة لئلا يجن كما تقول «أنهار»؟ والوجه الذي رآه في بئر الوطاويط ببيت الكريتلية، أيكون محض تلفيق من بنات المُخيِّلة؟

لوَّحت له «أنهار» من منتصف رواق الجرنال، إلا أنه لم يلتفت! أثار هذا استهجانها، اقتربت منه حتى لم يبقَ بينهما إلا خمس بوصات. قالت بانزعاج:

- لماذا لم تقترب كما أشرتُ لكَ؟
- لم أرَكِ.
- كيف؟ لقد كنتُ هناك على بُعد خطوات فحسب، لقد نظرتَ إلى وجهي، أنا واثقة أنكَ رأيتني، لمَ الكذب يا «زعفران»؟

كان اتهامها مهينًا، تمعَّر وجهه، قال بغلظة:

- أخبرتكِ سابقًا في اللوكاندة، وجهك عجيني، في الحقيقة جميع الوجوه عجينية.
- أخبرني ثانية، ماذا تقصد؟ ألا يُمكنك تمييز ملامحي الآن؟

أخذ نفسًا عميقًا ثم قال:

- أعرفكِ من صوتك، عطركِ الآن مختلف عما شممته يوم أخرجتِني من تحت الأنقاض، حِمضي لاذع ممزوج بالقليل من نكهة مسكِّرة، لذلك لم أتعرفكِ على باب غرفتي.

صدمها حديثه، تنامت بداخلها إشارات الخطر. قالت بحزم غير قابل للنقاش:

- اتَّبعنا طريقتكَ ولم نصل إلى شيء، الآن سنتبع طريقتي، يكفي هذا العبث، يجب أن يفحصك طبيب، لا اعتراض هذه المرة يا «زعفران».

لم تكن لديه الطاقة الكافية ليعترض، ولا اليقين الكافي ليُجزم أنه بخير. هزَّ رأسه يُرسل لها موافقته الصامتة، يتبعها في استسلام.

***

كانت غرفة الفحص نظيفة، ومرتبة بعناية، في مستشفى حكومي تُزكّي «أنهار» كوادره الطبية بثقة. كانت قائمة الانتظار طويلة؛ ساعة ونصف إلى أن حان دوره في الفحص.

- إنها حالة واضحة من «عمى الوجوه»، أي عدم القدرة على التعرُّف على الوجوه وتمييز قسماتها، غالبًا في حالتك هي نتيجة إصابة في الرأس.

تعاظَم بداخله قدر الطبيب، أي طبيب، قادر على اكتشاف سبب الألم الذي يعانيه إنسان. هذه الهبة من الفراسة والحنكة كانت لتؤهِّل الطبيب كي يتربَّع على عرش السُّلطة، في المجتمعات والحضارات والنُّظُم المختلفة. عكسَت

غرفة الفحص المتواضعة بمساحتها الضيقة وفرشها القليل، درجة متدنية على السلم الاجتماعي. هذا ما فكَّر فيه «زعفران».

سارعَت «أنهار» تتساءل، بقلق حقيقي:

- هل هو عرَض مؤقت أم ضرر دائم؟

قال الطبيب، بعد ترددٍ ملحوظ:

- هذا المرض نادر إلى حد كبير، في بعض الحالات يكون مكتسَبًا، أي نتيجة إصابة أو تلَف في المخ، كما أرجح في حالتنا هذه، أو خللًا وراثيًا كإعاقة اجتماعية، وفي الحالتين ليس له علاج دوائي، للأسف.

- إنسان لا يتعرف على وجوه من حوله كيف يعيش بين الناس إذن؟

- عن طريق تطوير استراتيجيات تعويضية، يستخدم حواسه الأخرى في التعرف إلى الناس، مثلًا رائحتهم، أصواتهم، آذانهم الكبيرة، طول القامة، شعورهم الطويلة، وبالطبع حَدسه الشخصي.

فكَّر «زعفران» إلى أي درجة يُمكن لصيد المعلومات أن يكون مهنة مرموقة على السلم الاجتماعي؟ لا يفهم حتى الآن كيف لـ «أنهار» أن تتخذ من صيد المعلومات مهنة لها، بلِ كيف لمجتمع أن يُطلِق صياديه من البشر في غابات الحياة، ليحصدوا أكبر قدر ممكن من المعلومات، منافسين غيرهم، ويكون هذا عملًا مُدرًّا للمال؟ هل المعلومات قيِّمة إلى هذا الحد؟ ماذا يجني جامعو المعلومات من وراء جهدهم هذا؟ هل هي قابلة للتصنيع مثل الخيوط أو لإعادة التدوير مثل البلاستيك؟ هل تُستخدم كوحدة بناء مثل الحجارة، أو متراسًا على الحدود بين الدول؟

بدا له من أهميتها للجميع، أنها تقوم بكل هذه الأدوار معًا.

سدَّ صوت «أنهار» طوفان الأسئلة التي تتجمهر في رأسه، بتوجيه سؤال آخر إلى الطبيب:

- وذاكرته، متى يسترجعها؟

- طبعًا سنحتاج إلى المزيد من الفحوصات، لكن بعد الفحص المبدئي نستطيع أن نقول إن استعادته لذاكرته مسألة وقت، كم تستلزم من الوقت؟ لا نعرف، ربما شهور، ربما أيام، أو عدة ساعات.

أزعجه الحديث الدائر بينهما، وكأنه إنسان غير مرئي. لم يكن لديه ما يستوجب السؤال، فلم يفعل الطبيب سوى أن أضاف همًّا عَقب همِّه، طبيب يبدو له كرجل مسحوق يتظاهر بالحياة. تتغذى الحياة عليه، قضمة بقضمة، ولولا القليل من غراء المنطق الذي يجمع أشلاء العالم، لكان في طريقه إلى التلاشي الآن. نهض معلنًا بحركة مفاجئة رغبته في إنهاء الكشف، أيّد الطبيب رغبته، نظرًا للإرهاق البادي على مُحياه، وجحافل المرضى الذين ينتظرون دورهم في الخارج، يأملون أن يمنحهم قطرة من إكسير الشفاء الذي لا يملكه.

إراحة لضميره المهني، قال قبل انصرافهما:

– وجوده في مكان يألفه، أو ممارسة شيء اعتاد فعله في الماضي، صوت، رائحة، أو ربما صورة، سيتمكّن أي من ذلك من مساعدته على استعادة ذاكرته بشكل أسرع، هل له أقارب؟

ما زال الطبيب يتحدث «عنه» لا «له». تقافزت كلمة «لا» فوق لسان «أنهار»، إلا أن صوته الرخيم قد غلبها، وهو يقول بحزم:

– لديَّ امرأة.

انعطفَ رأسها صوبه بحدة، مغتاظة بشدة، أما زال مصرًّا على حكاية المرأة المجهولة التي لا تُفلتها الذاكرة؟ ماذا عليها أن تفعل لتثبت له أنها محض أوهام، خلقها عقل مفلس لإيجاد ما يشغله؟

رسم الطبيب ابتسامة روتينية، قائلًا بنبرة ملولة، منهية للزيارة:

– جيد، إنها مفتاح ذكرياتك إذن.

***

في السيارة، ولنصف ساعة كاملة، لم تتبادل وإياه حرفًا واحدًا. وإذ فجأة أوقفَت سيارتها على جانب الطريق، تترجل منها دون توضيح، وتُغلق بابها بقوة غير مُبررة. تتوجه صوب كابينة الميناتيل، تخرج من حقيبتها الكارت المدفوع مقدمًا. تغلق باب الكابينة، وتمسك السماعة لإجراء اتصال بمكتبها بالجرنال. على الطرف الآخر، أخبرها زميلها «سمير» أن «نزيه» غير موجود على مكتبه، ولا يعرف إلى أين توجه. ثم أضاف هامسًا بنبرة مُهتمة مُحذرة:

– المدير غاضب كثيرًا يا «أنهار»، مبيعات الجرنال ليست جيدة على الإطلاق، يُفكرون في استبداله، وهو بدوره يفكر في استبدالنا، أتعرفين؟ لقد طرد «ربيع»، الرجل المسكين أفنى عمره في خدمة

الجرنال، الآن بالنسبة إليهم أصبح جوادًا خاسرًا، فأخرجوه من السباق بطلقة في منتصف جبهته، عليكِ أن تحضِري خبرًا كالقنبلة بأي ثمن، وإلا فعملكِ أنتِ أيضًا على قدم عفريت.

زفرت بقوة، لاعنة رئيسها، ورئيس رئيسها، وكل رئيس. أوشكت على انتهاء المكالمة، بادرها بخبر كان بمنزلة ربحها لليانصيب:

- هل تذكرين الفتاة المجنونة التي اختفت من مصحة الشفاء بالخانكة؟ اتصل أبوها بقسم مصر القديمة يقدم بلاغًا بهروبها، لقد زارته في فاخورته ليلة أمس وحاولت قتله، آه، أبوها صانع فخار كبير بالفسطاط، هذا الخبر الطازج تلقيته الآن من مصدرٍ سري، لكنني سأهديه لكِ.

تعرف «أنهار» جيدًا أن الصحفي ظهره مكشوف، وأن أول الطاعنين -غالبًا- هُم زملاء الكار الواحد، لذلك لم تصدق موضوع الهدية، إلى أن أكّد ظنونها قائلًا بنبرة ملتوية:

- ليس من دون مقابل على أية حال، هل تقبلين الآن دعوتي على العشاء التي رفضتِها ما يزيد على عشر مرات؟

سبّته ولعنته، في سرِّها بالطبع. قالت تجز على أسنانها، مُهادِنة ومغالبة:

- أعطني عنوان صانع الفخار.

- اتفقنا إذن، أتحرق شوقًا لهذا اللقاء.

***

انطلقت بسيارتها دون أن توجه كلمة للرجل الجالس جوارها، الذي يصلح لأن يكون خبرًا يسيل له لعاب رئيسها. لو علم كيف تكبح جماح شراهتها الصحفية، احترامًا لوعدها بكتم سره، لما استمر في إزعاجها بذِكر امرأة مجهولة لا ترى عيناه سواها.

لم تحب قط أن يراها الآخرون كامرأة، تأنف سماع من يثني على جمالها كأنه سُبة أو مهانة، تشعر بالخطر عندما تلوح أنوثتها في الأفق، غير عامدة إبرازها. هذا الحادث الأليم في طفولتها كان سببه الأول أنها أنثى، لو كانت ذكرًا لما انتُهكت آدميتها، ولما سُلبَت طفولتها، ولتمكنت من الصراخ، وفضحه على الملأ. حاولت غير مرة أن تتخيل نفسها ذكرًا، محصنًا من انتهاكات الآثمين، ورادعًا لها، أحبت الفكرة، أفسحت لها مكانًا رحبًا في صدرها، وأهالت التراب فوق كل شعور يستنهض فيها حقيقة كونها أنثى لا ذكر.

تصوَّرت الخطر يجلس فوق المقعد المجاور لها في السيارة، متمثلًا في الرجل الذي لا يراها، الذي -رغمًا عنها- تشتهي أن يراها. معه، لا يعجبها أن تكون شفافة، غير مرئية.

- إلى اللوكاندة؟

أخرجها سؤاله من شرودها. أجابته دون أن تنظر إليه، في تجاهل متعمَّد:

- سأمر أولًا على مكان قريب، ثم أوصلكَ إلى اللوكاندة.

ضاق الطريق بالمَركبات واتسع لتوترها، ها هي تُقدِم على محاولة أخيرة يائسة، لصيد خبر حصري يحفظ ماء وجهها، ويُبقي على مقعدها في الجرنال.

***

بالنسبة إلى رجل اكتشف للتو أنه مصاب بعمى الوجوه، أبدَى فتورًا ولا مبالاة كبيرة تجاه هذا الحدَث المُستجَد، إذ إنه لم يكن يعرف ما هي الوجوه أصلًا!

فقدانه لذاكرته منعه من المقارنة بين الوجوه العجينية التي يراها، والقسمات المميزة التي يبصرها غيره من البشر. «إعاقة اجتماعية»، هكذا وسَمه الطبيب الذي في طريقه إلى التلاشي من فرط التآكل.

تركته «أنهار» في السيارة وحده، دون أن تخبره سبب حضورها إلى هذا المكان.

- لدي عمل ما هنا بالفسطاط، انتظرني في السيارة.

هكذا قالت باقتضاب، بغضبٍ مكبوت غير مبرَّر في نظره. في حياته السابقة قبل فقدانه للذاكرة، لا يعرف إن كان قادرًا على فهم النساء، لكن المؤكد أن هذا يعجزه الآن، علمًا بأنه لم يلتقِ من النساء سوى «أنهار»، كانت في نظره عينة عشوائية كافية للدلالة على الجنس كله، الذي يبدو له غامضًا وعشوائيًا وعصيًا على التفسير.

لم يطق المكوث في السيارة، ترجَّل منها ملتفتًا حوله في فضول، مرَّ على عربة ترمس، وبائع عرقسوس. أخبرته «أنهار» أن هذا المكان لا يبعد كثيرًا عن «عين الصيرة»، حيث اللوكاندة التي يقيم فيها، لكنه يشعر أنه مكان مختلف تمامًا.

ثمة طاقة قوية تنبعث من الموجودات حوله؛ البنيان، والأرض، والخلق، والسماء. لحظتها ولَّى وجهه شطر الشمس، تذكر كيف لم يتعرف على القمر، كأنه يراه للمرة الأولى، والآن ولسببٍ غير مفهوم، يشعر بألفة كبيرة تجاه الشمس، وكأنه قادم منها، أو مسافر إليها، وقد أفنى عمره كله ينظر إليها.

كان ما يزال رافعًا رأسه صوب الشمس، التي كانت بوجهه رفيقة، فلم تخمشه بأشعتها الحارقة، عندما اصطدم به شخص ما، قصير القامة، سريع الحركة، دقيق التكوين، تلقَّفه بين يديه كي لا يسقطا معًا من فرط الصدمة، فقط ليتبين أنه مُمسك بفتاة بين يديه.

دقق في وجهها النظر، وأطال كثيرًا، كان ينظر إلى الخلائق فلا يقف على ملمح واحد قابل للتشكيل، الوجه العجيني نفسه يراه في كل الوجوه من حوله، أما الوجه الذي يراه الآن كان محددًا بدقة، تقاسيمها مخططة وبارزة بعناية مذهلة، وهو الوجه نفسه الذي رآه في قاع البئر! التف شعرها الثائر المجعد بقوة حول زر قميصه، حاولت التفلُّت ففشلت، وكلما اضطربت واحتدت وتقافزت، تشابك شعرها أكثر.

رائحة مألوفة اخترقت حواسه، مألوفة كأنها رائحته هو، أعجزته اللغة، وتصاغر قاموسه المعرفي، فلم يعثر للرائحة على اسم أو صفه، مميزة إلى الحد الذي خال معه أنه اشتمها طوال عمره، بينما كان ينظر إلى الشمس.

جذبت خصلاتها تمزقها كي تتحرر من الزِّر الذي قيَّدها، لم يسمح لها أن تهرب، لم يدعها تنفلت. صرخت الفتاة، واستغاثت بالمارة، على إثر صياحها أتت «أنهار» على عجل، بعدما وجدت أبواب الفاخورة مغلقة في وجهها، وصاحبها غائب عنها. حاولت تخليص الفتاة من قبضتيه، كانتا تقيدانها بإحكام، كغريق تعلَّق بقشَّة، فيها آماله والمنتهى.

- «زعفران»، ماذا تفعل؟ اترك الفتاة، «زعفران» اتركها.

اشتدت القبضتان أكثر، رافضًا تركها، جذبتا الفتاة إلى الحد الذي اختلط معه أنفاسهما، فلم يعد يميز أيها شهيقه، وأيها زفيرها.

- «زعفران» أرجوك، الناس تتجمع حولنا، دعها، سيمزقونك، «زعفران».

لم تفلح نداءاتها في اختراق أذنيه، وكأن حواسه انعزلت عن هذا العالم، وحلَّقت في رحاب عوالم مغايرة، ليس فيها سواه، والشمس، والفتاة التي لها شعر طويل كموج البحر، وتفوح منها رائحته هو.

تجمهر رجلان وثلاث نساء، ساورهم الغضب وتملّك منهم الأفهام، كادوا يطيحون به أرضًا، لولا تدخل «أنهار»، التي راحت تخبرهم عن مرضه الذي يمنعه من تمييز الوجوه. لم يقتنع أحد، ظنوها زوجته فأحجموا عن ضربه أو جره إلى أقرب نقطة شرطة.

أفلتت الفتاة نفسها وراحت تركض، بفستانها البرتقالي وصندلها الأخضر! ومن خلفها «زعفران» يقتفي أثرها، تلحق به «أنهار» كي تمنعه من زج نفسه وسط كارثة. تمكنت أخيرًا من الوقوف أمامه، والصياح في وجهه:

– هل جننت؟ ماذا تفعل؟

حشدت نبراته كل توتر نبت على ظهر الدنيا منذ بدء الخليقة، يقول مضطربًا متلجلجًا:

– إنها هي يا «أنهار»، عثرتُ عليها.

– من تقصد؟

– امرأتي، إنها هي.

تلتفت «أنهار» صوب الفتاة التي اختفت للتو داخل أحد الأبنية القديمة، تعود بنظراتها صوب «زعفران»، تشعر بانتفاضة جسده كمن مسّه أحد أقطاب الجنون، يردف بحماس مشتعل:

– إنها هي يا «أنهار»، أعرف.

لم تصدمها كلماته بقدر فزعها لرؤية آثار قليلة من الدماء، تُلطِّخ صدر قميصه ناصع البياض، أشارت صوبها تقول بفزعٍ:

– من أين أتت هذه الدماء؟!

لم يُعِر كلماتها من انتباهه شطرًا، رفع رأسه صوب لافتة صغيرة تعلو المبنى الذي اختفت بداخله الفتاة للتو، يقرأ ما كُتب فوقها بحروف باهتة:

«بنسيون عجَب هانم»!

# (15)
# عجب هانم

فوق كرسي هزاز من خشب الزان، بجوار نافذة طويلة مشرَّعة، تجلس «عجب هانم» مستندة بظهرها إليه، بينما قائمتاها الأماميتان منشغلتين في غزل ثوب من خيوط الصوف.

تُحرك ذيلها الأسود الطويل في هناء بإيقاع ثابت، بعدما تنعَّمت للتو بتناول وجبة دسمة من البساريا المملحة، ولعبت ساعة كاملة داخل أحذية زبائن البنسيون. تحب الأحذية بجنون.

أنهت «عجب هانم» حياكة الغرزة قبل الأخيرة، في الصف الأخير، دون أن تعقد الخيط. تنظر إلى الثوب المكتمل -إلا غرزة- بزهو شديد، لحظات لم تدم طويلًا، تبعتها بفعل عجيب، إذ قفزت فوق البلاط الأبيض المنقط بالأسود، جذبت طرف الخيط غير المعقود، إلى أن انتهى الثوب كجبل من الخيط. تنقض في الليل ثوبها الذي نسجته في وضح النهار، غرزة وراء غرزة، بالصبر نفسه الذي لازمها في حياكته.

حملَت الأرض ثلاث إناث قُمن بهذا الفعل العُجاب؛ أولاهُن خرقاء مكة ناقضة الغزْل «ربطة بنت عمرو»، امرأة من بني تميم، من فِعلها اشتُقَّ المثَل: «أخرَقُ مِن ناكثةِ غَزْلِها»، وقيل عنها في القرآن: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا﴾[1] امرأة حمقاء من قريش، تغزل مع جواريها الثوب من الصوف والشعر والوبر، حتى إذا ما انتصف النهار أمرتهن بنقضه من بعد إبرام، كأنه ما كان، ثم تعود في اليوم التالي لتأمرهن بالغزل والنقض

(1) سورة النحل، الآية 92.

من جديد، وفي فِعلها مضرب الأمثال في الحماقة، وضرب الله بفعلها المثل على نكث العهود والأيمان.

وثانيهُن اليونانية الجميلة «بينيلوب»، التي جسّدها الشاعر الإغريقي هوميروس في ملحمته «الأوديسا»، كانت تنتظر عودة زوجها من حرب طروادة عامًا بعد عام، قالوا مات، وقالوا لن يعود، وقد حاصرها الخُطّاب طمعًا في الزواج، فقطعت أمامهم عهدًا، أن تتزوج ما إن تنتهي من غزل ثوب الزفاف بنفسها، فتنقض في الليل ما تغزله في النهار لئلا يكتمل شرطها أبدًا، وفي فِعلها مضرب الأمثال في الإخلاص والوفاء.

وثالثهن «عجَب هانم»، القطة السوداء السمينة، التي تعيش في غرفة رقم (1)، ببنسيون يحمل اسمها بمنطقة بطن البقرة بالفسطاط. ما إن تُتم غزل الثوب ويكتمل تكوينه، حتى تنقضه بلا وازع رأفة، أو لمحة تدبُّر. تفعل ذلك ضاحكة مُستبشرة! يحتار الرائي في أمرها، هل هي خرقاء كـ «ربطة»، أم مخلصة للعهد كـ «بينيلوب»؟

تجلس إلى جوار النافذة المشرَّعة، التي تطل على شرفة ضيقة دائرية تطوق البنسيون، تُتابع من خصاصها المارة في الطرقات، لا يلتفت إليها أحدهم، حاولَت غير مرة التحدث إلى الباعة الجائلين بمواء طويل، عندما اشتهت التين الشوكي وثمر الدوم، فارتدَّ إليها صوتها بحشرجة آلمَت حلقها، وحرمتها المواء لأيام.

لا أحد يفهم لغتها القططية، سوى صاحبة البنسيون ذات اللكنة الأجنبية، التي عثرت عليها قبل ثلاثة وعشرين عامًا، تحت أنقاض مبنى متهدم إثر زلزال شدوان المدمر 1969م. حملتها إلى البنسيون، ثم حبستها في غرفة مصمتة باردة، حرمتها قبلات الشمس لوجهها العاري، وارتحالها في الشوارع والحارات كقطط الشوارع الحرة، بلا فائدة تعود عليها، ولا رجاء تنتظره منها، سوى أن تغزل ثوبًا بمواصفات خاصة.

أدركت «عجب هانم» أنها قطة مميزة، لا تُشبه الآخرين من بني جنسها؛ تغزل الصوف، وتفهم لغة الإنسان، وتُجيد سرد القصص بمواء طويل نعسان.

أعوام طويلة تنتظر السيدة القصيرة صاحبة البنسيون أن تُنهي «عجب هانم» حياكة الثوب المُنتظَر، تُنفق ساعات عمرها في غزله، إلا أنها مع الغُرزة

الأخيرة، تُعيده سيرته الأولى، خيوط صوفية ثخينة، تتشابك على الأرض بلا جدوى، تمضي ليلة كاملة في فكّها ولفها كبكرة.

لن تسعى يومًا للهرب، ماذا تفعل قطة مثلها في شوارع غير آمنة، تنقب عن الطعام في صفائح القمامة، وتدعسها أقدام الصغار الملاعين، الذين يحلو لهم اللهو بها؟ هذا ما حدث حينما حاولت ذات مساء الهرب، ثم عادت مرة أخرى إلى البنسيون بملء خاطرها، مع جروح غائرة في رأسها وخاصرتها، وكسر مضاعف في قائمتها كلّفها الكثير من الألم، وأجهض رغبتها في الفرار إلى الأبد.

تمر الأيام رتيبة متشابهة، لا جديد سوى استهلاكها المزيد من الأكسجين، للإبقاء على جسد سمين، بشعر كثيف، لا رجاء من وجوده على قيد الحياة، سوى أن تُنهي الثوب المنتظَر.

تعرف «عجب هانم» تمام المعرفة أنها ما إن تنتهي من تنفيذ طلب السيدة، حتى تقتلها خنقًا بيدين عاريتين، أو بسيف يقطع رقبتها مثلما قطع شهريار أعناق زوجاته من النساء المسكينات، اللاتي أتممن سرد القصة، وحدها شهرزاد كانت تملك الحنكة، فلم تنتهِ من سرد حكاياتها حتى أتمت من الليالي ألفًا.

وها هي «عجب هانم» تحذو حذوها، وترفض الانتهاء من الثوب الذي فيه فناؤها.

اشرأب عنقها، تنظر بريبة إلى رجل ذي قميص واسع يقف أسفل النافذة، يرفع رأسه عاليًا، يتطلع إلى نافذتها المغلقة والنوافذ المجاورة. عمَّ يبحث هذا الرجل الغريب؟ أتُراه لصًا يتحيَّن اللحظة الملائمة للسطو على البنسيون؟

تشنَّج جسدها، قفزت من فوق الكرسي، واستلقت فوق فراشها ذي الأعمدة النحاسية، تستهل حياكة ثوب جديد تعرف أنها ستُحرر غُرَزه قُرب اكتماله.

هبَّت من فوق الفراش ما إن سمعت صوتًا قادمًا من الشرفة الضيقة، ثمة من يحاول فتح النافذة المشرَّعة.

أرهفت السمع أكثر، حملت أصيصًا فخاريًا كان مستقرًا على حافة النافذة من الداخل، ثم تسلقت المكرمية المعلقة أمام الستارة البنية، تترقب دخول اللص المتسلل إلى غرفتها.

رأت رجلًا يطل برأسه داخل الغرفة، ثم يقفز للداخل، رفعت الأصيص عاليًا وانهالت به فوق رأسه، بقفزة قططية رشيقة وعفيَّة.

وهناك فوق البلاط المنقوط، اتسعت دائرة واسعة من الدم المفقود.

***

لم ترَ «عجَب هانم» دماء بشرية من قبل، كانت تشعر أنه كذبة يتداولها الأطباء، ويصدقها العامة من الجُهلاء، كيف لجسد من لحم أبيض أو خمري، أسود أو قوقازي، أن يكون وعاءً لمادة لزجة حمراء تُشبه كثيرًا دماء القطط؟

أزعجها أن يتشابه سائل الحياة في عروقها بمثيله عند بني الإنسان، ودَّت لو بإمكانها أن تستبدل به مادة أنقى، وأكثر شفافية، مثل الماء.

ما إن رأت النزيف يتسرب من شج في رأس الرجل المتسطح أرضًا، حتى أخذت شهقة كبيرة هوجاء، قبضت على قميصه بأسنانها المتينة، ثم سحبته بقوتها القططية العجيبة. كان الرجل خفيف الوزن، صغير السن، تكبَّدت مشقة كبيرة في أثناء جره إلى الحمام الصغير الملحق بغرفتها، الذي تفرشه صاحبة البنسيون بالرمل لقضاء حاجتها.

وقفت تلهث، ونظراتها تتبع الخيوط الحمراء في اشمئزاز، تكالبت عليها الرائحة المثيرة للغثيان، بينما تلعق الأرض بلسانها، بوتيرة متسارعة.

لا تملك «عجب هانم» محصِّلة معلوماتية جيدة عن الإسعافات الأولية، تُنقذ بها حياة الرجل الفاقد لوعيه ودمائه، غلب على ظنها أن البُن يكتُم النزف، ويطهر الجرح، هكذا فعلت معها صاحبة البنسيون في اليوم الذي هربت فيه، ثم عادت محمَّلة بالجروح والخدوش والأوجاع. تسللت إلى المطبخ، وسرقت حفنة من البن المحوج بالحبهان.

انتظرت جواره على أرض الحمام، بنبضات مضطربة، في قلبٍ واجفٍ، إما يستفيق، وإما يموت.

# (16)

# دفتر يوميات

ما زال قلبها يرتجف، من هول الموقف المريب الذي تعرضت له، أمسَك بها مجنون بالقرب من البنسيون، رافضًا أن يُفلتها من بين يديه المقيدتين لجسدها بإحكام.

خالته في البداية ضابط شرطة، أو طبيبًا، يزمَع جرّها إلى مستشفى المجاذيب. ثم بدا لها أنه هو نفسه أحد المجاذيب الفارين من المصحة، تملَّصَت منه بصعوبة بالغة، كاد أمرها أن ينكشف للمارين من حولها. «زعفران»، هكذا دعته المرأة التي حاولت تحريرها. لا تعرف رجلًا بهذا الاسم، لا مَلمح فيه مألوف، الأمر الوحيد الذي جذب انتباهها وسط الخوف والرغبة الحثيثة في الإفلات هو الشيء الدائري الملتصق بجبهته، وحمة غريبة في شكلها ولونها وموضعها، بدت لها مألوفة جدًا، كأنها سبق وأن رأت شيئًا مماثلًا، لكن أين؟ لا تعرف الآن، تفلّت ذلك من مرابط الذاكرة.

ربما عندما تسترد هدوءها ستتذكر، أما الآن فما يعنيها هو التقوقع في غرفتها لئلا تجذب المزيد من الأنظار.

- لا تذهبي.

هكذا همس الرجل المجذوب المسمى «زعفران»، بلهفة الغريق الذي يتعلق بآخر قشّة في عرض المحيط، لم يسبق لأحد أن طالبها بعدم الذهاب، الكل حثّها على المغادرة، الكل تمنّى فراقها، حتى أمها التي تثق بحبها، تعرف أنها كانت ترجو في خاطرها لو رزقها الله بفتاة غيرها، لها معدة، تشتهي الطعام، ولا يكرهها أبوها وينفر منها كداء الجرَب.

وربما مال «جمال» أيضًا إلى فراقها، لهذا حال بينهما سد منيع من الحجارة والتراب، ربما ضاع «جمال» مُخيّرًا، لا مُرغمًا.

- لا تذهبي.

ظلّت أصداء كلمات المجذوب ذي الوحمة تتردد في رأسها، تحاول التعديل على صوته الملهوف لتُركّب صوت أبيها، فتبتسم.

استرقت النظر صوب أظفارها، تبدّى في عمقها عند مبتدأ اللحم آثار دماء، طاف بخاطرها ما فعلته قبل ساعات قليلة في الرجل الذي تحرّش بها في الأتوبيس، أسفل الكوبري، بترت كفّيه دون رفّة رمش، ثم غطّت موضع البتر باليود ولفّته بالشاش، وتركت بجواره الساطور. طهّرته من العضو الأثيم، وبات جسده نقيًا الآن، كمُنتج فخاري خرج للتو من فرن الطين، ساعدته بصلاحها وبصيرتها النافذة، على التخلص من شياطينه الرجيمة، ووساوسه الدنيئة. ما أعظم صنيعها، فقط لو يُدرك الناس كراماتها، لعاملوها كما يليق بأولياء الله الصالحين.

ودّت لو تفتح النافذة على مصراعيها، تحدوها رغبة عارمة في معانقة السماء، والأرض، وجميع المخلوقات الطيبة مثلها، لم يسبق لها أنْ بلغَت هذه المنزلة من الرضا عن النفس، وتحقيق الذات، صارت إنسانة كاملة، لم تُخلق هباءً.

لم تجرؤ على فتح النافذة من جديد؛ قبل قليل، قفز قلبها هلعًا عندما تطلعت من نافذة غرفتها لتَرى المجذوب ذا الوحمة، يقف عند باب البنسيون ويسترق النظرات إلى الأعلى، باحثًا عنها، ينتظر أن تطل عليه من واحدة من تلكم النوافذ المغلقة، ليعرف أيها غرفتها.

ودّت لو كانت ردّة فعلها أسرع، فتتنحى عن موضع ناظريه في اللحظة المناسبة. لم تبتعد بالسرعة المرجوة، تأكدت من ذلك عندما مالت بجسدها لتحيد النظر فتقاطعت نظراتهما معًا، ابتعدت منتفضة، تغلق النافذة بصوت صاخب.

لن تجرؤ على فتح النافذة مرة أخرى.

من يكون هذا المجذوب ذو الوحمة؟ لماذا يصر على مطاردتها؟ أيكون أحد الصحفيين الانتهازيين الذين حذّرها المدعو «نزيه الليثي» من مخالطتهم؟ يقف أسفل نافذتها مثل صياد، يأمَل أن تسقط فريسة سهلة في سنارته، كي

يصنع منها خبزًا طازجًا في جرناله، يفطر الناس على حكايتها بجانب الجبن والخبز والحليب.

لن تسمح أبدًا أن تكون خبزًا طازجًا على مأدبة الآخرين.

***

ارتأت أن تُحذِّر السيدة صاحبة البنسيون من المجذوب، لئلا تسمح له بالدخول، لم تجدها عند مكتب الاستقبال، ولا في المطبخ ولا في الفراندة الطويلة الملتفة في نصف دائرة، أين ذهبت يا تُرى؟

طرقت بنقرات هزيلة فوق باب الغرفة رقم (2)، ولمَّا لم تسمع صوتَها، غلبها الفضول، فأدارت المقبض وانفتح الباب.

غرفة واسعة، نظيفة، بسيطة الأثاث، يكتنفها الظلام، الستارة الداكنة مُسدلة أمام النافذة تحجب أشعة المغيب، سرير يتسع لفرد واحدٍ كسرير غرفتها، وشكمجية، وطقطوقة، ودولاب، وتلفاز بالألوان موضوع فوق طاولة خشبية من الأرابسك، وفي الزاوية مقعد خشبي أمام طاولة، تتخذها مكتبًا لأغراضها الخاصة.

فوق المكتب الخشبي ثمة ما ملك انتباهها، وجعلها تستدير عندما كانت في طريقها للخروج. كتب وأوراق ودفاتر يوميات، متخمة بالتفاصيل والملحوظات. مررت نظراتها فوق فقرات كثيفة المعنى، عميقة البيان، لا يجمع بينهما سوى كلمة واحدة مشتركة: الماء!

لا تعرف «عيناء» القراءة، بيَد أنها تحفظ رسم كلمات قليلة مهمة، مثل عنبر، وحمام نساء، وفاخورة، وماء.

على ذِكر الماء شعرت بالعطش الشديد، تنامى إلى أسماعها صوت خشخشة بالقرب من الممر، فانتفضت كالملسوعة تطفئ اللمبة السهَّاري، تغادر الغرفة، وتغلق الباب.

توقفت عند الحوض في نهاية الممر، تصنع من كفِّها وعاءً، وتَعُب الماء الجاري بشراهة، تقطَّعَت على إثرها الأنفاس.

عادت إلى غرفتها بجمل من الفزع، يفوق ما كانت تحمله عندما فارقتها قبل قليل، السيدة صاحبة البنسيون، ماذا تُدوّن في هذه الأوراق؟ ولماذا ذكّرت الماء في ملحوظاتها بهذه الكثافة العددية؟

أخرجت من أسفل فستانها البرتقالي دفترًا أخذته من فوق المكتب، قبل مغادرتها للغرفة على عجل. لا سرقة محرمة، بل استعارة جائزة في قاموس فضولها الذي لا يهدأ.

ما زالت العبارات غير مفهومة، مكتوبة بعربية فصيحة، أرقام ومعادلات، بيانات وإحصاءات، كأن صاحبة البنسيون تجري تجربة!

أغلقت دفتر يومياتها، وتساءلت بصوت خفيض، وفضول يكفي ويفيض:

- ماذا تُخفي السيدة صاحبة البنسيون يا تُرى؟

# (17)

# اشتباك

«القلق»، هذا ما كانت لتُجيب به «أنهار»، إن سألها سائل: ما هو المرض الأشرَس في عصر العَولَمة؟

التلفاز، والجرائد، والسينما، والمسارِح، وحتى الكتب، هي في ظاهرها مُلهيات يتشافى بها الإنسان من القلق، بينما في جوهرها، المعمل الذي يُخلّق القلق في محاضِن خاصة، تُعشش في نفوس الإنسان الحديث.

القلق سرطان الروح، يدفعنا للهرب من الماضي، والزُّهد في الحاضر، والخوف من ملاقاة المستقبل، هو ما يجعلنا نُسقِط أيام العمر كأوراق الخريف، بين أسَف وندَم.

القلق هو ماكينة الأفكار المسمومة، التي تتفشى في عقل الإنسان، تصنع له خيوطًا تنتهي بخُطافات، وتُحركه حول أصابعها مثل عروس الماريونيت.

القلق حيوان قارض، يتغذّى على روح «أنهار»، تقيم لأيام متتابعات في مكتبها بالجرنال، متعمدة الانغماس في العمل، هربًا من البيت ومن فيه. محادثة هاتفية من أمها صباح اليوم، ممتلئة بالصراخ والغضب، ستضطرها إلى العودة إلى البيت، الذي لم يعد مسكنًا آمنًا، بعدما احتلّه هذا الحقير.

- هل أنتِ واثقة أنكِ ترغبين في قصّه كله؟

- نعم، لا تُبقي إلا القليل.

ألقت الكوافيرة سؤالها مرتين، ربما لأن الـ «ألا جرسون» قصة شعر جريئة، غير منتشرة كثيرًا في الأوساط العربية. تتابع في المرآة الكبيرة أمامها كل خصلة تتساقط أرضًا أسفل قدميها، ظلت الكوافيرة تجز الشعر عن رأسها، حتى طالعها في المرآة شعرها القصير جدًا، كالرجال.

واعية لما تفعله، ولأسبابه، وللهدف الذي تريد أن تبلغه. لديها قناعة راسخة أنها ليست بحاجة إلى الآخرين للاستشفاء، وأنها قادرة على ترميم نفسها بنفسها، صحيح أنها لم تنجح طوال هذه السنوات، لكن على أي حال، لن يقدم لها أحدٌ أكثر مما قدمته لنفسها، لن يبذل جهدًا أكثر، لن يملك حلًّا أنجع.

لم تكن مجرد قصة شعر جريئة، بل تأكيدًا لاستقلاليتها، واستمرارًا في التنصل من أنوثتها. الأنوثة ضعف وهشاشة وقلة حيلة، إبرازها مجلبَة للجشع والانتهاك والاستباحة.

لم تجد والدتها في البيت بعد الظهيرة، الهجر إحدى طرقها القاسية في العقاب، لكنه الآن عقاب أكثر شراسة مما كان قبلًا، إذ إنها وحدها مع «شكري» تحت سقفٍ واحد.

كان خارجًا من الحمام، يحمل منشفة فوق رأسه، عندما تلاقيا في منتصف الصالة، فتجمدت في مكانها، لم تبرَح.

تأمل قصَّتها الجديدة، من دون أن يُبدي ردة فعل، أو يستطرد معقبًا. بادرها:

- صباح الخير يا «أنهار»، أم أقول مساء الخير بما أن الساعة تجاوزَت الثانية عشرة ظهرًا؟ أعرف عنكِ ولعكِ بالدقة، لم أكن أعلم أن عملك في الصحافة مُرهِق إلى هذا الحد، خالتي غضبانة عليكِ لغيابك المستمر، لكن لا تقلقي، أثق أنكِ ستُطيبين خاطرها كما تفعلين دومًا.

رمَت نظراتها فوق الجدار، والسجاد، والسقف، طافت في كل مكان إلا وجهه، يستفزها وجوده الثقيل الجاثم على أنفاسها، وإن لم ينطق بحرف، فكيف وهو يُسمِعها سيلًا من الكلمات عن حياتها التي لا تخصه.

أردفَ بابتسامة رحبة:

- لا تتعجبي، حتى وإن باعدَت بيننا المسافات وحالَت بيننا السنون، أعرفكِ أكثر مما تتصورين، خالتي لا تتوقف عن الحديث عنكِ.

الشيء الذي أحبَّت أن تفعله في هذه اللحظة، أن تخلع نعلها وتُلقي به في وجهه، ثم تبصق في مواضع خطواته، ثم تسحبه لتطرده خارج البيت.

مغمورة في العجز هي، لا تستطيع أن تفعل أيًا مما اشتهَت، وإلا لتساءل الجميع عن السبب، وهي لا تستطيع أن تبوح بالسر.

لماذا قررت أن يكون سرًا من الأساس؟ لماذا لم تتحدث من اللحظة الأولى التي وقع فيها هذا الحادث الكريه؟ لماذا صمتت طوال هذه السنوات بينما روحها تتهشَّم وحيدة في غرفتها كل ليلة؟ لماذا اختارت أن تتألم في السر، بينما هو منطلق في حياته، راضٍ، وسعيد في العلَن؟

عليها أن تعترف أنها تخاف، تخاف إن أفصحَت ألا يصدقها أحد، أو أن يتهموها بأنها واسعة المخيلة، أو في أحسن الأحوال يستخفُّون بمصابها، لمسك؟ آوه، ظننا أنه شيء أكبر، على الأقل لم يتجاوَز الخط الأحمر! تخاف أن يقول أحدهم: إنها مجرد لمسة. جاهلٌ بأن هذه اللمسة استباحَتها، ووأدَتها في عمر العاشرة.

لألمها التهوين أو التكذيب، بأكثر مما تنخر روحها تلك الحادثة.

هاجت حمم البركان بداخلها، شحنَت نظراتها بعواطف مكثَّفة، قاسية، ثم سددتها بقوة إلى وجهه، تستجوبه عن الماضي الذي لا ينام، ومنبع الجرأة الكافية ليتحدث معها متجاهلًا ما فعل.

نظراتها لا تقرأ وجهه فحسب، بل تُشرّحه كذلك، تُباعد الجلد والعروق وتعبُر، تفحص وتُدقق وتُحلل، حتى أنهكها الجُهد، وانغمر جبينها بعرَق المشقَّة. نظراته الخالية من خِزيِ الفِعل، وعار الموقف، ابتسامته الهادئة، نظراته الودودة المرحة، كلماته غير المتكلِّفة، كل ذلك رسَّخ في أعماقها نتيجة واحدة: لقد نسي!

كاد أن يطيش صوابها، كيف له وهو الجاني أن ينسى، وهي الضحية لم تغفَل؟ لماذا وقع عليها الظلم مرتين، عندما فعَل، وعندما نسي أنه فعل؟ لماذا يتنعَّم هو بالجهل، بينما هي تتلظَّى فوق نيران المعرفة، كجمرة تؤلم وتتألم؟

غمرها طوفان الأسئلة، حتى تقطَّعَت فيها الأنفاس، وضاقت عليها الأرض بما رحبَت، احتشدت العبرات في مقلتيها، فتحرَّكَت كالطلقَة صوب غرفتها، تحبس نفسها، وتغلق الباب بالمفتاح.

الطرف الأجبَن، دومًا هي الطرَف الأجبَن، مهما تظاهرَت أنها «أنهار» الشجاعة التي لا تهاب الموت ولا الحياة.

نعم، لا تهاب الموت، ولا الحياة، لكنها تخاف المواجهة، تكرهها كما تكره أعياد الميلاد، وكيك البرتقال، والفساتين البيضاء ذات الورد الأزرق، والأفكار الشرسة التي تخمش رأسها طوال الوقت.

أما «شكري» فظل مكانه بغير حراك، يرنو إلى باب الغرفة المغلق في وجهه واجمًا، شعر بها تحترق ذاتيًّا بغير دخان، ومن أعماقها تتصاعد أبخرة ملتهبة، حتى وكأنه لمَح الحمم تحتشد في عينيها، قبل أن تصفع الباب في وجهه. لا يفهم حالها الذي بدَّلته السنون، ولا الدافع لكل هذا العصيان، والتمرد، والتنكر لكل عائلتها، حتى هو، شريكها في اللعب ومانح الهدايا الجميلة. يتذكَّر بشكل طفيف آخر لقاء جمعهما، ذكرى مشوشة، وتفاصيل ممحوَّة بفعل المواد المُخدِّرة!

ليلة نازَله الشباب في معركة قوة، وإثبات رجولة مزيفة، اجتذبته نداهة التجربة، فأثبَت أمام أقرانه أنه قادر على ارتشاف مواد خبيثة، تُذهِب بالعقل وتُلهِب المُخيِّلة.

لا يتذكر من تلك الليلة البعيدة، سوى أصوات موسيقى عيد الميلاد في بيت خالته، تدُق كالمطارق فوق رأسه، ورائحة البخور الخانقة، والشرفة التي هرب إليها ليأكل من شجرة الجميز المعمرة.

لا شيء قبل ذلك أو بعده، فقط صور مشوشة لا تتجمع في ذكرى ملموسة، أو عاطفة محسوسة. وعندما صفعه أبوه صباحًا وأخبره أنه جذبه في اللحظة الأخيرة من فوق السور، قبل أن يقفز ظنًّا أن عروس البحر تناديه كي يسبَح معها، لم يُكرر نزال الرجولة الزائف بعدها، مرة واحدة كانت كافية ليُدرك أنه ليس أهلًا لها.

وقف ينظر إلى الباب المغلق في وجهه بقوة كادت أن تُزلزل الجدران، لسنواتٍ تساءل عن سر القطيعة التي بدأتها «أنهار» في عمر صغير، الآن بات شك قاتل يتربَّع فوق صدره، ويسحق أنفاسه، ويتركه تائهًا حائرًا.

دفنَت «أنهار» وجهها في وسادتها وصرخت بطاقتها القصوى، صرخات مكتومة، غير مسموعة، لا شاهِد عليها، ولا شفيع لها.

مفلِتة لعبراتها العنان.

***

لقد وجد المرأة التي يبحث عنها، لماذا لا يصدقه أحد؟

صحيح أنه لا يتذكر اسمها، أو تفصيلة واحدة عن حياتهما معًا، ورغم مرضه الغريب الذي أسماه الطبيب بـ «عمى الوجوه»، تبين قسماتها بوضوح، حتى إنه قط لم ينسَ رائحتها!

طرقات على الباب، قاطعَت خطواته المحمومة داخل غرفته باللوكاندة، رأى على بابه امرأة لم يميز وجهها -كعادته- شعرها قصير جدًا، ظن أنه لم يلتقيها قبلًا إلى أن بادرته بوهن:

- أنا «أنهار»، وقبل أن تسأل، لقد قصصت شعري.

أبدى تبرمًا ملحوظًا على مظهرها الجديد، الذي جعلها مع البنطلون الباجي والقميص الواسع أشبه بصبي في عمر المراهقة.

- لماذا تأخرتِ؟

دخلت بهدوء، بدا عليها الإرهاق، هكذا شعر من صوتها إذ قالت:

- كان يجب أن أمر على البيت أولًا لأبدل ملابسي، هل أنتَ بخير؟

- لستُ بخير أبدًا، بينما أنا هنا في هذا المكان البائس، امرأتي في مكانٍ آخر، أريد أن أذهب إلى البنسيون الذي تقيم فيه، «بنسيون عجَب هانم»، هكذا كُتِب على اللافتة، الآن من فضلك يا «أنهار».

- «زعفران»! ظننتكَ ستتوقف عن هذا الجنون.

- أي جنون؟

- هذا الذي تقوله، المرأة لم تتعرَّفك، لقد صرخت تستنجد بالمارة كي يخلصونها من بين يديك، لو كانت زوجتك أو خطيبتك أو حتى حبيبتك لماذا تتنكَّر منك إذن؟ أمَا كان من البديهي أن تبادل عاطفتك المُلتهبة بمثلها؟ المرأة كانت خائفة منك يا «زعفران»، يرتعد جسدها فزعًا، ألم ترَ وجهها؟

طوَّحت بكفَّيها، ثم أردفَت بحدة ساخرة:

- بالطبع لم ترَ وجهها، ليس بإمكانك أن ترى أي وجه بسبب مرضك اللعين، ثم تقف هنا تدَّعي أنك عرفتها! كيف عرفتها وأنت حتى غير قادر على تمييز وجهي الذي رافقك لأيام؟

بوغت بهجومها وارتعادة صوتها والاندفاع في كلماتها. أخبرها عن الوجه الذي رآه في قاع البئر ببيت الكريتلية، وعن قسماتها التي استطاع تمييزها رغم مرضه اللعين كما تصفه، فما زادها هذا إلا سخرية منه، وحدة عليه.

- ألم تفكر أن هذا ما يُسمى «زراعة الأفكار بالإيحاء»؟ لقد رأيتَ الوجه المزعوم مباشرة بعدما حدَّثتك عن الأسطورة، وكنت قريبًا جدًّا من الفتاة بحيث يستحيل حتى مع مرضك ألا ترى ملامحها، لقد جمع عقلك المعلومات وخدعك ثانية.

أدرك أنها تتحدث بمنطق معقول جدًّا. رغم ذلك قال باقتضاب، ونبراته تتستَّر على غضبٍ متنامٍ بداخله:

- أعرف رائحتها.

- هل تستخدم كولونيا «خمس خمسات»؟

- ليس عطرًا اصطناعيًّا، رائحة طبيعية، كالبحر، كنسيم الحدائق، كالجلد، أعجز عن تسميتها، لكنني أعرفها جيدًا.

- هذا ولا الأفلام، قل شيئًا مقنعًا يا رجل.

- أقول الحقيقة، ولا يهمني إن بدَت للآخرين غير مقنعة.

- رائحتها! هل تعرف بماذا يُذكِّرني ذلك؟ بالفيرمون الذي تُطلقه أجساد الحيوانات ليجذِب بعضها بعضًا في موسم التزاوج، نداء طبيعي يعني، يبدو أن تلك التي تقول عنها امرأتك تملك واحدًا.

- لا تتجاوزي حدودك يا «أنهار».

- أترك عملي لأطوف معكَ في الشوارع والمستشفيات أملًا في العثور على امرأة كالدخان لا دليل مادي على وجودها، ثم يوهمكَ عقلك أنك عثرت عليها عندما تصطدم كتفك بامرأة عابرة في الطريق، وكيف عرفتها؟ رأيت وجهها في بئر بيت الكريتلية، بعدما أخبرتك بهذه الأسطورة

السخيفة عن رؤية الناس لوجوه أحبائهم! وكيف عرفتها أيضًا؟ من رائحتها، يا للرومانسية!

- لم أطلب منكِ مرافقتي في البحث، لم أطلب منكِ شيئًا.

- أنا التي فرضتُ نفسي؟ أهذا ما تريد قوله؟

- لا أقول ذلك، أنا ممتن لمساعدتك، وأعتذر عن المشقة التي سببتها لكِ، لكن لن أسمح لكِ بالكلام عنها بهذا الشكل، إلى هنا و...

- توقف، لستَ بحاجة إلى استكمال عبارتك، حظًا موفقًا يا «زعفران».

خالَته سيعتذر عن حدَّته، وإهانته، وتمسُّكه بامرأة لا وجود لها، في حين أنها هنا، موجودة، ومجروحة، ويائسة، تخاف كل شيء، وكل أحد، إلاه. تكره البيت، والجرنال، والشوارع، والجدران، حاضرة هنا تلتمس في وجوده رفقة تؤنس وحشتها، وتُعيد إليها ثقتها الضائعة، في الناس، والحياة، وفي نفسها.

إنها هنا لتستمد منه القوة على المضي قدمًا، والقدرة على المواجهة، التي تعجز عنها وتمنع جروحها من الالتئام، إنها هناك لتشفى من طوفان الأفكار الذي يجرِّف حياتها.

ما إن أنهَت عبارتها حتى ساد صمت ثقيل لزج، يُزاحم فراغات الغرفة. أولاها ظهره، ثم غادر، تاركًا إياها وحيدة بلا كلمة واحدة، أغلق الباب ببرود، شعرت به كصفعة على وجهها.

وقلبها.

***



# (18)

# ثوب واحد يتسع لجسدين

غرزة وراء غُرزة، بخيط نبيذي اللون، فوق كرسي خشبي هزاز، بجوار نافذة طويلة مشرَّعة على السماء.

غُرزة وراء غُرزة، كما تتجمع الحروف لتُشكل كلمة، ومن الكلمة تتكون جملة، ومن الجملة تتخلَّق فكرة، جلست «عجب هانم» متخمة بالأفكار العجيبة، عن الحياة والموت، والزمن والتاريخ.

لم تجد آذانًا مصغية، لتغرف الأفكار من رأسها وتسكب، لم يسبق لأحد أن جرؤ على اقتحام وحدتها، قبل اللص المتسلل المنبطح فوق أرض الحمام، حتى زبائن البنسيون، يجفلون إذ يرونها، وتشمئز أنوفهم من رائحتها، وآثار مخالبها فوق المقاعد.

غرزة وراء غرزة، هكذا تُنتفق العمر في رتابة مميتة. بلغَت الغرزة قبل الأخيرة، مرة أخرى، بسطت الثوب فوق الحصيرة، مكتمل -إلا غرزة-، له ضعف الأذرع التي يملكها إنسان، ومنفذ كافٍ ليخرج منه رأسان، وباتساع كافٍ ليحتضن صدرين وبطنين، وأربعًا من السيقان، هذا هو الثوب الذي أرادته صاحبة البنسيون، باختصار: ثوب يتسع لجسدين!

أي جسدين؟ بالطبع، جسدهما معًا!

لم تخبرها يومًا عن السبب الذي أرادت من أجله هذا الثوب العجيب، الذي سيجمعهما في اتساع واحد. رفضت أن تمنحها واحدًا، عاندَت، وتمرَّدَت، وتلذذت بإفشال خطتها، وعدم تحقيق مطلبها الوحيد، ربما لأنها لمحت في عين السيدة الغدر، وقطفت من فوق شفتيها الوعيد، تشعر أن في اكتمال

الثوب فناءها، ستفقد الحياة، من الوريد إلى الوريد. وكانت «عجب هانم» متشبثة في الحياة، بمخالبها وأنيابها.

التقطت طرف الخيط بقائمتها اليُمنى الأمامية، وبغير تردد قضت الثوب عن بكرة أبيه، تكوَّم الخليط كالجبل فوق البلاط المنقَّط، متشابك، ومعقَّد، كقدرها المحبوس في غرفة منسية.

تفتح «عجَب هانم» باب الحمام، تُلقي نظرة على الرجل الفاقد لوعيه، تتحسس نبضه، ومخارج أنفاسه، من الجميل وجود كائن بشري داخل دائرة إحساسها، تستقبل وتيرة أنفاسه، وخفقان قلبه كذبذبات واضحة في رأسها. تغلق الباب، تفترش الأرض بجوار جبل الخيط، تُفتِّش عن أحد الطرفين، ثم تبدأ في تنظيمه حول نفسه، في بكرة تُسهِّل عليها غزل الثوب من جديد.

تُفكر في «ربطة» حمقاء مكة، و«بينيلوب» اليونانية الوفية، كل منهما نقضت الثوب لسببٍ في نفسها، أخفته الأولى، وأفصحَت عنه الثانية.

بغتة، ينفتح الباب، وتدخل صاحبة البنسيون، يلتقط أنفها العطر الذي ينبعث من الرجل الفاقد لوعيه، ترمق وجه القطة في شكٍّ، تستريب، تتركها تنضج قليلًا فوق نيران القلق، ثم تقول بصوتٍ رهيب:

- هل دخل أحد هنا؟

تُجيبها بمواء طويل:

- ضلَّ صبي النجار طريقه إلى غرفته.

- هل قال لكِ شيئًا؟

- وهل يتحدث إلى القطط إنسان سَوي؟

تلين قسماتها، تضع فوق الطاولة الصغيرة برامًا صغيرًا من الفخار. ترتجف «عجب هانم» في الزاوية، تتذلل لها في رجاء لائمة:

- أرجوكِ لا تفعلي، ليس اليوم، ألَم تَملي؟

لا تند عن السيدة المكتنزة بادرة استجابة، أو رغبة في الاستماع. تهذي «عجَب هانم»، تحاول إقناعها، ثم إخافتها، ثم تعود لاستجدائها، ثم تتوعَّدها. تجذبها السيدة إلى الفراش، فتنساق مرغمة، لا قِبل لها على المقاومة. تُجلسها

فوق الملاءة البيضاء، تفتح فمها على اتساعه، تُثبت رأسها، ثم تعجن في كفها كرة من الشطة الحمراء المهروسة، تُقحِمها عُنوة في فمها، تقول:

- هذا سيغلب عنادك، ويدفعك إلى غزل الثوب.

تصرخ «عجب هانم» من فرط الألم، النار تشتعل في فمها، تستنجد بالفراغ، والهواء، والجماد، فلا يُلبِّي لها نداء. تقفز إلى الحوض في آخر الممر، تعب الماء من الصنبور، حتى لم يبقَ في أحشائها فراغ يتسع للهواء.

تبكي «عجب هانم» من فرط الخوف، والمذاق الرهيب، والشعور بالإذلال والتنكيل. تعود إلى الغرفة، تستقبلها صاحبة البنسيون بالوعيد:

- الثوب هو طوق النجاة الوحيد الذي سيُنقذك من التعذيب.

تقف «عجب هانم» على قائمتيها الخلفيتين، تزم شفتيها، تهز شاربيها، وتُحرِّك ذيلها في سخط. تقول في عناد:

- لن أغزله أبدًا.

تخر صاحبة البنسيون على قدميها أمام القطة الممتعضة، تبكي كطفل في السادسة، تتوسلها مرغِّبة، بعدما فشل سلاح الترهيب:

- سآتي لكِ بكل ما تشتهين من البساريا المملحة، وسمك التراوت، والسلمون المرقط، والبطاطا المهروسة، والدجاج المخلوط مع القرع، سأشتري لكِ طوق رقبة مزينًا بالزمرد الأخضر ودواءً مستوردًا مضادًّا للبراغيث. ما أريده هو شيء واحد فحسب، شيء بسيط جدًّا.

حركت «عجب هانم» رأسها في عناد، خمشت البلاط بمخالبها، ثم قفزت فوق جبل الخيط تدهسه، ومنه إلى الفراش النحاسي، تدس جسدها المشعر داخل الغطاء، تُصدر صوت خرخرة نغمية، تُعرب عن رفضها الحديث مع السيدة الجاثية.

تفشل السيدة في السيطرة على القطة، وإجبارها على تنفيذ رغبتها. تخفق ككل المرات السابقة.

ومن فتحة صغيرة لباب الحمام، يراقبهما الرجل الذي استعاد وعيه للتو، بعينين متسعتين مِن هَول ما يشهَد، يُكابِد قلبه الفزع بعَجول الدقّات.


ساحر الكتب

# (19)
# اللقاء

تهادَت الشمس في مروج السماء، تُرسل أياديها الحانية من خصاص النافذة، توقظ «عيناء» من نومٍ عميق، تحثها على الإسراع لقراءة الجرنال. قفزتْ من الفراش، تتحسس قدميها موضعهما في الممر، لئلا توقظ نائمًا، أو تُضايق مُستريحًا، فينصب عليها تبكيت السيدة التي تسير كالبطريق. فوق الطاولة الصغيرة في الردهة رأت حزمة من ثلاث جرائد مختلفة للعدد الصباحي. تصفحت أولهم بحماس، وثانيهم بتوجُّس، وثالثهم بابتهاج، إذ عثرت فيها أخيرًا على الخبر المنشور، في مستطيل صغير بصفحة الحوادث.

إذ كانت تحفظ رسم كلمات مثل: حوادث، جريمة، وكبرى. رأت صبي النجار جالسًا إلى طاولة المطبخ يتناول فطوره مدفوع الأجر، بيضة مسلوقة، وملعقتين من مربى التين منزلية الصنع. طلبت منه قراءة الخبر الذي غلب على ظنها أنه يتحدث عنها.

*«جريمة مروعة في وضح النهار»*

**بقلم: سامي منصور.**

***لقي رجل ثلاثيني بالأمس حادثًا مروعًا في قلب القاهرة، نُقِل على الفور إلى المستشفى، واتُّخِذت الإجراءات اللازمة.***

***تلقى رئيس المباحث الجنائية لقطاع غرب إخطارًا من إدارة شرطة النجدة، بالعثور على رجل مبتور الكفين، وكانت أداة الجريمة ساطورًا حادًا عُثر عليه في مكان الواقعة، انتقل رجال المباحث إلى محل البلاغ، وفرضت الشرطة طوقًا أمنيًا على المنطقة للمعاينة، وتتولى النيابة التحقيقات.***

تراقصت البسمة فوق شفتيها، تنطق بفخر عظيم؛ طهَّرت الرجل من الإثم، دون المساس بحياته، سارت بين الناس خِضرًا جديدًا، تُلبي نداء الصوت الذي يسكن رأسها، بأمرٍ من ربها، الذي حسبته زميلتها في العنبر صوت شيطان رجيم، وزعم الأطباء الملاعين أنه وسواس آثيم. ها هي تثبت مهارتها، وتُبرز قدراتها، التي لطالما كانت محل شك وتحقير.

تقهقرت بسمتها، وحلَّ محلها الارتياب:

- ماذا إن كان هذا حظ المبتدئين؟ لا أستطيع المخاطرة بحياة أبي، يجب أن أتمرن أكثر، وأطهِّر حيوات أكثر، نعم، هكذا تفعل الابنة الصالحة، والتقيَّة صاحبة الكرامات.

كأغلَب نهارات البنسيون، كان صباحًا هادئًا، بوتيرة وقورة. في البدء خرج صبي النجار ساعيًا على رزقه، ثم تبعته صاحبة البنسيون، لتجلب من السوق القريبة فطورها المعتاد؛ فول بالزيت الحار، وطعمية بالسمسم، وباذنجان مخلل، وجرجير.

ارتأت أنه وقت مثالي لإعادة الدفتر، قبل أن تنتبه صاحبته لفقدانه. كانت قد فشلت في فهم حرف واحد. لعنت حظها الذي جعل منها فتاة جاهلة.

قبل أن تتمكن من العودة إلى غرفتها لإحضار الدفتر، انفتح باب الغرفة رقم (5)، وقفت في بداية الممر تترقب بفضول، لا بُد أن نزيلًا جديدًا سكنَها بالأمس، لكان من الرائع أن ترى امرأة من عُمرها نزيلة في البنسيون. خبَت حماسها ما إن رأت هيئة ذكورية تغادر الغرفة، قذفت بالفزع إلى صدرها؛ لم يكن النزيل الجديد الذي اختار أن يجاور غرفتها سوى المجذوب ذي الوحمة!

تلاقت أعينهما بصمتٍ طويل، لا يقطعه سوى دقَّات الساعة المستديرة فوق الجدار، وقطرات الماء التي تُنقِّط في حوض الممر بوتيرة بطيئة.

عقارب الساعة، قطرات الماء، وقلبها الذي انتفض، لا صوت يعلو فوق ثلاثتهم. تخشَّبَت قدماها، وتبدَّلَت هيئتها، يُنغزها الخوف، وتقرضها الحيرة. الطريق الوحيد إلى غرفتها يمر بجواره، فماذا إن تهجَّم عليها من جديد، وهي وحدها معه، تحت سقفٍ واحد؟

لم تسنح لها الفرصة لاتخاذ قرار، بادر هو بالتوجه نحوها، بعزمٍ وإصرار. ألصقت ظهرها بالجدار، تأمل أن يمر أمامها في سلام، غير عابئ بها كأنها نفحة هواء، أو ذرة غبار. توقف قبالتها بأنفاسٍ لاهثة، يفصل بينهما ثلاث

خطوات، يتفحَّص وجهها، أو بالأحرى، يعانقه، بعينين تقطران شوقًا، لم يسبق لرجلٍ أن رانَ إليها بنظراتٍ دافئة، مُقتَحِمة، ومُصممة.

شيئًا فشيئًا، انسحبت جحافل الخوف من ساحات صدرها، وتقدمت الحيرة إلى الصفوف الأولى، تترأس كل المشاعر المتباينة، لماذا يسترق النظر إلى تقاسيمها كأنه يرى بشريًا للمرة الأولى؟ ألم يسبق له أن أبصَر امرأة؟ شعرت أنه يفتِّش في وجهها عن عُمر مفقود، وأكوان ضائعة.

- أتذكُرينني؟

صوته يحمل الصفات ذاتها التي تُثمرها نظراته: دافئا، ومقتحمًا، ومصممًا. يُحادثها كأنه يعرفها منذ مائة سنة، بل ألف سنة، كأنهما أفنَيا معًا أعمارًا مديدة، وحيوات عديدة، يومًا فيوم، وثانية فثانية.

ازدردت ريقها، تُلملم شجاعتها لتقول بصوتٍ مضطرب:

- لا أعرفك!

- هل أنتِ واثقة؟

الألم الذي تسلَّق نظراته، والحيرة التي طافت بوجهه لتستقر أخيرًا عند جبينه، حول الوحمة، فيتجعَّد، دفعتها لأن تقول بقوة أكبر:

- لم يسبق لي أن رأيتك، لعلك أخطأت بيني وبين أخرى تُشبهني.

أحسَّ في قلبه غصَّة أمرّ من العَلقَم، تهدَّلت كتفاه بغتة، كلماتها حمل ثقيل طُرح فوقهما. لا تنسَ «عيناء» وجهًا قط، هي على يقين أنها لم يسبق لها رؤيته، كيف وأين ستراه؟ عاشت عمرها كله في سجن أبيها، ثم انتقلت منه إلى سجن المصحة، لم تملك الوقت الكافي، ولا تعرف المكان المناسب، لتلتقي رجلًا مثله، يُشبه أبطال الحكايات، وفرسان الأساطير.

- أساسًا أنا مصاب بـ «عمى الوجوه»، لا أراها بوضوح.

هكذا أجابها دون أن يستفيض في البيان، فاستشكل عليها فهم مقصده، ولم يكن يعنيها كثيرًا أن تفهم، كل ما أرادته العودة إلى غرفتها بلا خسائر، وأن يتوقف عن إزعاجها بأسئلته العجيبة. قيَّدها الجُبن عن الفِعل، خافت أن تأتي بحركة تستفز فيه الجنون النائم برأسه.

كرر المحاولة، هذه المرة وهو يشير إلى قسماته:

- تأمليني جيدًا، لا بُد أنكِ تعرفين هذا الوجه.

استفزها إصراره، فقالت محتدة:

- لماذا يجب عليَّ أن أعرفك؟

نعم، لماذا؟ لا إجابة مُبرِّرة في رأسه يستطيع أن يمنحها، والإجابة الوحيدة التي يملكها عجيبة وغير منطقية، هل يقول لها إنه رأى وجهها في بئر مسحورة خالية من الماء؟ أم إنه عرفها من الرائحة؟ حتى هذه لا يستطيع وصفها، أو كتابة تعريفٍ مُفصَّل لها، شيء أشبَه بفرمون الحيوانات الذي تحدَّثت عنه «أنهار».

- لأنكِ... زوجتي.

كان لوقع كلمته على أذنيها أثر مدوٍّ، هذا الرجل ليس مجنونًا فحسب، بل حالة حرجة من الإيمان بالضلالات، تمامًا كما كان يتهمها طبيب المصحة.

كيف يكون زوجها؟

لا شيء فيه يشبه «جمال»، «جمال» كان رجلًا يسير على هامش الحياة، شفاف، لا يلفت الأنظار. أما الرجل الواقف أمامها له هيبة مدروسة، وقوة محسوسة، وجاذبية تُقطِّر من صوته وعينيه. فقط لو يتوقف عن النظر إليها بتلك الكيفية، لكان بإمكان ساقيها التماسك أكثر، والانطلاق بها صوب غرفتها، تغلق في وجهه ألف باب وباب.

لا شيء فيه يُشبه «جمال»، «جمال» كان دوبليرًا، وهذا الذي أمامها عنوان أسطورة، وقائد معركة، ووريث عرش، واضح كالشمس، لا يُمكن إغفاله، وهي لا تخشى أشرار الحكايات بقدر ما تهاب أبطالها.

هذا الرجل يتوهَّم، وهي لا تستطيع الانغماس معه في هذا الجنون، أذعنَت للصوت الذي يُنادي في رأسها يحثها على الفرار، انطلقت بغتة صوب غرفتها، دون أن تجيبه بكلمة، وقبل أن تغلق الباب، كان واقفًا معها بداخلها، يغلقه بنفسه من الداخل، بالمفتاح.

***

- لا تخافي.

حضَّر الخوف بنفسه، والآن يطالبها بطرده، كيف تفعل؟

كانت خائفة، أكثر مما شعرت به يومًا، وأكثر ما يفزعها أن تضطر إلى اللجوء للبوليس للتخلص من هذا المجنون، فينفضح أمرها، ويجرونها إلى المصحة، أو الأسوأ، يكتشفون قطعها لكفّي الرجل بالأمس. مؤكد أن القاضي ووكيل النيابة وكل الناس سيعجزون عن فهم دوافعها النبيلة، ستتقلص عقولهم عن محاولة استيعاب الهدية التي منحتها للرجل ببتر كفّيه، سيلقونها في غياهِب السجن، سجن حقيقي هذه المرة، ممتلئ بالأوغاد والأشرار، المعجونة أجسادهم بالخطايا والشهوات، ستدور في فلك الظلال من جديد، ما أبأس حظّك يا «عيناء».

- ماذا تريد مني؟ أرجوك، اتركني وشأني.
- لماذا تخافينني؟
- ولماذا لا أخافك؟
- هل كنتِ معي تحت أنقاض عمارة الموت؟ ألهذا السبب فقدتِ ذاكرتك أنتِ الأخرى؟
- ذاكرتي في رأسي مكتملة كأشد ما يكون العقلاء، أحذرك إن لم تخرج الآن سأصرخ بكل قوتي وأجمع الجيران هنا في الغرفة، أنا امرأة متزوجة.
- وهذا ما أقوله، أنتِ زوجتي.
- لستُ زوجتك، أنا زوجة «جمال».
- هل اسمي «جمال»؟
- يا مُثبِّت العقل والدين، ما شأني باسمك، أنا أخبرك عن زوجي، اسمه «جمال».
- أنا هو، لكن ذاكرتي مفقودة.
- أنت لست هو، أنت لست «جمال».

قالت عبارتها الأخيرة وهي تصرخ مُستجيرة، انتفخت عروق رقبتها، تيبَّست عضلاتها، ارتجفت فيها الأطراف. ولم يكن في حالة أفضل منها، بدا محطمًا، كأن عمارة الموت انهارت فوقه مرة أخرى، هذه المرة كانت أشد من سابقتها.

قال وكأنه يخاطب نفسه:

- لا بُد أنكِ فقدتِ ذاكرتكِ، وإلا لتعرفتِني على الفور، لا تفسير منطقي آخر، انظري، ربما لسنا متزوجين، قد نكون حبيبين، أو ربما صديقين، المهم أن ثمة علاقة قوية تجمعنا، هذا غير قابل للشك.

ظنَّت في البداية أنه يخدعها لغرضٍ في نفسه، أو يحاول إصابتها بفيروس الجنون عامدًا، لكنه بدا لها صادقًا جدًّا، ومتألمًا، وحزينًا. قالت ونظراتها لا تُبارِح الوحمة التي تبدَّت من بين خصلاته الطويلة:

- يا أخ، أنتَ مريض، اذهب إلى المصحة وتلقى العلاج، أنا لا أعرفك، لم يسبق لي رؤيتك، يكفيني همِّي ويفيض، زوجي «جمال» مفقود تحت الأنقاض، أضعته في الزلزال.

الكلمات التي ظنَّت أنها مقصٌّ تقطع به أملًا واهنًا يتشبَّث به، هي ذاتها الحبل المتين الذي انتشله من الغرق. قال بلهفة، تتسابق الكلمات فوق شفتيه:

- قلتِ إنكِ فقدتِ زوجكِ، «جمال»، في الزلزال، أنا كنت تحت الأنقاض لأربعة أيام.

- وهل يجعل هذا منك «جمال»؟

لم ييأس. سألها متلهفًا:

- أين فقدته؟ لقد أخرجوني من أسفل عمارة بمصر الجديدة.

- وأنا فقدته أسفل عمارة في مصر القديمة.

عاد إلى نقطة الصفر من جديد، لم يكن اليأس قد تملَّك منه بعدُ، كان مستعدًّا للحديث معها لساعات وسنوات، كي يثبت لها أنه «جمال». أراد الاقتراب، فقط لتشتَّم رائحته وتتعرفه، لربما تتذكر أنها تألفه، همَّ بإمساك ذراعيها ليدنيها منه، انتفضت مبتعدة قبل أن يفعل، فتحت النافذة، وقفزت داخل الفراندة الدائرية الضيقة، تمتطي حافتها كالحصان، تُطعم ساقًا للهواء، وتُبقي على الأخرى في الداخل. تهدده صارخة:

- إن لم تخرج سألقي بنفسي إلى الأسفل.

أفزعه ما يشهَد، خاف أن تنفذ تهديدها، فتح الباب وغادر كما طلبَت، ودَّعها بنظرة مكسورة، ترجمَت كل ما يعتمل بصدره من ضياع وخذلان.

***

# (20)
# المرة الأولى هي الأصعب

لم تحتمل البقاء في البنسيون، هربَت إلى الشارع، تُلقيها حارات وتتلقّفها أزقّة. ركبت الأتوبيس، وتوجهت إلى المكان الذي خسرت عنده كل شيء.

فوق ركام بيت المأذون بالعَطفة الجوانية افترشت الحصى والتراب، تسأل المارة وعابري الطريق، عن رجل نحيل، ليس له في الحظ باع، لا مال، ولا جمال، لكنه شهم، أصيل، وعدها أن يُنقذها ويحميها، يكون لها دعامة تتسلق عليها ويستطيل عودها، للأوجاع حمّال، واسمه «جمال».

لم يُدلها عليه أحد، لا طفل ولا رجل، لا شيخ ولا امرأة، كأنه دخان، أو شطر من سراب، ما جاء وما كان.

ناشدَت أهل الخير، أن يدلُّوها على الطريق الموصِل إلى بيت أسرة «جمال»، الذي أخبرها بمكانه سابقًا. ركبت الأتوبيس مرتين، ومشيت طويلًا طويلًا، حتى هدّها التعب، وتمرَّد عليها البدن. بعزمٍ لا يفتر واصلت الطريق، حتى انتهَت إلى باب البيت.

استقبلتها عجوز تفوح منها رائحة البصل، وفتاة جميلة في ريعان الشباب، فانشرح قلبها أيما انشراح، هاتان أمه وأخته، لا أحد سواهما سيدلها على مكان زوجها.

انطفأت بهجتها بأسرع مما توهَّجت، أنكرت العجوز معرفتها برجل بهذا الاسم، وأبدت الفتاة امتعاضها من إلحاح «عيناء».

- قلتُ لكِ ليس لي ابن، لم أنجب سوى ابنتي هذه!

قالتها العجوز وغلّقت في وجهها شرّاعة الباب، تسد كل ثغرة قد ينفذ عبرها الأمل. جلست فوق عتبة البيت تكاد تفقد عقلها، كيف تبخر «جمال» من الحياة كأنه لم يأتِها؟

ما تقوله أمه الآن، هو ما أخبرها به الصحفي الذي زارها في البنسيون، كذَّبته وقتها، ورمت الخطأ فوق كتف عمال الإنقاذ.

إذا كان «جمال» ليس له وجود كما يدَّعي الجميع، من الذي دفع الرشاوى لـ «عنايات» الممرضة وزوجها الطباخ؟ من رافقها إلى حيث يقيم المأذون، ووقَّع أمامها على عقد الزواج؟ وأخيرًا، من الذي أحضر لها فستان الزفاف؟

تذكرت حديث المجذوب ذي الوحمة، هذا أمر يفوق الخَبال، هذا لا اسم له ولا تعريف، لا ملجأ منه ولا تصريف.

- يا ربنا القدير، أرني الطريق، واحفظ عقلي من التحريف.

للمرة الأولى في حياتها، يتسرَّب إلى وجدانها الشك في قواها العقلية، والمصيبة أنها لا تعرف أين تعثر على تفاسير أكيدة وقوية.

***

المرة الأولى هي الأصعب.

هكذا أخبرتها أمها عندما أراقَت القهوة فوق وابور الجاز، وعندما حرقَت لحم الضأن في البِرام.

عندئذ فهمَت، لماذا تكسَّر قلبها بقوة عندما أخبرها أبوها للمرة الأولى: «أكره النظر إلى وجهك المشؤوم، يُذكِّرني بكل ما أبغض». في المرات التالية، كان صوت الكسر أهدأ، والشظايا أقل، لملمتها سريعًا، مع عبراتٍ كسيحة، وأدتها في الحال.

المرة الأولى في التطهير كانت الأصعب، وقفت ترتجف أسفل الكوبري وهي تبتر كفَّي الرجل الأول، رغم يقينها من صواب ما تفعل، لم تكن قد رأت الدماء بهذا القدر الوفير من قبل، أفزعها ذلك لدقيقة أو يزيد، ثم سارعت في وقف النزيف، وتطهير الجرح، ولفَّه بالشاش. كانت رحيمة رؤوفة، قطعتهما بينما الرجل فاقد لوعيه؛ لا تتحمل الألم والصراخ.

كانت المرة الأولى هي الأصعب، الآن باتت على يقين من ذلك، لأن مرأى الدماء التي تتفجر أمامها من الكفين المبتورتين للرجل الثاني، لم يُفزعها كالمرة السابقة!

وقفت محاذاة الرجل الجديد المطروحِ أرضًا، لا أسفل الكوبري كأخيه في الطهارة، هذه المرة داخل دكان في زقاق يتفرع من حارة، ساقتها قدماها إليها

بعد خروجها من بين أهل «جمال» الذين تنكّروا له. تاهت في الطرقات، والشوارع والعطفات، فالتمسَت في أحد الدكاكين شربة ماء، وراحة لقدميها المدماتين.

انزوَت في ركن قصيّ، بعدما تجرَّعت كل ما قدّمه صاحب الدكان الأربعيني من ماء رائق، أتى به من زير قريب.

غلبها النعاس، أسندت إلى الجدار رأسها، إلى أن لطمها بخر نتن الرائحة، فتحت عينيها على اتساعهما، فطالعها وجه صاحب الدكان، وهو يبتعد مرتبكًا، وقد علا قسماته الخجل.

انتفضت تُلملم رداءها البرتقالي، بينما الرجل يتظاهر بإزالة الغبار عن البضاعة، كأنه لم يُضمر شرًا للفتاة التي لجأت إليه، تلتمس بعضًا من الراحة.

صحيح أنه لم يمسها، لكن لو سنحت له الفرصة لفعل. حكمَت عليه في محكمة الضمير، التي تقوم فيها بدور القاضي والشهود ووكيل النيابة والجلاد، أن هذا الرجل مشروع متحرِّش، يحتاج إلى التطهير من الدنس. كان واقفًا وقد أولاها ظهره، لم يتوقع للحظة أنها تُضمر له ما يفوق أسوأ خيالاته، انهالت فوق رأسه بحجر وجدته في الزاوية، مرة، واثنتين، وثلاث، فقد على إثرهم الوعي.

غلّقت الدكان من الداخل، وقد كان في زقاق ضيق لا تمر به الكثير من الأقدام.

هذه المرة، لم تحمل معها منشارًا كهربائيًا، ولا ساطورًا، لحسن حظها وجدت فأسًا بغرفة صغيرة في مؤخرة الدكان، يتخذ منها صاحبها مخزنًا لبضائعه.

تناثرت الدماء فوق ردائها البرتقالي، فلحفت جسدها بعباءته البنية، التي وضعها على مسمار في الجدار كالمشجب، تواري بها أثر ما صنعَت.

مضت في الزقاق دون أن تلتفت، ومنه لحارة، ثم لشارع، حتى بلغَت أقرب محطة للأتوبيس.

***

ألقت بجسدها فوق الفراش، بعدما أغلقت بالمفتاح باب غرفتها بالبنسيون، ووضعت خلفه الكرسي والطاولة.

بعد نهار مضنٍ، أملت ليلة عادية هانئة، ونومًا طويلًا بلا أحلام، تعوض به الجهد البدني والنفسي الذي بذلته، مع المجذوب ذي الوحمة صباحًا، وصاحب الدكان الأربعيني في آخر اليوم.

أراحت رأسها فوق الوسادة، غير مُدركة أن هذه الليلة شاءَت أم أبَت، ستُحفَر في ذاكرتها إلى الأبد.

لن تكون ليلة عادية أبدًا!

# (21)
# سكرة الذكريات

عليها الانغماس في العمل كي لا تنفجر.

كيف يتركها في غرفة اللوكاندة ويغادر دون كلمة؟ لا تريد أن تأسره بكرمها عليه، وشهامتها معه، لكن على الأقل، ظنَّت أن لها في نفسه قدرًا، يجعلها تختلف معه بحرِّية وسماحة، دون أن تخشى بطش العواقب.

حرصت وهي تترجَّل من سيارتها، وتتوجه صوب الفاخورة بمنطقة بطن البقرة، ألا ترمي بنظراتها إلى الخلف، في اتجاه البنسيون، حيث المرأة التي خسرت بسببها رِفقة «زعفران» إلى الأبد.

- هل مِن أحد هنا؟

صفَّقَت منادية، ثم خطَت داخل الفاخورة من غير دعوة. أقبَل عليها رجل في أوائل الستين، عرفت من الصورة المعلقة في صدر الفاخورة أنه مالكها، الفخراني الكبير، صاحب الأيادي الحريرية، ذائع الصيت في ربوع الفسطاط.

بادرته بتقديم نفسها:

- «أنهار أبو عوف» صحفية في جرنال «الحياة».

توجَّس منها خيفة، سألها في غِلظة غير متعمدة:

- ماذا تريد الصحافة مني؟

- اطمئن، أستأذنك أولًا في كوب من الماء.

رمَت بطلب الماء إلى إفساح المجال أمامها لتتأمل تفاصيل الفاخورة، بدا لها أن الفخراني الكبير كان يعمل على منتج جديد موضوع فوق منضدة منخفضة، وبجواره «جلدة التنعيم»، لتسوية الفخار بعد تشكيله. حزرَت أن

المنتج الجديد مدخنة شتوية، رأتها مرة في إحدى الحدائق الخلفية في بيت من طابقين بالزمالك، وضعها المالِك خلف منزله للاستدفاء من برد الشتاء، في أثناء الاستمتاع بشي ضلوع الغنم مع الجيران.

عاد الفخراني الكبير سريعًا، بعدما صبَّ الماء من قلة فخارية صنعها بيديه قبل أشهر. شكرته «أنهار» باسمة بوِد، تتجرع ما في الكوب بروية.

- ماذا تريد الصحافة مني؟

كرر سؤاله بقلق، بدَّدته بقولها:

- عرفتُ من أحد مصادري أنك قدَّمت بلاغًا عن هروب ابنتك من مصحة بالخانكة تضررت في الزلزال، في الحقيقة كنت أتابع هذا الحادث منذ اللحظات الأولى لكنني فشلتُ في العثور على أي خيط صالح للتتبع، جئتُك من قبل فلم أجدك، كنتُ آمل أن تمدني بالمزيد من المعلومات عن ابنتك المفقودة، وبخاصة حالتها الصحية، مثلًا ما سبب احتجازها في المصحة؟

لم تتوقع أن تثير كلمتها الزوابع في نفس الرجل الوقور، فيصيح هادرًا:

- فتاة خبيثة، جاءتني بعد الزلزال، هنا، أرادت قتلي، الملعونة ابنة الملاعين.

- لماذا ترغب ابنتك في قتلك؟

- لأنها مجنونة، هل يُسأل المجنون عن السبب؟

- لم تخبرني، لماذا أودعتها في المصحة؟ ما المرض الذي تشكو منه؟

المجهود الذي بذله في الحديث وأعصابه الملتهبة، كانوا أكبر من قدرة بدنه على التحمل، وبخاصة مع الخوف الذي يعيشه في كل دقيقة، بينما «عيناء» ما زالت طليقة.

عندما استيقظ من النوم بعدما شرب من قهوتها الملعونة، أدرك أنها كانت تضمر له السوء، ثم توقفت في اللحظة الأخيرة، لسبب لا يعلمه إلا الله، فأسرع إلى قسم مصر القديمة يقدم البلاغ، يستنجد بالبوليس قبل أن تنجح في قتله في المرة القادمة.

سارع بالجلوس فوق مقعده الأثير أمام العجلة، بينما الفرن المشتعل يفيض عليه من حرارته، يُجاهد كي لا تخرج كلماته مهزوزة:

- جنون عظَمة، جنون اضطهاد، ضلالات، اضطراب تبدُّد الواقع، فيها من كُل فيلم أغنية، كأنها جمعت الموبقات كلها في عقلها الموبوء.

ساءتها الطريقة التي يتحدث بها أب عن ابنته، وبخاصة مع مرضها الذي لا يد لها فيه؛ اكتسى صوتها بشيء من الحدة غير المهنية، وهي تسأله:

- لماذا لم تعالجها في وقت أبكر؟

- رفضت أمها أن أدخلها المصحة، ولم أستطع إقناعها.

أخبرها عن موت زهرته، وتوقف عند تلك اللحظة الأليمة وقفة حداد، احترامًا لذِكراها، نسي وجود «أنهار»، تشتتت نظراته، ارتعدت شفتاه، عيناه الضيقتان كأنهما تتأملان شريطًا سينمائيًا يمر أمام وجهه، يقول ساهمًا:

- كان كل شيء جميلًا كالحلم، نعيش ثلاثتنا في سعادة.

- أنت وزوجتك وابنتك؟

- أنا وزوجتي والفاخورة! حتى أتت إلى الحياة تلك الشيطانة المسماة بـ «عيناء».

غاص قلب «أنهار» في صدرها، نفرَت من الرجل كأشد ما يكون النفور. استعادت طبيعتها المهنية، ولم تُبدِ امتعاضها للعيان، تسأل الرجل بهدوء، وبصوت محايد، تدفعه للاسترسال في الحديث:

- هل أفسدت حياتكما؟

- دمَّرتها، منذ أن تعلَّمَت الكلام، كانت... كانت ترى كل ما يود المرء إخفاءه، كأنها... كأنها الضمير الذي ينغز المرء هنا في صدره، بسببها كنتُ أضرب «زهرة»، كلما تبدل حالها معي، من الود إلى الجفاء.

كان يعرف الضرب كلغة تعبير عن الاهتمام. هكذا كان يرى أباه يفعل مع أمه. عندما يسأله: لماذا تضربها؟، يجيبه: لأنني أهتم.

كانت نظراته ذاهلة، تتتبَّع مشاهد غير مرئية:

- كانت تراقبني بينما أعمل، ساعات تجلس خلف الباب الفاصل بين الفاخورة والبيت، تراقبني من الثقب، ثم تركض إلى أمها الراقدة في فراش المرض، تقص عليها كل شيء، كل شيء، أعظَم الأمور وأدقَّها، منتجاتي الفخارية، وكلماتي، وحركاتي، وزلّاتي.

ارتجفت شفتاه، وتفلّتت عبرة من أسوارهما، يردف بخزي:

- كنتُ أسقط من عين زهرتي يومًا بعد يوم، وهي صامتة، لم تعاتبني قط، لم تسألني قط، لم تصرخ، لم تغضب، وليتها فعلَت، كانت فقط تسمع لوشاية الفتاة اللئيمة وتصمت، كان قد أقعدها المرض في سنوات زواجنا الأولى، واتخذَت من تلك الواشية عينين ويدين وقدمين، تصدق كل ما تخبرها إياه.

ثم ضرب فوق ساقه بقوة، حسبَت معها «أنهار» أنها سمعت طقطقة عظامه، أردف:

- كنتُ غبيًا، ونجسًا، وحقيرًا، لكنني أردتُ التوبة، والله أردتها، لو لم تفضح تلك اللعينة أمري، لكان بإمكاني أن أمضي الحياة مع زهرتي سعيدًا منعَّمًا، بدلًا من السقوط من عينيها يومًا بعد يوم، لسنوات كانت تذبل أمامي، تبتعد عني، تبني الحواجز والسدود والمتاريس، تفقد نظراتها البريق والرغبة في الحياة، ظننته المرض وحده، ثم أخبرتني على فراش الموت بما كتمته في قلبها وأحرَق روحي، أخبرتني أنها كانت تعرف.

كان يعبِّر بالضرب، وكانت تعبِّر بالصمت، هكذا، ورغم الحب، لم تكن بينهما لغة مشتركة يومًا.

- ماذا تعرف؟

كاد أن يقفز إلى لسانه الجواب: أنني خنتها في الفاخورة ألف مرة مع ألف امرأة، بنظرة وهمسة ولمسة وضحكة وغمزة واشتهاء، أنني كنت نذلًا وضيعًا، أعرف، لكن لكل زلة توبة، ولكل معصية رجعة. لم تسمح له الفتاة أن يرجع، كانت تذكره بنظراتها، وبتلميحاتها، بكل ما أراد نسيانه. شيطانة، تقذف اليأس في قلبه، وتُنسيه رحمة الله، كانت تتلذذ بعذاباته. تساومه، النسيان مقابل الحب، لم يمنحها حبه قط، فلم تسمح له أن ينسى.

استفاق الفخراني الكبير من سَكرة الذكريات، غارّ على عبرة متفلتة يدهسها دهسًا، يتنحنح لإزالة الحشرجة، ويستعيد جلسته المستقيمة فوق مقعده:

- لا شأن لكِ بهذه الأمور العائلية، كل ما أريده منكم هو العثور عليها وإعادتها إلى المصحة.

استشفَت «أنهار» بعض ما أخفى، من نظراته، والخزي المتسلق لقسماته، والشائعات التي طالته، حين سألت عنه في الجوار. طال السَّتر حتى انقطع، واستحَق أن تنهشه الألسنة، هكذا شعرت نحوه، بلا ذرة شفقة، أو رغبة في مواساة. تستعيد كلماته عن ابنته، تتساءل في نفسها، ما قاله كان كافيًا لينزعج من ابنته، يغضب عليها، أو حتى ينفر منها، لكنَ البغض الذي تقرؤه بداخله، لا بُد أنه لسبب أكبر من إفشاء خيانته لأمها.

- هل تملك صورة لها؟

- لا.

- ماذا تعني؟ لا بُد أن لديك صورة لها برفقتكما، وهي شابة، مراهقة، أو حتى طفلة.

- لم تجمعنا صورة قط.

ضاعَف هذا من شكوكها، كيف لا يُصوِّر الأب ابنته ولا مرة واحدة؟ ألم يمر بهم مناسبات، لحظات تستوجب التوثيق، أعياد ميلاد؟

انقبض صدرها إثر مرور طيف عيد الميلاد بخاطرها، صرفته سريعًا وعادت تسأله:

- هل لديك شهادة ميلادها؟

- نعم.

وكانت الشيء الوحيد الذي يملكه. أخرج مفتاحًا صغيرًا مربوطًا بحبل حول رقبته، ومن درج الشكمجية، أحضر لها صورة من الوثيقة التي تضم اسم الأب والأم ومحل الميلاد، لا شيء ملموس يُمكّنها من العثور على الفتاة الهاربة، لا صورة ولا وصف، ولا عين تعرفها سوى عين أبيها التي تبغضها كالموت.

دسّت الشهادة في حقيبتها دون أن تفتحها. قدّمَت له وعدًا لا تملكه، بسرعة العثور عليها، قبل أن تتأذى، أو يتأذى الآخرون بسببها. لم يطمئن قلبه، كان يرى خبثًا في الفتاة التي تربّت في خدره، كافيًا كي تُفلِت من الأسر متى أرادَت.

- سأحتفظ بشهادة الميلاد لبعض الوقت. هل تمانع؟

هزّ رأسه نفيًا، شكرته «أنهار» على وقته، تركته مطرقًا في وجوم، ودارت على عقبيها لتنصرف.

- هذه الفتاة ليست طبيعية.

التفتت «أنهار» للفخراني الكبير، لم تُضِف كلماته مستوى جديدًا للأوصاف البشعة التي ألصقها بابنته منذ بداية المقابلة. هزّت رأسها في فهم مُجامِل، ثم استكملت طريقها إلى الخارج. بينما الفخراني يتذكر رغبة «عيناء» في الظهور، التي كانت تدفعها لأن تأتي بعجائب التصرفات، في ليلة حاولت حرق البيت باستخدام الكيروسين وعود كبريت، وفي أخرى حاولت إغراقه بمد خرطوم من فتحة الصنبور، وفي ثالثة وقفت فوق السطح تُهدد بالقفز إن لم يسمح لها بالعمل معه في الفاخورة.

طفق الفخراني يُكرر بلا انقطاع:

- ليست طبيعية، ليست طبيعية أبدًا.

***

كان حدسها صائبًا من البداية، المجنونة الهاربة سَبق صحفي مثير، لا بسبب حالتها العقلية المرضية فحسب، بل كذلك للعلاقة الغريبة التي تجمعها بأبيها.

مؤكد أن ثمة سرًا آخر يدفع الفخراني إلى النفور من ابنته بهذه الفجاجة، ويدفع البنت لأن تُقدم على محاولة قتل أبيها، هذا إذا ما صدّقت ادعاءاته. وقفت أمام سيارتها مستغرقة في التفكير، عندما أقبل عليها «زعفران» مناديًا:

- «أنهار».

لم تكن بحاجة إلى أن تلتفِت، تعرّفت صوته الرخيم، ونبراته المتلهفة، أو لعلها من أرادتها أن تكون متلهفة.

لم تلتفت، ليس بهذه السهولة، أسرعت صوب سيارتها، تنطلق بها دون إبطاء، يتابعها بنظراته إلى أن غابت سيارتها عن مرمى بصره.

***

فضّلت أن تمضي الوقت في الجرنال، تُكمل كتابة المقال الذي سيُنشَر صباح الغد عن المجنونة الهاربة، تُناشد القراء تقديم أي معلومات عنها، تُمكنها من العثور عليها. وفي الوقت نفسه تُجري بعض الاتصالات من هاتف مكتبها، تُحاول الوقوف على أي معلومة مرتبطة بالفتاة.

كان لا يزال اثنان من زملائها على مكتبيهما، كل منهما مُنكَب على عمله المتأخّر، عندما دخل زميلها «سمير»، الذي ساوَمها على العشاء معه الليلة، رنا إليها وغضب الدنيا كله يطل من قسماته. دفنَت نظراتها في المقال تكتم ابتسامة زهو.

راحَت تتخيله وهو ينتظرها في المطعم المعلوم، يعد الدقائق قبل لقائهما المزعوم، ثم صدمته وهو يراقب زوجته تخطو بخطوات حثيثة صوب الطاولة. هل صرخت بوجهه؟ سبّته؟ صفعته؟ لا تعرف «أنهار» يقينًا، لكن من مظهره المخزي وهيئته المزرية، تشعر أنها فعلَت ثلاثتهم معًا.

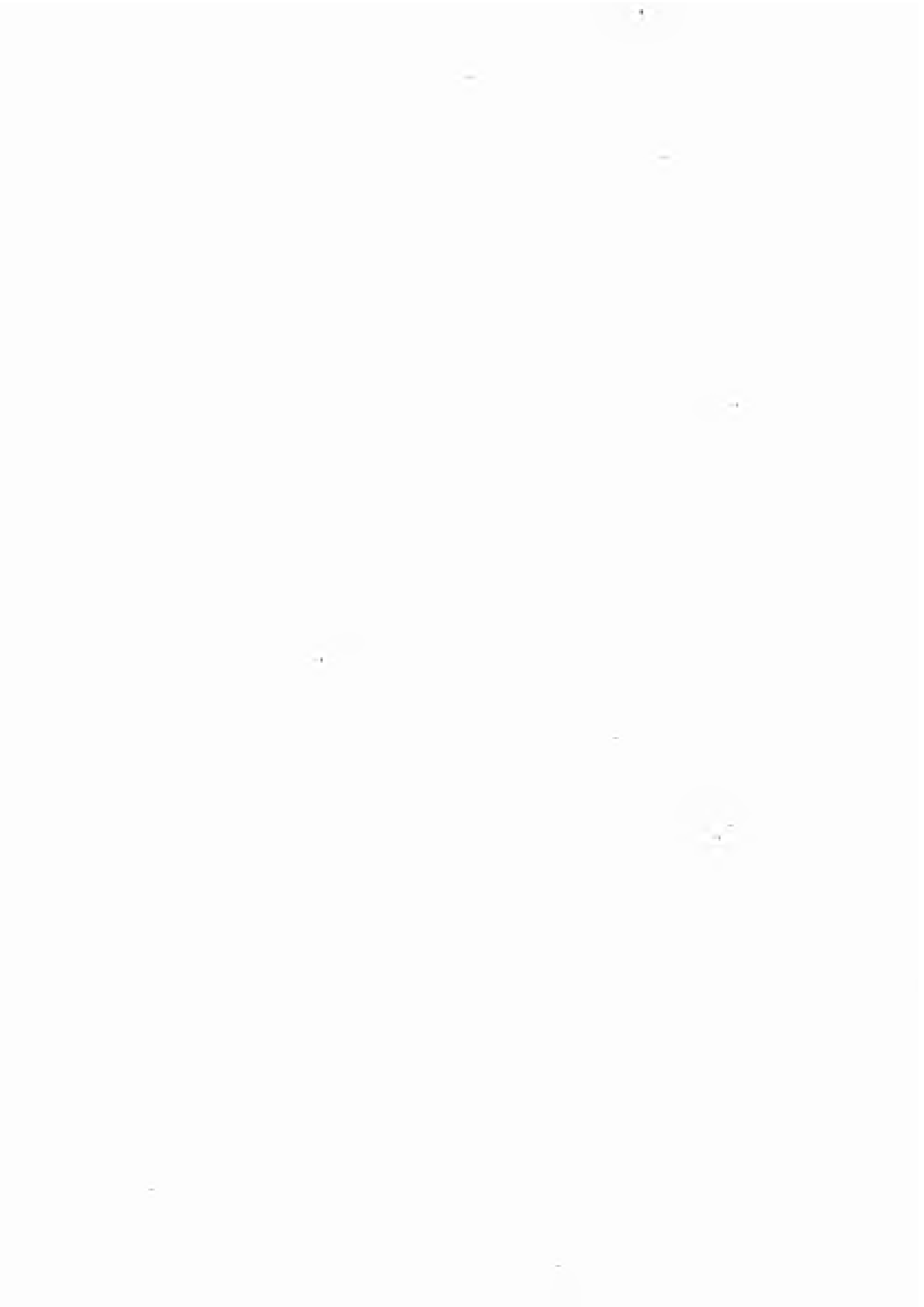
راحت تتلذذ باللحظة الراهنة، مستمتعة بالصفعة التي سددتها له، أرسلت إلى زوجته رسالة من مجهول، في ظرف أبيض مع ساعي البريد، تنبئها بما يدور من خلف ظهرها.

اقتحم رئيسها المكتب، فوقف الجميع رهبة واحترامًا، رمى السؤال في وجوههم، بغضبٍ متنامٍ:

- هل رأى أحدكم «نزيه» خلال اليومين الماضيين؟ كان يجب أن يُسلِّم مقالة عاجلة.

تبادلوا جميعًا نظرات الحيرة، يجيبون بالنفي عن سؤال رئيسهم المستشيط غضبًا.

تساءلت «أنهار» في نفسها: صحيح، أين «نزيه»؟



# (22)
# القطط لا تتكلم

كانت صورة التلفاز الصغير مهزوزة، يحتاج إلى تلقي ضربة فوق بدنه كل فترة، وتحريك الإريال الخارج من ظهره، ليستقبل الصورة بشكل أفضل.

الصوت ضعيف حسب تعليمات صاحبة البنسيون، بالكاد يصل إلى أسماع «عجَب هانم»، المسترخية فوق مقعدها الهزاز، وبجوارها فوق الحصيرة، يجلس أسيرها المربوط.

كانت قد أحضرت الحبل الثخين من دولاب التخزين بالمطبخ، ومن خلف ظهره ربطت رسغيه، ثم قدميه بشكل متعامد، عندما كان فاقدًا لوعيه في الحمام.

كانت مستغرقة في مشاهدة الحلقة الثالثة، من مسلسلها المفضل «مغامرات زكية هانم»[1]، رغم أنها شاهدت عرضه الأول في مارس الماضي، تُبدي استمتاعها كما لو أنها تتابع حلقاته الثلاث عشرة للمرة الأولى.

أخبرتها السيدة أنها معاقَبة بالحبس في غرفتها بلا طعام أو شراب لثلاثة أيام متواصلة، كانت معتادة على مثل هذا النوع من العقوبات، ولم يكن يثير في نفسها استياءً يُذكَر.

رمَت «عجب هانم» بنظراتها المستطلعة صوب الرجل المقيد، تسأله في مواء طويل إن كان يرغب في شرب الماء أو تناول الطعام.

لم يفهم لغتها القططية، وإن كان قد أدرك من اللحظة الأولى أن هذه القطة شاذة عن بني جنسها. أعمَل بصره في أرجاء الغرفة، للمرة الألف خلال

---

(1) مسلسل تليفزيوني من قطاع الإنتاج، تاريخ العرض 5 مارس 1992، تأليف أحمد عفيفي.

يومين، كان لا يزال يرتدي القميص الواسع نفسه، الملطخ بالدماء. اعتذرت له «عجب هانم» قائلة في تودد إنها لا تملك قميصًا رجاليًا في دولابها، وبالطبع لم يفهم منها مواءً واحدًا.

شعر أنها تتواصل معه بموائها، وتعرّف عن نفسها، دفعه هذا لمحاورتها بلغته البشرية، وقدّم لها نفسه من اليوم الأول، كنزيل في البنسيون، ضلّ طريقه إلى غرفتها، عندما قفز إلى الشرفة الدائرية، ودار حولها دورة كاملة، وضّح لها أنه «نزيه الليثي» الصحفي في جرنال «الحياة»!

ثم سخر من نفسه، إذ عامل القطة السوداء كأنها شريك غرفة أو زميل زنزانة.

أردفت تشير بقائمتها الأمامية اليمنى إلى بطلة المسلسل، والورطة التي أوقعَت نفسها فيها:

- هل رأيتَ كيف أن «زكية هانم» امرأة ذكية تُحل الألغاز بعبقريتها الفذة؟

نظر إلى حيث تشير، ورغم أنه لم يفهم مواءها، كان أقرّ في نفسه أن البطلة تخلو من لمحة ذكاء، كما تدعي عن نفسها، إنما هي امرأة فضولية، تدس أنفها فيما لا يعنيها، وتوقعها قراءة قصص شارلوك هولمز في الظنون الخاطئة.

حرّك يديه المقيدتين من الخلف، يحك إحداهما في الأخرى، منذ اللحظة الأولى كان قد أدرك أن الرباط غير مُحكم حول معصميه، وكذا حول قدميه، وأنه بسحبة قويةٍ سيتمكن من تحرير نفسه بسهولة، إلا أنه لم يفعل، وليس من الصعب تخمين السبب.

قبل يومين، عندما قابل «عيناء» غريبة الأطوار، قرر استئجار غرفة بالبنسيون، ليتجسس عليها من حيث لا تدري، فلربما توصل إلى سبب منطقي يدفعها لتقديم بلاغ كاذب، عن اختفاء زوج لا وجود له، هل قتلته بنفسها، ثم ادعت اختفاءه في الزلزال؟ إن كان هذا صحيحًا سيكون خبرًا مدويًا، يستجلب رضا رئيسه في الجرنال، بالإضافة إلى علاوة جيدة، والإطاحة بـ «أنهار».

قرر استئجار الغرفة المجاورة لها، التي تحمل رقم (7)، وفي أثناء ما كان يرتب أغراضه في دولاب غرفته، شعر بمرور خطوات خفيفة في الفراندة

الدائرية، أشرع النافذة ورصد حركة القطة وهي تقفز داخل غرفتها، وفي فمها العدد الصباحي من الجرنال!

تابعها لساعة كاملة، وهي تجلس فوق الكرسي الهزاز، تحيك ثوبًا من خيوط الصوف، بمهارة فائقة!

ظنها نائمة فوق فراشها، تسلل قافزًا داخل الغرفة مستطلعًا، فتلقى ضربة قوية فوق رأسه، أمادَت الأرض تحت قدميه، وأظلمت الدنيا أمام عينيه. قبل أن يغيب عن الوعي، كان قد أبصر القطة السوداء السمينة، تنهال بأصيص فخاري فوق رأسه.

عندما استعاد وعيه في حمام صغير جدًّا مفروش بالرمل، وتفوح منه رائحة اليوريا وحمض البوليك، كذَّب عينيه واتهم بالخرف ذاكرته. وما إن رأى القط يسلك منحى غريبًا في النظر والحركة والمواء، حتى تملك كل اهتمامه، وقرر البقاء كي يفهم ما يدور. الباب مغلق عليهما من الخارج قرابة اليومين، بعد اللقاء العاصف بين القطة وصاحبة البنسيون، الذي شهد عليه في ذهول.

ما كان بإمكانه أن يفك القيد ويكسر الباب، قبل أن يفهم سر هذه القطة العجيبة، سيفيده هذا بالتأكيد عندما يكتب مقالته المثيرة التي قرر أن تكون عن البنسيون، وغرفه التي تحتضن كل واحدة منها قصة مثيرة استثنائية.

شرب الماء من صنبور صغير في الحمام، وقدَّمت له القطة بعض الحلوى والشوكولاتة، فضَّت له غلافها، فانحنى يلتقطها بفمه. لم يحاول «نزيه» النظر إلى تاريخ الصلاحية، إذ غلب على ظنه أنها منتهية، من مظهر التغليف القديم، والماركات المحلية التي لم تعد تُصنَّع منذ سنوات، لكن لم يكن يملك البديل، فأرغِم على أكلها.

طفقت «عجب هانم» تنسج بمهارة فائقة من خيوط الصوف صقوفًا تتسلق بعضها لتشكل ثوبًا في طريقه إلى الاكتمال. تتابع بطلة المسلسل وهي تنتقل من موقف متأزِّم إلى آخر، بأعصاب ملتهبة كما لو أن الأحداث التي تدور أمامها حقيقية. همست لنفسها وهي تزوم بشفتيها واصفة البطلة:

- امرأة لا يُقدر ذكاءها أحد.

انتفض «نزيه» مكانه يحرك رأسه بعصبية، يبحث عن مصدر الصوت الذي صفع أذنيه قبل لحظات. انتبهت «عجب هانم» لردة فعله، فتركت الإبرة تسقط أرضًا، ولم تبالِ بالخيط الذي التف حول قائمتها، قفزت فوق الكرسي الهزاز، تسأله بموائها الحاد:

- هل تفهمني؟

كان على «نزيه» في تلك اللحظة أن يعترف لنفسه، أنه شعر منذ أن استفاق أنه سيكون في لحظة ما قادرًا على فهم موائها، لفرط ما كانت حركاتها ونظراتها ونبراتها، واعية ومقصودة وانتقائية.

- أنت تفهم ما أقول أيها البشري، أقرأ هذا على وجهك، إياك أن تنكر أو تتغابى.

- كيف ذلك؟ القطط لا تتكلم!

- بالطبع نتكلم، يا لك من ساذج.

- أقصد أنها تتحدث مع بعضها، بلغة لا نفهمها نحن البشر.

- لكن أنا وأنت نفهم بعضنا، إنه يوم حظي، لقد سئمتُ الوحدة، الآن أصبح لي زميل غرفة يستطيع أن يفهمني، إنه يوم حظي.

لم يشاطرها الشعور، ليس صحيًا أن يجد المرء نفسه يتحدث إلى قطة، عابرًا خصوصية اللغة، متجاوزًا للقوانين والمنطق. باستثناء إشارة المرور، وبذل الرشاوى، والتسلق فوق أكتاف الآخرين، وسرقة عدد من المقالات، وتصحيف بعض العناوين، لم يخرج «نزيه» عن القانون. بيدَ أنه الآن يشعر باشمئزاز ونفور من فكرة تحدثه إلى قطة ترنو إليه بنظرات متراخية ومتحمسة في آنٍ، مخالفًا بذلك قوانين الطبيعة.

- كيف تفهم القطط لغة البشر؟

اتسعت ابتسامة «عجب هانم» إلى أن برزت أنيابها، اصطبغَت وجنتاها بحُمرة الخجل، أطرقت في تواضع، تهز شاربيها. تقول:

- إنها مهارة استثنائية، لا تملكها الكثير من القطط، في الواقع لا تملكها قطة غيري، فيما أظن.

- لماذا تحتجزينني؟ ماذا تريدين مني؟

- اشتقتُ إلى الرفقة، وبخاصة شاب فضولي مثلك، في الواقع يبدو لي أي إنسان غير صاحبة البنسيون جيدًا، ويصلح لأن يكون رفقة محببة.

- لماذا تكرهينها؟

- لأنها تحبسني، وتضربني، وتعنفني.

- تبدو لي سيدة مسالمة.

انطفأت حماستها، وتبددت حُمرتها، أطفأت التلفاز، ثم طافت في الغرفة كطير جريح، من فَرط الألم لا يلبَث في مكان واحد. قفزت فوق طرف الفراش أمامه، تقول في شراسة:

- إنها شريرة.

سعد باقتناصه لمصدر معلوماتي ثمين، محاولًا تجاهل أنها قطة تتحدث إليه ندًّا بند. قال متصنعًا:

- غير معقول، لا تبدو لي سيدة مخيفة، في الحقيقة هي سيدة لطيفة جدًّا.

هزَّت رأسها نفيًا بقوة، لمعت عيناها الفيروزيتان بالسخط، تقول بشراسة أكبر، كاشفة عن أسنانها النظيفة اللامعة:

- ليست لطيفة أبدًا، إنها لا تتعامل معي كقطة مميزة، لا تنظر إلى البنسيون الذي وضعت عليه لافتة باسمي، إنها تفعل ذلك مرغَمة، كي أنفذ لها طلبها.

قطعت عبارتها وتلفتت صوب الباب المغلق من الخارج، تحُط بأذنها على بدنه، تستوثِق من أن السيدة بعيدة عن مرمى حديثهما، ثم تعود لتتموضع في الجلسة نفسها. تخرخر قليلًا، ثم تتحدث بصوت كالفحيح:

- إنها ترغمني على غزل الثوب.

- أي ثوب؟

بدا الحوار مثيرًا إلى الحد الذي تمنى معه أن يُحرر يديه المقيدتين، يُخرج القلم من جيب بنطاله، ويقتطع إحدى ورقات النتيجة المعلقة فوق الجدار، يدوِّن كل ما يسمع، لئلا يغفل تفصيلة تقولها هذه القطة العجيبة، التي أردفت بجدية بالغة، وكأنها تفضي إليه بأحد الأسرار الكونية:

- تريد مني أن أغزل لها ثوبًا يتسع لجسدين.

لم يكن خافيًا على «نزيه» أن لا شيء مما تقوله يؤخَذ على محمل الجد، من غير الممكن أن تحتجز امرأة قطة فقط كي تحيك لها ثوبًا، ويتسع لشخصين، ما الفائدة العائدة عليها منه؟ ولماذا عليها هي بالذات أن تصنعه؟ لو ذهبت لأي ترزي في بطن البقرة، لصنع لها الثوب الذي أرادت.

رغم ذلك سايرها، مُبديًا لها تعاطفًا ملفّقًا:

- لماذا لم تصنعي الثوب إذًا وتنقذي نفسك من قبضتها؟ لماذا لا تحاولين الهرب؟

- لا مكان آخر أذهب إليه، إلى أين تذهب قطة مدللة مثلي؟

- تذهبين إلى صاحبتك الذي رافقتكِ قبلها، مؤكد أنك تعرفين أحدًا تلجئين إليه.

- آخر صاحبة لي ماتت قبل... ممم، انتظر سأحسب لك.

قالتها وهي تقوم بعملية حسابية في رأسها -القطط ليست ماهرة في العمليات الحسابية- وعندما أعجزها ذلك، استخدمت قوائمها للعد، ثم أفصحت أخيرًا قائلة:

- ماتت قبل خمسمائة وإحدى عشرة سنة.

- هل تهذين؟

- أنا جادة، صاحبتي الأخيرة ماتت قبل خمسمائة وإحدى عشرة سنة.

- نحن الآن في عام 1992 ميلاديًا، كيف تعرفين شخصًا عاش سنة 1481م؟

قفزت صوب الباب مرة أخرى تستوثق من غياب السيدة، ثم تعود بتردد ملحوظ ما بين الإفصاح والامتناع. أخذت قرارها أخيرًا لتقول:

- سأقص عليك كل شيء، لكن إياك أن تتهمني بالكذب، هذا أكثر ما يهين مشاعري القططية المرهفة.

قصّت عليه ما أذهَله، وكاد أن يَذهب بعقله دون رجعة. عَدّ تلك الساعات التي استمع فيها إلى أقاصيص «عجَب هانم»، ليلة فريدة لا تُنسى.

# (23)

# العصر النحاسي

تزلزلت الأرض بقوة، تساقَط على إثرها جزء من قمة الجبل الثلجي، تدحرج في كرة، حالما وصلَت إلى السفح، كان قد بلغ قطرها مترًا كاملًا.

بعد لحظات من الزَّلزَلة، تدفَّت السماء بالثلج، بلورات في حجم أعين سمك القاروس ذي الفم الصغير. خبأت الشمس حرارتها في جيب الأفق، وجلست مُتربّعة مُستكينة، تتأمل وجه الأرض الأبيض في شغف.

لاحَت امرأة شابة من وسط المشهد الثلجي للجبال المترامية، أبصرَت عاصفة قوية تهرول بإصرارٍ نحوها، من خلف تل الثلج الكبير.

للوهلة الأولى شعرت المرأة أنها في المكان الخطأ، كيف ومتى نبتَ كل هذا الثلج من حولها؟

لم تكن هذه المرأة في قرارة نفسها سوى «عيناء»، وقد رأت أنها انتقلت بغتة عبر ممر الزمكان، من الغرفة رقم (6) بـ «بنسيون عجَب هانم»، إلى مساحات ثلجية مترامية الأطراف. آخر ما تذكره أنها كانت نائمة فوق فراشها، بعدما غلقت الباب بالترباس، ثم فطنت إلى حقيقة أنها الآن وسط حلم عجيب، تُدرك فيه أنها تحلم. هل يعي الحالم أنه غادر عتبة الواقع إلى رحابة الخيال؟

لم يسبق لها أن كانت واعية لنفسها وسط حُلم، تدرك أنها «عيناء»، بيدَ أنها في الوقت نفسه ترتدي شخصية أخرى مغايرة. تقوم بدور امرأة لم تلتقِها قبلًا، ابنة هذا العالم الحالم، يُقال لها «زمهرير»!

التبس عليها الأمر واستبدَّ بها التأمل والتفكير، تبدو تفاصيل الحلم حقيقية أكثر من اللازم، فهل هي «عيناء» تحلم أنها «زمهرير»؟ أم «زمهرير» تحلم بأنها «عيناء»؟

شعرت أن السنوات التي عاشتها في فاخورة أبيها، والوقت الذي أمضته في المصحة، وأيامها الأخيرة في البنسيون، ما هي إلا حُلم طويل للمرأة التي يقال لها «زمهرير»، وقد استفاقت منه الآن. بدت حياتها التي ظننتها لها بعيدة جدًا، بينما الثلج الذي يسقط، والجبال التي تشهق، والرياح التي تزأر، والعاصفة تهدر، جميعها تفاصيل حقيقة جدًا وقريبة جدًا.

طافَت العاصفة تكنس ما تعثر عليه في طريقها. أوقفت السؤال عن هويتها والواقع والأحلام، ثم سارعت بالاحتماء داخل تجويف صغير لقبّة صخرية محشورة بين جبلين من الجليد.

لم تكن قد تمكنت بعدُ من ادخار مؤنة كافية من اللحم، تكفيها حتى انقشاع العاصفة التي قد تستمر إلى رُبع دورة شمسية. كل ما لديها قطعة من الفخذ مُتبقية من آخر حيوان رنّة تتذكر أنها -كـ «زمهرير»- اصطادته قبل سبعة نهارات، حفظته في حقيبة تتدلّى من رقبتها، كانت قد صنعتها من فرو أربعة أرانب سلختهم مؤخرًا. كان الرنّة ذكرًا يتمتع بقرون أطول من أنثاه، استخدمت قرنه عصا تتوكأ عليها في أثناء المسير، وها هي توظّفه الآن كأداة بدائية لجرف الثلج، كي تصنع تحت الصخرة خندقًا تحتمي به من العاصفة.

لم تُصادف «زمهرير» أي بشري لمسيرة خمسين نهار، أي منذ أن خرجت للصيد وضلّت الطريق إلى عشيرتها، وذلك قبيل موسم تزاوج فصيلة بطاريق الإمبراطور. يبدو أن هذا المكان المنعزل بين الجبلين كان ملجأ لإنسان قبلها، فعظام وريش بومة ثلجية يتناثر في الأرجاء، تستطيع أن تتعرفها من اللون الأبيض للريش، وقليل من الأسود، كان يتموضع بمنطقة البطن، بالإضافة إلى عظام الجمجمة العريض.

في عشيرتها، صيد البوم الثلجي مُحرّم وجالب للشؤم، فمَن ذا الذي يجرؤ على أكل رمز الحكمة المقدسة؟

أمسكت الريش تُقبله وتُمرره فوق جبهتها العريضة، ثم تحفر بأظفار طويلة في الثلج لتدفنه مع العظام. أبقَت على ريشة بيضاء واحدة، دستها في الحقيبة المتدلية من رقبتها، لتُدغدغ بها وجنتها في الليالي التي تُقاسي فيها الوحدة، حتى تعثر على عشيرتها مرة أخرى، وتستدفئ بوجودها بين أناس تألفهم ويألفونها. الاحتفاظ بريش البوم الثلجي خطيئة، ومجلبَة لسخَط رب

الحكمة كما أخبرتها «عرّافة الماء» عجوز العشيرة، لكن، لم يشاهدها مخلوق وهي تفعل، ثم أنها صانت بقايا البومة بدفنها كما تنص الأعراف المتوارثة، ربما يُجنبها ذلك عقوبة الاحتفاظ بالريشة.

لم تكن العاصفة بالسوء الذي حسبته «زمهرير»، مكثت مقدار نصف حُلم، ثم مرّت. شعرت بالصقيع يقضم إصبع قدمها اليمنى، لا تزال الشمس الشاحبة مختبئة وراء السحب، التي دنت من بعضها تلتمس دفء الضُّحية.

فجأة، قفز مخلوق ضخم فوق ظهرها ودهسها في الجليد!

ظنّت مُهاجِمها «ثور المِسك» المُشعِر، وذلك عندما لمحت بجانب عينها أطراف شعره الأشعث ذي اللون البني الداكن، ودغدغت حواسها رائحة المسك المنبعثة من غدد خاصة تحت عينيه. لم تشعر بقرنيه فوق ظهرها، ولا بقوائمه القصيرة ذات الحافر تسحق رأسها، منحها فسحة من الحركة، مما جعلها تستدير برأسها قليلًا للخلف. كان بالفعل شعر ثور المسك، لكن فوق جلد مسلوخ حديثًا، يرتديه رجل ضخم الجثة، حليق الشارب، كث اللحية، يتجاوز شعر رأسه مستوى كتفيه بمقدار عُقلتي إصبع، حجب عنها مرأى السماء. أبصرَت «زمهرير» في عينيه ليلًا طويلًا سرمَديًّا وغضبًا لا يسكن.

جذبها الرجل جذبة قوية، فاستقامت على قدميها، قبض بأصابع حديدية على منتصف عضدها، ثم جذبها خلفه، هكذا دون كلمة!

ليست امرأة عليلة الإرادة هشة البنية. أثبتت جدارتها واستحقاقها عندما حطمت عظام رجلين، وفقأت عين ثالث في أثناء هروبها من قبضة رجال عشيرة معادية، أرادوا أسرَها. يبدو أن هذا الهمجي يستخف بها كثيرًا، ستُريه من تكون «زمهرير»!

أتت بحركة علّمها إياها محارب قديم، كان يعمل كـ «عيون الليل» لحراسة العشيرة. ضربت ربلة ساقه، ثم أطراف الأصابع، ثم لفّت ساقها حول الساق الأخرى وجذبت بقوة. أفقدت الرجل الضخم توازنه قليلًا، كاد يسقط فوق الثلج، وعندئذ كانت لتغرز في منتصف رقبته خنجرًا صنعته من أحد ضلوع الرنّة. للحظات فحسب ظنت أنها ستنجح في هزيمته، حتى إنها استلّت خنجرها البدائي المحشور في حزام ملتف حول وسطها، استعدادًا لطعنه، لكن الهمجي استعاد توازنه بأسرع مما تمنّت.

نزع منها الخنجر، ألقاه فوق الثلج، جرَّها من شعرها هذه المرة؛ أسود فاحِم، أشعث متعرج، ناعم متمرد، يصل إلى مُنتهى ظهرها.

- لماذا تُريد أسري؟ هل تنتمي إلى تلك العشائر المتوحشة التي تأكل لحوم البشر؟

لم يحر جوابًا، بل لم تجِن منه إليها التفاتة واحدة. ساقها صوب منحدَر جليدي تعرف أن في نهايته نهرًا متجمدًا، اصطادت منه سمكة سلمون مُرقَّطة قبل ثلاثة عشر نهارًا، أكلتها نيئة لعجزها عن إيجاد أغصان لإشعال النار، كان طعمها مريعًا. لا بُد أن إحدى العشائر المعادية التي قتلت أحد رجالها دفاعًا عن النفس، قد قايضت هذا الهمجي بجلد ثور المسك مقابل إغراقها في النهر المتجمد، أو الأسوأ يصطادها لتكون وجبة عشاء.

رجال عشيرتها مهرَة في صيد الحيوانات الكبيرة، ونساؤها بارعات في سَلخ جلودها دون الإضرار بشعرها، لا أحد في الأرجاء يجاريهم مهارة. عرفتْ أن أسلاف عشيرتها في فجر حياتهم كانوا يسترون أجسادهم بأوراق شجر عريضة، قوية، لا تبلَى بسرعة، لم تعد تنمو في الثلج الآن. صنعت لنفسها رداءً من فرو ثعلب نفقَ في صراع مُحتدَم مع غريمه على فريسة أسقَطها الأول، وذات مساء قتلت أفعى كانت تزحف فوق ربلة ساقها، أعجبَت بجلدها، سلَخته، واستخدمته لشد الخصر.

اصطدمت بصخرة بارزة في الجليد، كادت أن تنكفئ على وجهها، أردفت بغضبٍ وهي تحاول تخليص شعرها من قبضته، وفي الوقت ذاته اللحاق بسرعته في المسير كي تُخفف حدة الألم:

- لن أسمح لهمجي مثلك أن يأسرني.

رجال عشيرتها يفرّقون شعورهم الطويلة من المنتصف، يمشطونه خلف الأذنين، يتركون الجزء الخلفي منسدلًا على الظهر، فيما يعقدون الباقي في ضفائر صغيرة على جانبي الصدر، أما هذا الهمجي يترك شعره الطويل حرًّا تتلقّفه الريح كيفما اشتهت، ويخفي الكثير من وجهه. أتاها الرد سريعًا، جذبةٌ قوية لشعرها أسرَت دفقات مكثفة من الألم في رأسها كله. استشاطت غضبًا وهي تستطرد:

- سيقتلك رجال عشيرتي إن مسستني بسوء، الكبير وعيون الليل والصيادون وجامع الحطب وصانع النار، ستحوّلك لعنات عرافة الماء إلى تمساح وتحبسك في بطن النهر المتجمد.

توقف واستدار بغتة، اصطدم أنفها الدقيق بصدره القاسي بقوة آلمتها. في عمق عينيه رأت شيئًا غير مقروء، لم تتبيَّنه جيدًا كـ «زمهرير»، أما «عيناء» الساكنة بداخلها التي تأخذ وضعية المتفرج، تذكرت أنها رأت تلكما العينين من قبل، في الحلم، هذا إن كان عيشها في البنسيون حلمًا، وحياتها في الجليد هي الواقع.

تشبّه لها بالمجنون ذي الوحمة، لن تنسى تلكن النظرات أبدًا، لو تمكَّنت من إزاحة خصلاته الطويلة المسدلة على جبهة الهمجي، لاستوثقت من الختم الدائري في منتصفها. حاولت رفع يدها، إلا أنها لم تملك القوة الكافية، فأدركت في لحظتها أن «عيناء» محبوسة داخل «زمهرير»، تستطيع أن تشاهد وتراقب وتفكر، إلا أنها لا تستطيع أن تتحرك أو تتصرف، كأنها تشاهد فيلمًا سينمائيًا من داخل الشاشة، يُسيِّره قدر محتوم، لا يُمكن له أن يتبدل.

حاولت «زمهرير» تحرير نفسها من قبضته، تتمتم بغضبٍ:

- لن آتي معكَ إلى أي مكان، إن لم تتركني سأبقر بطنك بضلع الرنّة، وأقتلع لحم وجهك بأظفاري أيها الهمجي.

رفع سبابته، قرَّب وجهه، أسدَل نظراته على وجهها فحلَّ الليل مرة أخرى، حاجبًا كل ما حوله. صوته قاسٍ كصدره، أسوَد كالليل الحالك في عينه، أفزعها، وهي «زمهرير» التي تُخِيف ولا تخاف، تُهاب ولا تَهاب.

- اخرسي يا امرأة.

فخرسَت.

***

فكَّرت في التخلص من ريشة بومة الجليد الحكيمة، بدفنها في أعلى نقطة لأول تلة جليدية ستلقاها في طريقها، ربما يتركها الهمجي وتعود الأمور إلى نصابها، ما كان عليها أن تحتفظ بالريشة.

وصلا إلى الضفة الأخرى من النهر دون أن يحاول إغراقها، وكان هذا مُبشرًا، إلا أنه يشير إلى حدث مستقبلي مجهول، والمجهول هو أكثر ما يخيفها. الهمجي لا يتوجه بها صوب العشيرة آكلة لحوم البشر شمالًا، بل يُسيِّرها تجاه الجنوب، وهذا يُدلل على أنه ليس مبعوثًا من طرفهم، لم يقايض أحدًا على جلد ثور المسك الذي يرتديه، إلى أين يأخذها إذن؟ ماذا يريد منها؟ ولماذا هو متعجِّل إلى هذا الحد؟

عرافة الماء ذات غطاء الرأس المصنوع من أغصان النباتات والمزركش بريش بجع التندرا، أخبرتها الكثير عن الهمَج الذين يسكنون الكهوف، في أعالي الجبال وأعماق الوديان، الذين لا ينتمون إلى العشائر المتناثرة فوق الجليد الأبيض، التي يفصلها عن بعضها جبال وسهول وبحيرات وأنهار متجمدة وخنادق ومنحدرات والكثير من المسافات.

الهمج رجال مطرودون من عشائرهم لخطيئة اقترفوها، عوقبوا على إثرها بالنبذ والوحدة. هذا الهمجي لم يقتل ولم يسرق ولم يُهِن رمزًا مقدسًا، هذا مؤكد، وإلا لنُفِّذت فيه عقوبة الموت بنحر العنق، أو الخنق بدفن الرأس في طبقات من الثلج بعمق ثلاثة أشبار. كانت خطيئته أشد، تستوجِب النبذ، وهو عقاب أشد من الموت. أعملَت عقلها لاستكشاف خطيئة هذا الهمجي المنبوذ، في محاولة يائسة لصرف تفكيرها عن الألم الذي حلَّ برأسها، جراء جذبه لشعرها.

حلَّ الليل حاملًا قُفَّة من النجمات، ألقى بها فتناثرت فوق ثوب السماء الأسود. وصلا أخيرًا إلى المكان المنشود، كهف يبزغ من مرتفَع، قاسَت الأمرَّين في أثناء تسلق الجبل المكسو بالثلج للوصول إليه. كان الكهف فارغًا، أو هذا ما بدا لها في الظلام، لم ترَ هياكل النساء المتناثرة في أرجائه، أقدمهن ماتت قبل عشر دورات شمسية، وأحدثهن قبل تسعين نهارًا!!

افترشت «زمهرير» صخرة متوسطة خارج الكهف، رافضة الدخول إليه، لم يحاول الهمجي إجبارها، غاب بداخله بمقدار إذابة حفنة من الثلج فوق جَذوة من نار مستعرة، عندما خرج من الكهف وجدها تُمسك منابِت شعرها وتئن ألمًا. ألقى فوق ساقيها خرقة من الجلد بحجم الكف، بها معجون بني نفاذ الرائحة، أشار صوب رأسها مكتفيًا بقول:

- ضعيه.

وكانت أكثر من خائفة لتفعل. لم يصر، انتقى لنفسه صخرة قليلة الارتفاع أمام الكهف، اتكأ بظهره إليها، وأسلَم وجهه شطر النجوم البراقة يتأمل صفحة السماء. سنحت لها الفرصة لتأمله؛ صوتُ همجي، إيماءات همجي، وأيضًا ملامح همجي، كل ما فيه قاسٍ ومتوحش، إلا عينيه، تنطقان بحزن دفين وألم لا يزول، وهذا تحديدًا ما جعلها تستشعر فيه شيئًا من الآدمية.

- ماذا تريد مني؟

استدعت أكثر نبراتها قوة، يجب ألا تُبدي ضعفًا أمامه، وإلا سحقها بقبضته كما تُسحَق حشرات الجليد الليلية، التي تعيش على قمم الجبال الباردة، بلا أجنحة.

لم يجِبها، نهض وغاب داخل الكهف، اشتمت رائحة جذابة، أقبل عليها حاملًا ورقة شجر كبيرة، فوقها طعام مهروس بعناية، وضعه أمامها دون كلمة، لم تتوقف لتُسائل نفسها ممّ يتكون؟ انكبّت تلتهمه بأصابع تتسابق إلى فمها، له مذاق السمك، معجون بمكوّن آخر لا تعرفه، أعجبها كثيرًا.

أنهت طعامها سريعًا، فركت يديها وفمها بالثلج، تُقلب نظراتها فيه. قال دون أن يوليها وجهه:

- غدًا أخبركِ بما أريد، نامي الآن.

أجابها أخيرًا عن سؤالها الذي ظلّ معلقًا. دخل الكهف، يفترش أرضه الصخرية، وينام ملء أعماقه. كانت فرصة سانحة للهرب، إلا أن تسلق الجبل نزولًا، وفي هذا الوقت الموحش من الليل يُعدُّ تفريطًا بالنّفس مُحرّمًا.

هدّها التعب والنعاس، أسقطتْ رأسها فوق الصخور، تتخذ وضعية الجنين تستدفئ بها، وتُسلم روحها إلى حُرّاس مملكة النوم.

وبينما هي على أعتاب الوسَن، ترددت بداخلها أصداء كلمات عرافة الماء عجوز العشيرة:

- لكل حلم بوابات، يتنقل عبرها الحالِم إلى أراضٍ عجيبة، وعوالم فريدة، وليس غير الإنسان الواعي يُميِّز بين الوهم والحقيقة.

***

انتظرت «عيناء» الساكنة في شغف أن تسقط «زمهرير» بين براثن النوم، وتدخل مرغَمة إلى مملكة الأحلام، عندئذ ستنتقل من الجليد إلى البنسيون، وتعود إلى الحياة التي تعرفها، التي تستطيع التحكم فيها، لكن هذا لم يحدث، لم تمر برأس «زمهرير» قافلة الحُلم، كان نومًا متقطعًا خاليًا من الأحلام، أتعبها أكثر مما أفادها.

أيقظتها أيادي الشمس الحانية، بلمسة رؤوف لجبينها، وزقزقة «دُرسَة الثلوج» تُدغدغ أسماعها. كم تحب «زمهرير» هذا الطائر البهي، أجمل العصافير مُحيًا وسَمتًا، وأعذبها زميمًا[1] وتغريدًا.

لوهلة، لم تتذكر أحداث الأمس، ولا السبب الذي جعلها تستيقظ على قمة جبل جليدي، ثم استعادت كل شيء مع أول دفقة ألم ألمّت برأسها. لو كانت وسط عشيرتها، لالتمسَت عند «المُطبِّب» خليطًا زبديًا يُطفئ النار المنبعثة من منابِت شعرها.

عندئذ انتبهت لوجود الهياكل العظمية الكاملة!

انتفضت في فزع، رأت في عنق كل هيكل عظمي قلادة من الصدف، من النوع الذي لا يُمكن العثور عليه إلا في قاع النهر المتجمد، أدركت من اتساع عظام الحوض أنهن جميعًا من النساء، ومن اكتمال نموها أنهن بالغات.

- الآن فهمت!

طافت بعقلها قصة كانت قد سمعتها من عرافة الماء، عن همجي يجوب الأرجاء، خسر امرأته قبل سنوات، خرج معها للصيد وعجز عن حمايتها، فأكلها نمر الثلوج المفترس. البعض يكذّب هذه الحكاية ويقول إن الهمجي قتلها بنفسه، عندما اشتد بهما الجوع ثم تغذّى على لحمها، وآخرون يزعمون أنه قدَّمها قربانًا لنيل رضا رب الثلج. المهم أنه صار ملوثًا بالغضب، وكان الغضب هو خطيئة عشيرته، فنبذوه وأبعدوه. ظل يجول الجبال بغير هدف، ينتقل من كهف لآخر، ومن قمة لسفح، حتى أفقدته الوحدة رشده، صار يطوف الأرجاء متربصًا بالنساء المنعزلات عن الجماعة، يختطف نساء العشائر اللاتي يخرجن بلا صاحب، ويتخذ منهن بديلًا يستعيض به عن امرأته التي فقدها،

---

(1) الزميم: صوت العصفور.

يمضي برفقتهن سبعة نهارات كاملة، ثم يُلقي بهن إلى نمر الثلوج المفترس، ينهش لحمهن حتى لا يبقى منهن إلا العظام.

روَّضت الخوف الذي ركض في ساحات صدرها يصول ويجول، تهامست «زمهرير» لنفسها في قوة وعناد:

- لن أكون هيكلًا عظميًا في كهف موبوء، أو في بطون نمر الثلوج لحمًا معصوبًا.

ما إن استقرت على قرار الهرب حتى ظهر الهمجي أمامها، في قمة نشاطه ولياقته، بعد نوم طويل عميق. كانت جائعة، رغم أنها أجهزَت على الغذاء الذي أحضره لها بالأمس، خرجت ورقة الشجر من بين يديها نظيفة لامعة.

أقبل عليها بغتة، فاتخذت وضعية دفاعية، لا طائل من ورائها في الحقيقة، إذ أمسك بعضدها، وجرّها كما فعل سابقًا، قفز الخوف يخمش صدرها، ماذا إن قرر إلقاءها طعامًا لنمر الثلوج الآن، دون أن يُبقي عليها لسبعة نهارات كاملة، كما تقول القصة المروية على لسان عرافة الماء الآسية؟

أو الأسوأ، أن يُبقي عليها بالفعل، متخذًا منها امرأة بديلة عن تلك التي فقدها.

تشتت إدراكها، وطاشَت حركاتها، استحلفَته بربِّ النجمات، وسيِّد الحكايات، أن يتركها وشأنها.

***

كان نزول الجبل الجليدي أشد جهدًا وأكثر وعورة من تسلقه، لم تبذل «زمهرير» هذا المجهود الكبير قط، كانت تعيش مع عشيرتها فوق تلة صغيرة، لا يتطلب النزول والصعود إليها مشقة كبيرة.

- أستحلفك برب الصقيع أن تتركني أرتاح قليلًا.

بدا صوتها مهشّمًا، وطاقتها شحيحة، ألقى عليها الهمجي نظرات صامتة مستبيحة، لم تتبيَّن ما تحويها، إذ حجبت نُدَف الثلج عنها أمارات وجهه، وما تعكسه من خلجات نفسه.

ترك ذراعها أخيرًا، تحسست موضع أصابعه المحفورة على ساعدها، بألمٍ سعَت لإخفائه جاهدة.

ألقت بجسدها أسفل صخرة مجوفة، جاورها الهمجي صامتًا، مسح الثلج عن وجهه بقفازه السميك، وجمع شعره الطويل إلى الخلف في عقدة، فرأت قسماته بوضوح للمرة الأولى، ما اجتذب كل انتباهها في تلك اللحظة شيء دائري زعفراني اللون في منتصف جبهته، عجزت عن استنباط هويته!

انطبق جفناها من فرط التعب، تركت «زمهرير» رأسها يغوص بين ذراعيها، وعقلها يسبح في ملكوت النوم.

عندئذ راودها الحُلم، فتحررت «عيناء» من رأسها.

***

انتفضت «عيناء» فوق فراشها، بالغرفة رقم (6) بالبنسيون، ترتجف في جزع، مستشعرة برودة الجليد فوق بشرتها العارية.

لم يكن حلمًا عاديًا ذاك الذي كانت تقف في منتصفه قبل لحظات، كان حقيقيًا كالفاخورة، كحياتها، كالشمس الساطعة.

فتحت قبضة يُمناها، لتـفاجأ بنُدَف من الثلج تتجمع في منتصف راحتها! تنظر إليها بذهول متسائلة:

- هل مسَّت عقلي أيادي الجنون، أم أنني من البداية شذوذ ملعون؟

# (24)
# رجل الثلج أوتزي

لم يكن لشعورها توصيف مناسب، أكثر من «ورق الدشت»[1]، تتخيل «أنهار» نفسها إحدى تلكُن الورقات الصفراء الضعيفة، بيدَ أنها لا تُماثلها في الخِفَّة، ثمة ثقل عظيم يجثم فوق صدرها كصخرة، لا مُزحزِح لها ولا كاسِر.

تُصر الحياة على الكتابة فوق وجهها، كلما تشبَّعت بالأحبار، وتملكت منها فواجع الأقدار، أعادت الحياة تدويرها، ولصق حوافها بالصمغ، كي تصلح لكتابة فصول جديدة، تمامًا كورق الدشت مُعاد التدوير.

هذه المرة سئمَت القصة المكررة، نفرَت من الحدوتة المُستهلَكة، بحبكتها المتشبعة بالألم، والنبذ، والخذلان. لو كانت تملك من أمرها شيئًا، لاختارت مسارًا أجمل لحياتها، تلتقي فيه سعادتها المفقودة، تُنفِّس عن البركان المحتدم بداخلها، وتفقأ أعين صنم الخوف الذي تدين له -حتى الآن- بالولاء والطاعة.

برق برأسها صداع نصفي، كاد يشجه إلى نصفين؛ صباحًا، خاضت مع أمها شجارًا عنيفًا، بعدما رأت قصَّة شعرها الجديدة. تبرأت منها، ومن أفعالها، لم تسمح لها بطرح أسبابها، كل ما شغل خاطرها كيف سيراها الجيران، ويتهامسون من خلفها، عن عيار ابنتها الذي انفلَت. شعرت «أنهار» أن كرامتها مُهدرَة، ومشاعرها توطأ بالأقدام، لم تقل سوى: «فليحترق الجيران». ثم غادرت البيت كعاصفة هادرة، بعد أنْ صرخت الأم في وجهها: «لا تعودي إلى هذا البيت ثانية».

(1) ورق من مُرتجعات الصحف، وأجزائها المُهدَرة، يعاد تدويره وتنظيفه، ليستخدَم مرة أخرى في الكتابة.

لاحت على شفتيها ابتسامة ساخرة، كانت تتلوى طيلة الأيام الماضية، لعدم تحملها البقاء مع ذاك البغيض تحت سقف واحد، والآن طُردت من البيت بعد أن فارقه، متخذًا قرارًا مفاجئًا بقطع سفرته، والعودة إلى «بورسعيد». لم تنشغل بحيثيات قراره، كل ما خصّها أنها الآن صار بإمكانها أن تتنفس. أخرجت من حقيبتها الصورة التي التقطتها على غفلة للرجل الذي حال الخصام بينها وبينه، تُرى كيف يدبّر أمره دون مال أو هوية؟ هل استعاد ذاكرته، أم تكالبَت عليه هموم النسيان؟ كيف يتعايش مع الناس، بينما لا يستطيع التفرقة بين الوجوه؟ هزّت رأسها تنفض الأسئلة المتلاحقة، ما شأنها لتقلق؟

- صباح الخير أستاذة «أنهار».

عرفت صوته قبل أن ترفع رأسها، وتطالع وجهه المرتبك، خفق قلبها كما لم يخفق من قبل، أفلتت أناملها القلم، وأسقطت تفل الشاي فوق الورق، وهي تحاول دس الصورة في حقيبتها بسرعة. لم ينتظر ترحيبها، جلس «زعفران» في المقعد المواجه لمكتبها بالجرنال. يقول بصوتٍ حرص على أن يكون خفيضًا، بمعزَل عن آذان زملائها:

- أعرف أنكِ لا ترغبين في رؤيتي ثانية بعد لقائنا الأخير في اللوكاندة، وأحترم قرارك، مؤكد، إلا أنني يجب أن أعتذر لكِ أولًا.

كانت ماهرة في إخفاء عواطفها، متمرسة في إبداء نقيضها، لم يلحَظ «زعفران» سعادتها بيادرته غير المتوقعة، حتى حسبها ممتعضة لزيارته المفاجئة من غير موعد.

ظلّ يتلظى فوق نيران القطيعة التي وقعت بينهما، وبخاصة عندما ناداها في الشارع ولم تستجِب. باتت جزءًا مهمًا من يومه، متموضعًا في منتصف حياته، ربما لأنها أنقذته، وربما لأنه لا يثق بسواها، أو ربما لسبب آخر لا يزال مخفيًا في ثنايا لا وعيه.

أردف مطرقًا برأسه في ندمٍ بليغ:

- ما كان عليّ أن أعاملكِ بغلظة، لم تستحقي ذلك قط، وبخاصة بعد كل ما فعلتِه لأجلي، سأتفهم إن قررتِ أنكِ لا ترغبين في رؤيتي مرة أخرى.

أراد أن تكون كلماته واضحة وصادقة، ليس لأنه إنسان جيد، بل لأنها لا يليق بها إلا هذا القدر من الشفافية. هكذا فكَّر.

بسمة صغيرة تفلتت من ثغرها، لم تتمكن من أسرها هذه المرة. لم يلحَظها، فسَّر صمتها رفضًا، وتنهيدتها القصيرة ضيقًا، ونقرات أصابعها فوق المكتب نفاد صبر؛ وقف يقول ولا يزال مطرقًا:

- أعتذر أيضًا أنني جئتُكِ من غير موعد، وشغلتكِ عن عملك.

ترك أمامها فوق المكتب الكيس البلاستيكي الأسود، الذي كان يحمله منذ أن دخل. سددت إلى وجهه نظراتٍ مستفهمة، ثم فتحت الكيس تسترق النظر. اتسعت ابتسامتها ما إن وقع ناظراها على شريط فيديو لأحد أفلامها المفضلة. قال موضحًا، ومفارقًا في آنٍ:

- هدية وداع بسيطة، كوني بخير.

قالت بلهفة تستبقيه، وقد رأته يستدير على عقبيه مغادرًا:

- انتظر.

ارتفع صوتها قليلًا، فانتبهت إحدى زميلاتها بالمكتب، بدأ الشك يتسرب إلى نفسها أنه ليس لقاء عمل، فراقبتهما من طرف خفي، حملت «أنهار» حقيبتها الجلدية البيضاء، وضعت فيها دفترها وأقلامها وجهاز الووكمان، ثم أشَّرت له بالخروج معها.

لم تتبادل معه حديثًا طويلًا في أثناء انطلاقها بالفيات عبر شوارع القاهرة، من المُسجِّل تتصاعد نغمات لم توليها انتباهها، كل تركيزها كان منصبًا على الرجل الجالس بجوارها، وقدومه إلى مكتبها خصيصى للاعتذار، رغم أنها تُدرك -لإنصافها- أنها في لقائهما الأخير استفزته ابتداءً.

توقفت عند مطعمها المفضل، انتقت الطاولة نفسها التي تحبها بمحاذاة النيل، لم تطلب الكِشك هذه المرة، اكتفت بكوبين من الليمون بالنعناع المثلج، كان مذاق الرشفة الأولى منعشًا.

- فيمَ أنتَ شارد؟

تطلع إليها طويلًا، بأكثر مما فعل قبلًا، حتى إنها ارتبكت، فارتشفت من العصير حتى أجهزَت على نصفه.

الشجر على حلمات تذوقه، حتى الدماء التي تفجرت من ضرسه بعد ضربها له، شعرت بها في فمي.

- من التي ضربته؟

تجلّى تردده ثانية، يدرك تمام الإدراك أن ما يقصه على مسامعها يخالف المنطق، وقوانين الحياة العتيقة، يضرب بعرض الحائط قواعد المألوف، وما يجب أن يكون.

قال، ثم أشار بإصبعه صوب المضغة القلقة في صدره:

- امرأتي، كانت معي في الحلم نفسه، لكن في هيئة فتاة بدائية اسمها «زمهرير»! عرفتها بقلبي.

ها قد عاد إلى هذه القصة مرة أخرى، المرأة المجهولة! لم تدع أعصابها تتفلت كما حدث في المرة الماضية، تجرعت رشفتين كبيرتين أنهت بهما على ما تبقى من العصير. أردفت بنبرة هادئة:

- لقد بت ليلتك في البنسيون، أليس كذلك؟ خمنت ذلك لأنني عرفت أنك لم ترجع إلى اللوكاندة، هل تحدثت إلى الفتاة مرة أخرى؟ أقصد في الحقيقة لا في الحلم.

- لم تتعرفني يا «أنهار».

ساءها الألم الذي تبدَّى على وجهه، ثم شعرت بقدر كبير من الإشفاق، جعلها تتفهم ما يعانيه هذا الرجل، الذي لا يتذكر من يكون، ويحاول حل هذه الأحجية بقطع خاطئة في تصورها، لكن من هي لتتصور حياته؟ لم يسبق لها معرفته قبل الزلزال. تركته يتحدث ولم تقاطعه:

- تقول إنها لم يسبق لها رؤيتي، وإنها متزوجة برجل يُدعى «جمال» فقدته في الزلزال، لم تصدق أنني قد أكون هذا الـ «جمال» الغائب عنها.

- طبيعي يا «زعفران»، لا تغضب مني أرجوك، لكن لو كانت هذه المرأة زوجتك، حبيبتك، خطيبتك، لتعرفتك من النظرة الأولى.

ثم أردفت ما إن رأت تلك القسمات العنيدة على وجهه:

- تلك المرأة، أين فقدت زوجها؟ هل أخبرتك؟

- تقول إنها كانت معه بينما ضرب الزلزال بيتًا صغيرًا بمصر القديمة.
- هلا فسَّرت لي، كيف تفقدك الفتاة في مكان، وأعثر أنا عليك في آخر؟ كيف حدث هذا الانتقال في رأيك؟ ولماذا لا تتذكرك الفتاة؟ والأهم، ما علاقة الحلم بكل ذلك؟

ضرب الطاولة فاهتزت، أريق بعض من العصير فوق المفرش المُذهَّب، لم يعبأ بذلك، لم يرَه من الأساس، صبَّ كل طاقته في كلماته:

- أثق أن ثمة رابطًا يجمع كل تلك الأسئلة في عقد واحد، إلا أنني لا أتمكن من العثور على الخيط الصحيح.

مسَّت كفَّه بخفةٍ تطالبه بالهدوء، نظر إلى أناملها لثانيتين، قبل أن يزيح قبضته ببطء فوق الطاولة. أبعدَت كل ما يفصل بينهما من أكواب، ومزهرية تحوي وردة بلاستيكية حمراء، مسحت على المفرش، ثم أخرجت قلمها ودفترها. تقول بحماس:

- عندما تواجهني معضلة، أجتهد في حلها بالورقة والقلم، أرسم خريطة من دوائر وأسهم وعلامات استفهام، حسنًا، فلنرتب أفكارنا، دعنا نسرد الأحداث من البداية، فلربما نعثر على هذا الخيط المفقود.

فوق الورق، رسمت خريطة تبدأ من لحظة عثورها عليه تحت أنقاض عمارة الموت، وحتى هذه اللحظة التي يجلس فيها معها حول طاولة على النيل، رغم جهودهما التي توحدت، لم يخرج شيء جديد، ولم يبلغا مرفأ الحقيقة، كل شيء يؤمن به ما زال يفتقد المنطق، شذرات من مشاهد متفرقة، لا تجمعها قصة واحدة، بتسلسل عقلاني رشيد.

حلَّ الصمت ضيفًا مرحبًا به، أجلسته بينهما، فيما كان عقلها شاردًا، يعتصر الأفكار في محاولة يائسة، لمساعدة الرجل العابس، الذي يتسرب الأمل من ثقوب طاقته يومًا بعد يوم.

- «زعفران»، عندما كنتَ في الحلم، أي عندما كنت تعيش حياة هذا الرجل البدائي، هل تعرف تحديدًا في أي عصر كان ذلك؟

أدهشه سؤالها، كبَس ذهنه في محاولة للوقوف على عصر بعينه. اقتطعت «أنهار» صفحة جديدة من دفترها، كتبت أمامه تسلسل العصور منذ فجر

التاريخ، من لحظة الانفجار العظيم، إلى أن توقفت عند عصرٍ اكتست فيه أجزاء من الأرض برداء ثلجي سميك، وتطور خلاله استخدام الأدوات المعدنية جنبًا إلى جنب الأدوات الحجرية. هنا أوقف استرسالها، وضع إصبعًا فوق كلماتها المكتوبة يتمتم:

- كان الرجل البدائي يعيش في هذا الزمن.

استغرقها التفكير وهي تتأمل عبارة «العصر النحاسي» تحت إصبعه. قاطع شرودها بنفاد صبر قائلًا:

- لماذا سألتِ؟

- ذكّرني ذلك بخبر نُشر في جرنال ما أواخر العام الماضي، لا شيء مهم.

حثّها على الإيضاح. هزّت كتفيها بلا مبالاة، تثرثر بما لا علاقة له بالأحداث الراهنة، بينما تبحث عن الجارسون، لتطلب له كوبًا آخر من العصير بدلًا من الذي أريق:

- خبر غير مهم، في جرنال مغمور، عن مومياء عُثر عليها أعلى جبال الألب، على الحدود بين النمسا وإيطاليا، أسماها العلماء بـ «رجل الثلج أوتزي»، عندما ذكرتَ الثلج في حلمك مرّ بعقلي هذا الخبر فسألتك عن الزمن من باب الفضول، لا شيء مهم كما ترى.

- وهذا الـ «أوتزي» إلى أي عصر ينتمي، هل توصّل العلماء إلى ذلك؟

- عاش قبل أربعة آلاف عام تقريبًا، أي في العصر النحاسي.

- وكيف تأكد العلماء من انتمائه إلى العصر النحاسي؟

- لا أعرف الكثير عن التقنيات المستخدمة في تحديد أعمار المومياوات، أظن أن الآثار تُؤرّخ باستخدام الكربون، عُثر معه على فأس نحاسي وسكين من حجر الصوان، أي أنه لا ينتمي إلى عصور ما قبل استخدام المعادن في الحياة اليومية، هذا مؤكد.

تبادلا نظرات غير مفسرة، أردف خلالها:

- كيف مات «أوتزي»؟

- طعنًا برمح اخترق صدره من الخلف.

- ذاكرتك قوية.

اتسعت ابتسامتها موضحة:

- أنا الصحفية التي كتبت الخبر في الجرنال المغمور، قبل أن تنقلني وساطة أبي إلى الجرنال الذي أعمل به الآن.

بادلها البسمة بمثلها، يُصر:

- ما زلتُ عند رأيي: ذاكرتك قوية.

أخرجت الكيس الأسود من حقيبتها، تأملت شريط الفيديو وهي تسأله بابتهاج، لم تسعَ لإخفائه هذه المرة:

- كيف عرفتَ أنني أحب «أميتاب باتشان»؟

- رأيتُ صورة صغيرة تظهر من حقيبتك في السيارة، بالطبع لم أعرف من يكون، ظننته أحد أقربائك.

ضحكت ملء قلبها، أردف باسمًا:

- كنتُ بحاجة إلى المال من أجل الإقامة في البنسيون، رأيتُ بالقرب منه محلًا لشرائط الفيديو، يُعلق ورقة يطلب فيها عاملًا باليومية حتى يعود العامل السابق من إجازته المرضية، وما إن رأيتُ الصورة على شريط الفيديو عرفتُ أنه ممثل.

- ولماذا اخترتَ هذا الفيلم بالذات؟

كانت تُدير بين يدها الشريط الأسود، بغلافة المطبوع عليه اسم «لقاء الجبابرة»[1].

- سألتُ صاحب المحل عن رأيه فرشّح لي هذا الفيلم، وفيلمًا آخر اسمه «كولي الشيال»[2]، قال إنها أكثر الشرائط المطلوبة عنده، لكن بسبب أجرتي القليلة لم أتمكن سوى من استئجار شريط واحد.

---

(1) ترجمة غير حرفية لـ Gangaa Jamunaa Saraswati، من أشهر الأفلام الهندية المسجلة على شرائط الفيديو في الثمانينيات والتسعينيات.

(2) Coolie.

لم يسبق لأحدٍ أن بذل جهدًا لإسعادها، وبخاصة بإنفاق كل ما يملك! كان عليها أن تفرح في هذه اللحظة، بيد أنها انطفأت بغتة؛ تجدد إدراكها كم هي وحيدة ومنبوذة، لم تتلقَّ يومًا الحب الذي تستحقه، أو ربما هي التي لم تمنح الفرصة لأحد، أي أحد كي يبادلها ما يليق بقلبها. خبتَ بريق عينيها. غاصت نظراتها في النيل، ولم تطفُ ثانية، إلى أن باغتها:

- هل هناك ما يزعجك؟

هزَّت رأسها نفيًا، أبدَت ابتهاجًا مصطنعًا لم ينطلِ عليه إذ قالت:

- باستثناء ألغازكَ المستعصية وأحلامكَ العجيبة واختيارك لفيلم رأيته ألف مرة، لا، لا شيء يُزعجني.

- «أنهار».

بلغ الاسم أسماعها كما لو أنه يُنطَق للمرة الأولى، انتبهَت إلى أحرفه ولحنه، لم يسبق لها أن فكَّرت أن اسمها رقيق، ناعم، دافئ، لم تعبأ ولو لمرة بتعنيفه لإغفاله اللقَب. أردف مؤكدًا:

- أستطيع الاستماع إلى ألغازك وأحلامك أيضًا.

هزَّت رأسها تُداري تأثرها بكلماتٍ زلزلت قلبها، بقوة أكبر من الزلزال الذي شهدته الأرض قبل أيام. كانت تشعر أن نفسها تتمهد شيئًا فشيئًا لاستقبال مثل هذه الزلزلة، التي لم تسعَ لها. كانت تلمح الشروخ التي يُحدِثها كل لقاء يجمعها به، وكل حديث يدور بينهما، حتى وإن كان كلامًا عابرًا كالحديث عن الطقس، كانت تشعر أنها تتورط، وهي لم ترغب يومًا في أن تتورط.

مست أطراف شعرها القصير من الخلف، كأنها تستمد منه القوة، لتتذكر، أي حياة رسمتها لنفسها، نبذت فيها كل ما يستثير هشاشتها وضعفها. النساء مثلها يحببن الرجال بلا ذاكرة، لئلا يقعن في المقارنة مع غريمات سابقات، وذكريات لم يكُنَّ جزءًا منها. يحببن الرجال بلا تاريخ، لينقُشن الكلمة الأولى، والسطر الأول، بحجر قبل اختراع القلم، ويُحدِثن الانفجار العظيم. يحببن الرجال بلا خبرات، ليكُن المرشد والدليل. وأكبر التحديات التي تواجهها، أن الذي أمامها الآن رجل مثالي للوقوع في حبه.

قالت في محاولة لإبعاد مسار الحديث عنها:

- قلتَ في الطريق إنك تبحث عن عمل ثابت، رأيتُ لافتة تطلب عاملًا في فاخورة بالقرب من البنسيون الذي تقيم فيه.

يدرك أن ثمة الكثير من الأمور الخفية، التي تدسها في أبعد نقطة من أعماقها، لا يتذكر خبراته السابقة في التعاطي مع الناس، رغم ذلك تجتاحه غريزة قوية، أنها تُخفي وراء هذا المظهر الرصين جرحًا غائرًا نازفًا. فهم رغبتها في تحييد مسار الحديث، فتجاوب معها:

- حقًا؟ سيكون هذا رائعًا، لكن اعذري جهلي، ماذا تعني «فاخورة»؟

- مكان لصناعة الفخار، قُلل، ومزهريات، وأزيار، ومداخِن، أشياء من هذا القبيل.

تفكَّر قليلًا، ثم أبدَى حماسًا حقيقيًا:

- لا أملك أي فكرة عن صناعة الفخار، لكن بإمكاني أن أتعلم.

- هيا إذن، سأوصلك، وأزكيك عند الفخراني صاحبها.

- هل تعرفينه؟

- أجهز مقالة صحفية عن ابنته الهاربة من مصحة عقلية، هيا لنذهب، قبل أن يأخذ للعمل شخصًا غيرك، آه نسيتُ، هذا الظرف لأجلك.

تناوله منها متفحصًا لمحتواه، وما إن وجد بداخله المال حتى عزم على ردِّه، أوقفته بإشارة من يدها قائلة:

- هذا المال ليس مني، إنها معونة صرفتها الحكومة للمتضررين من الزلزال، كنتُ قد أدرجتُ اسمك في قوائم المستحقين لها.

تردد للحظات، ثم طوى الظرف في جيبه، يرميها بنظراتٍ ممتنة، لا يجد من الكلمات ما يليق بكرمها وشهامتها و... قلبها.

# (25)
# الفخار غير المحروق

طابَ لـ «زعفران» ملمَس الفخار قبل الحرق، رطب، عجيني، طوع بنانه. الفخار هو الشيء الوحيد الذي تسنَّى له التحكم فيه، بتشكيله كما يشتهي، بعد أن فقد ذكرياته واختلط عليه الحلم بالواقع وخرج كل شيء عن زمام سيطرته.

لم يحب الفخراني الكبير، ولم يكرهه كذلك، اعتملت في نفسه مشاعر محايدة إزاء الرجل الكتوم شحيح التواصل بالأعين. شرح له كيف يتحكم في العجين، فوق عجلة الدولاب والعجلة، إلى أن يُسيِّره إناءً مستويًا مُكتمل التكوين، فيما انكبَّ هو على تلوين المُنتَج، والرسم عليه بما تبادر إلى ذهنه، وأحبَّه زبائنه.

تحسست أنامل «زعفران» الطين، تُشكِّل منه جرَّة، لها بطن كبير، وعُروَتان، وغطاء. أذهله قدرة الفخار على الجمع بين قوى الطبيعة المختلفة، بعناصرها الأربعة الأساسية؛ الأرض، والماء، والهواء، والنار!

حِرفة جليلة، وفنٌ أصيل، آشعره كما لو أنه يُمسك بين يده بتاريخ الإنسانية جمعاء، منذ آدم عليه السلام، وحتى آخر مخلوق قُذِف إلى الحياة للتو.

أخبرته «أنهار» أن الفسطاط مدينة بناها القائد «عمرو بن العاص»، اختار لها اسمها، واتخذ منها عاصمة لمصر، وأن العديد من الحضارات والثقافات تعاقبَت عليها، شكَّلتها، ونُسجَت فيها الحكايات والأساطير، حتى فاح منها عبق التاريخ، وازدانت برونقه.

وزاد من جمال الفسطاط أنها قلب حِرفة الفخار الشعبي ومنتجاته التراثية على مر العصور.

لم تُتَح لرجل الجليد البدائي في الحلم فرصة تطويع أول مادة سهلة التشكيل وُجِدت في الطبيعة، إذ عاش في زمان ومكان يُحيط به الثلج من كل اتجاه، لذا كان «زعفران» ممتنًا للمسار الذي هيّأ له فرصة التعاطي مع هذا المُكوِّن الطبيعي المُذهِل.

استقطع من الوقت ما لزِم للراحة، وتأمل جدارية فخارية هامَ كثيرًا برسوماتها وألوانها المتداخلة. بدَت لوحة فنية لفنان عظيم.

فوق الأرفف عثر على كتب عديدة تتحدث عن مهنة الفخراني، الذي لمَس «زعفران» افتخاره بوراثتها أبًا عن جد.

قرأ في بطون أحد الكتب أن الفخار صُنع في مصر منذ العصور الحجرية المتأخرة، تراثًا وميراثًا قوميًا من الأجداد العِظام. كان الفخار يُصنع يدويًّا دون عجلة دوارة، بالاستعانة بعصا مسطحة لتشكيل الإناء من الداخل، وفي بعض العصور كانت تُنتَج أشكال على هيئة حيوان أو طير.

ذكّره هذا بشيء رآه داخل الحلم، عندما كان يتلبّس جسد ذلك الرجل البدائي، في حقيبة «زمهرير» التي تُعلّقها على رقبتها، خُيِّل إليه أنه قد أبصَر ريشة بومة الحكمة، المقدسة عند بعض عشائر هذا العصر.

لسبب غير واضح، شعر أنه يألف هذا النوع من البوم الذي يعيش في المناطق الجليدية، وكأنه رآه سابقًا، لا في الحلم، بل في الواقع!

فهل تكون ذكرى منسية تحاول العودة إلى رأسه الخالي كبطن الجُرة؟

- هل أدفع يوميتك لتقرأ الكتب؟

ترك «زعفران» الكتاب فوق الرف، ثم عاد إلى العجلة، يُجرِّد الزيادات ويسوِّي القواعد والفوهات، مخافة إغضاب الفخراني الكبير، فيصرفه من العمل، وهو في أمس الحاجة إليه.

تراقصت النيران في الفرن، رقصة بدائية لطالما أدّتها على عزف الرياح العذب، راقَب «زعفران» ألسنة النار، وأبخرتها الحارة، تتصاعد لتحرق الطين اللين، فيستوي آنية ومزهريات وكؤوسًا صلبة. راقب الجرّة التي صنعها على عينيه، تتخذ شكلًا أبديًا لا مُتلِف له، إلا بكسرها.

رأى نفسه كجرّة طين، ينتظر القمائن[1] الحامية، والحقائق المجردة، تُسوِّيه على نارٍ هادئة، لتتحدد هويته الأبدية.

***

كان يومًا طويلًا، بلا أحاديث جانبية، أو لفتات عشوائية، العمل فحسب هو ما تسوَّد عقل الرجلين، مُجمَل ساعات العمل في الفاخورة.

حلَّ المساء، ومعه قمر فضولي، يستلِذ بالتلصص على أحلام الخَلق في المنام، وكان أعجَب ما شهد عليه على مر الأزمان، حُلم الرجل الفاقد لذاكرته وهويته. تتبعه القمر بشغفٍ كبير، يستدعي جارياته من النجمات الحالمات، يلْكن خيوط الضوء المنعكسة من الشمس الآفلة، ويشهدن على ما سيمر بعقل «زعفران» في حلمه التالي، هذه الليلة.

قبل أن يغادر «زعفران» الفاخورة، أوقفه الفخراني الكبير، أبدى استحسانه لجديته في العمل.

كان الفخراني عاكفًا أمام الحوض على نقع بودرة الطمي، لتخليصها من الشوائب التي تطفو فوق الماء، عندما قال:

- أنتظرك صباح الغد، أفتح أبواب الفاخورة في السابعة.

ثم أضاف محذرًا:

- سيظل عملك بعيدًا عن الفرن، أي زيادة في درجة الحرارة أو ساعات التسوية ستتسبب في عيوب وكسور بالفخار، غدًا سأعلمك «التغطيس».

لما أبدى «زعفران» أمارات الجهل، أردف الفخراني الكبير بصبرٍ نافد:

- سترش قطعة الفخار بالبطانة قبل تلوينها، البعض يستخدم «الديكالة» لتزيين الفخار، صور جاهزة يعني، لكن الفخراني الحقيقي يرسم ويلون يدويًا.

جفف يديه، ثم أنقده أجرة يومه كما اتفق مع الصحفية. أخرج من جيب جلبابه الرمادي صورة صغيرة داخل ظرف بالٍ، قرَّبه منه قائلًا:

---

(1) أفران طين بدائية.

- نسيتُ أن أعطي هذه الصورة للصحفية، أخبرها أنني عثرتُ عليها بصعوبة، ولا أملك غيرها.

كانت صورة لابنته، إحدى تلكُن النسخ التي استخدمها يومًا لاستخراج بطاقة ورقية رسمية لها، عثر عليها بين أغراض أمها.

من باب الأمانة، لم يلقِ «زعفران» نظرة على الصورة التي بداخل الظرف، دسَّها في جيب بنطاله، ووعده بإيصالها إلى «أنهار».

قبل أن يغادر «زعفران» الفاخورة، انتبه لكون جزء منها يضم آنية فخارية غير محروقة، لم يحرص الفخراني على حرقها مع باقي منتجات اليوم، ولم يكلف عماله وصبيانه بذلك، عجنها بيده، شكلها، ثم أبقاها جانبًا في الزاوية!

لم يُبدِ «زعفران» الفضول تجاه تلك القطع غير المحروقة، مخافة أن ينزعج الفخراني من تدخله فيما لا يعنيه، أبقى تعجبه لنفسه. لم يبتعد كثيرًا عن الفاخورة، توقف عند محل شرائط الفيديو، لينقد صاحبه ثمن الشريط الذي أهداه لـ «أنهار» بدلًا من استئجاره. عندئذ رصد الفخراني الكبير وهو يلتف حول الفاخورة، عرفه من الجلباب المتسخ بالطين والألوان، كان الفخراني يُسلِّم الآنية غير المحروقة لامرأة قصيرة القامة، تعتمر على رأسها قبعة عريضة. لم يستطع «زعفران» تبيُّن ملامحها، لا لضعف الإنارة، أو لبُعد المسافة، بل بسبب المرض الذي ابتُلي به.

طافت بذهنه علامات استفهام عديدة، لماذا لم يحرق الفخراني هذه الآنية؟ ولماذا يبيعها في خفية عن الأنظار؟ ومن المُشتري يا تُرى؟

***

عاد إلى البنسيون يجر جسده تعبًا، ألقى نظرة مطولة تجاه غرفة «عيناء»، ثم دخل غرفته دون حاجة إلى أن يضيء المصباح، رمى بنفسه فوق الفراش، وراح في سبات عميق.

# (26)

# العصر النحاسي 2

حلَّت تباشير الظهيرة، تسوق في أعقابها دفء الشمس الباهتة، المُنفلتة من قبضة الصقيع. يتعجَّب الراثي، أنَّى للشمس مِن قُدرة على أن تطلَّ من خصاص السماء، بوجهها الشاحب المشرب بحُمرة خفيفة، ثائرة على كل هذا البياض من حولها، ومُعكِّرة له؟

لم تشعر «زمهرير» بحرارة الشمس، مُذ استيقظَت ترتجف خوفًا أسفل الصخرة، ورأت الهمجي يجلس جوارها ينظِّف رمحه.

أحسَّ «زعفران» بوعيه يقظًا، صافيًا، مكدسًا داخل رأس الهمجي، يجلس مسلوب الإرادة في مقعد المتفرج. ذابت أحاسيس «زعفران» في جسد الهمجي، فشعر بالبرد يلفح وجهه، والغضب يعتمل في نفسه، واهتمام كبير بالفتاة النائمة على بُعد خطوات منه.

ما إن تنبَّه ليقظتها حتى توقف عما يفعل، قائلًا بغلظة:

- نومك ثقيل.

آهٍ يا سيِّد السفح والقمة وما بينهما كيف أتخلص من هذه الورطة؟ تهامسَت «زمهرير» لنفسها في قلق. لم يسبق لها أن رأت سيد السفح والقمة وما بينهما، لكن نساء عشيرتها أرضعنها مع الحليب حُب السيِّد واجِد الوجود، الواحد في ذاته، أوَّل الزمن ومنتهاه، مُنبِت الورق على الشجر، وواهِب السحُب حَملها من الطَّش والرَّش[1].

---

(1) الطَّش: المطر، الرَّش: أول المطر ويكون خفيفًا.

وعندما طالبتهن «زمهرير» برؤيته، أخبرنها أنه لو كان صغيرًا لرأته، لكنه كبير جدًا، إلى الحد الذي يُعجِز الأعين عن رصده. فكانت تقول بعنادٍ طفولي: سأكبر، وستكبر عيناي لأراه.

نبت فألها من فمها، وهبَ لها عينين واسعتين بأهدابٍ طويلة جذابة، يسترق إليهما الهمجي النظر، بنهمٍ صارخ.

كان يؤمن كذلك أن للكون خالقًا معبودًا، ومن خزائن نعمائه يمنح ويجود، واحد أحد، فرد صمد، هذا ما تؤمن به كل عشيرة مر بها خلال ترحاله، أخبروه أنهم قد توارثوا هذا الإيمان من أسلافهم، وصولًا إلى «آدم» أبي البشر.

أطلَّ الظلام بغتة، تلفَّحَت السماء بعباءة ما بعد الغسَق. سدَّ الهمجي بضخامته مدخل الصخرة، ممتصًا خيوط النهار بداخله. تلمسَت يداها طريقها صوب الجُدُر، تحتمي بدرعٍ من ظلام، ضد هجمة مفاجئة قد يأتي بها من حيث لا تتوقع.

أخذت «زمهرير» وضعية الاستعداد للهجوم، تعلمتها من أمهر صيادي عشيرتها، عندما كان يقفز أحدهم فوق الحيوان الطريد لشل حركته ثم ينقض على عنقه بخنجر من قرون ثيران «البيسون».

مُثنية الركبتين، مباعدة الكوعين عن بدنها، انتظرت أن يُبدي الهمجي العداء أولًا، فتنقض عليه بجسدها، قاطعة العرق النابض في عنقه بقرن الرنَّة الذي تحمله في حقيبتها.

الضوء الشحيح في موضعها حجب عنها رؤية ملامحه، ومن ثَمَّ استشراف نواياه. تجهل أنه يقاوم شعورًا ضاريًا يحتدم في أحشائه، برغبة حثيثة في قتلها! بزغت في نفسه مذ آن رآها، واشتمَّ رائحتها، رائحة مألوفة جدًا، كأنها رائحته هو، لا تلك التي تنبعث من جلد ثور المسك الذي يستر به بدنه، بل رائحة جلده! ثمة صوت خفيت يسكن رأسه، يخبره أنها كيان موبوء، وجب القضاء عليه، ويحذره من السقوط ضحية لإغوائها.

- ستتحرك بعد قليل.

أمرها وهو العارف بأنها ستسير وراءه دون مقاومة، مخافة أن يسوقها من شعرها، كما فعل في اليوم السابق.

بينما تراقبه «زمهرير» باضطراب متواتر، يجمع أدواته في حزام من الجلد حول وسطه. حفَّزتها غريزتها: اهربي، بينما الهمجي غارق في قيعان الرضا. أمسكت بحجر صغير، لجوء الضعيف إلى الضعيف، تحسست خطواتها صوب مدخل الصخرة غير الفسيح، لا تُبعد ناظريها عن النمر الرابض في وداعة زائفة، المُغطَّى بشعيرات ثور المسك نفاذ الرائحة. رفعت الحجر عاليًا، وقبل أن تنهال به على رأسه.

- . هاااااااه.

أدرك الهمجي حيلتها للهرب؛ أطلق زئيرًا عاتيًا، قبضت أصابعه على معصمها بقوة غشيمة، قادرة على تفتيت العظام وطحنها.

لم يكنْ حصيفًا في ردة فعله؛ فشل في تلقُّف الغضب، جذبها بعنفٍ كبير، فاصطدمت بصخور بارزة خمشَت بدنها، وأدمَت جبينها العريض.

حملها فوق كتفه طريدة خاسئة، تصرخ بقوة توقظ الجبال الرواسي من مرابضها البيضاء الساكنة، تمد في جيوب الهواء يدين تنشدان الغوث والمؤازَرة.

غابَ بها عن الأنظار، ولا مُنجِد لها من الأخطار.

***

بلغ حافة النهر المتجمِّد، أنزلها من فوق كتفيه كفخذ ثور ذبحه للتو. اصطدمت بالأرض تئن ألمًا، جمعت الثلج في راحتيها تقذفه بوجهه. أحنى رأسه قليلًا متفاديًا رميَتها، فاستشاطت غضبًا.

- عليك أن تعرف أنَّ اسمي محفور في اليد اليُسرى لذكر من عشيرتنا، يُقال له «نسيان»، تبقى له دورات شمسية قليلة ليتم 6565 دورة، وبهذا سيكون مؤهلًا ليخضع لاختبار الرجولة، خلال كرنفال كبير نُقيمه على قمة الجبل الجليدي الرابع من بعد أشجار البتولا، وإذا نجح في طقوس العبور إلى عالم الرجال وأثبت أنه رجل حقيقي، سيُنقَش اسمه في راحة يدي بنابٍ عاجي لحيوان «الفظ».

لوَّحَت أمام وجهه براحتها اليُمنى الخالية من الأسماء، كان هذا الإيضاح ليكون كافيًا لفرد من عشيرتها، أما وأنه غريب، جاهل بالأعراف، والمباح وغير

المستباح، لم يعنِ له كلامها شيئًا. رنا إليها بلا مبالاة ممزوجة بحيرة، فأردفت بحدة دون أن تبذل محاولة لتكظم غيظها:

- لا يُمكنني أن أكون مع رجلين في وقت واحد، هذا ضد قوانين العشيرة، ويقول «العارِف بالحياة» إن سيِّد السفح والقمة وما بينهما لا يرضى بذلك.

لما قابلتها النظرة اللامبالية نفسها، والأمارات الجامدة، صاحت بقوة:

- ابحث لنفسك عن امرأة أخرى، دع «زمهرير» وشأنها.

لم تملك خبرة كافية للتعامل مع الهمَج، أولئك المنبوذين، الغاضبين، الساخطين، الناقمين على الحياة، والمبغضين لسُلطة الأعراف ونفوذ العادات، إذ لو كانوا يملكون الحصافة والإذعان لما نُبِذوا من عشائرهم ابتداءً.

لم تحسَب جيدًا عاقبة قذف أحد قوانين عشيرتها في وجهه، بنبرتها الغاضبة، ونظراتها الساخطة، التقط الهمجي حجرًا صغيرًا مدببة أطرافه، وبحركة خاطفة انقض عليها يشل حركتها، غير مبالٍ بضرباتها وصرخاتها، أمسك بيُمناها يحفر حروفًا متصلة بالحجر في عمق لحمها. فوق راحتها البيضاء امتزجت خيوط الدماء بعبراتها المالحة، دفنت كفها في الثلج لمدة مائة رفة رمش كي لا يقيِّح الجرح، كما علمها «المُطبب» النابغة.

أخرجت كفها تُدنيها من عينيها، رأت الجروح تتعاضد لتُشكل فوق راحتها كلمة، «كهرمان»!

هذا الوقح، حفر اسمه فوق راحتها، كما لو كان رجلها.

***

لا تجيد عشيرته صيد الأسماك، يتغذون بشكل أساسي على اللحوم الحمراء، هم مهرة في صيد الحيوانات الكبيرة، وبخاصة ذات القرون العاجية والفرو الكثيف. في أثناء ترحاله من مكانٍ لآخر، تعلَّم من بعض العشائر صنع النصول المركبة والخطاطيف من عظم وقرون الحيوانات، ما مكَّنه من إتقان صيد الأسماك، وكل ما تجود به بطون البحيرات المتجمدة والنهر العظيم.

بقرن «وعِل» صغير الحجم، خفيف الوزن، يسهل على الصيادين حمله مشيًا لمسافات طويلة، خطَّ «كهرمان» فوق النهر المتجمد دائرة كاملة، ابتعد عنها بمسافة آمنة، ثم جثا على ركبتيه يدق حواف الدائرة، ثم منتصفها، بأداة

رفيعة حادة الطرفين، مصنوعة من معدن «الهيماتيت»[1] الأسود، والممزوج بخطوط حمراء بلون الصدأ.

«الهيماتيت» كنز عشيرته، ولكل عشيرة كنزها، سر أسرارها، تكوينها المقدس، الذي تتفوق بها على سائر العشائر. يؤمن أفراد عشيرته أن لهذه المادة الصلبة قدرات علاجية جبّارة، تؤمّن للإنسان ضبط الحالة المزاجية، والاتزان النفسي، والاستقرار الروحي والجسدي، عبر جلسات التأمل الاستشفائي فوق قمة الهضبة الكبيرة، التي إلى غرب النهر المتجمد، حيث يجتمع أفراد عشيرته مرة كل دورة قمرية.

يحمل «كهرمان» حجر «الهيماتيت» معه أينما ارتحل، كعضو من أعضائه لا يجوز أن يقتطَع من جسده، أو أن يُترَك خلفه.

بقوة وإصرار، نجح في اختراق الدائرة التي رسمها فوق النهر المتجمد، مبقيًا على حدودها سليمة كما علّمته التجربة، وبخطاف مربوط في أمعاء ثور المسك الذي بقر بطنه منذ سبع دورات للشمس، سالبًا إياه روحه، ولحمه، وجلده المُشعر، وأمعاءه الطويلة، تمكّن من صيد سمكة بحجم ساعده، أخذت تتلوى فوق الجليد في محاولة يائسة لتأخير قدرها المحتوم.

راقبته «زمهرير» مبهورة الإحساس، متقطعة الأنفاس، اصطاد وحده سمكة كان لينفق رجال عشيرتها نصف نهار في محاولة إخراجها من بطن النهر! استشعرت مواطن قوته، وحُنكته، وبراعته. بنيانه القوي يفوق صلابة «نسيان» المحفور اسمها فوق راحته. بإمكان هذا الهمجي أن يطعمها يوميًا، ويحميها من الضاريات التي تجوب الأرجاء مشتهيات للحمها، ويُسكنها كهفه الذي فوق الجبل الجليدي، ففيه متسع لكليهما، بإمكانه كذلك أن يمنحها صغارًا صحيحي البدن، نشيطي الجسد، موفوري الصحة. صحيح أن لـ «نسيان» قامة فارعة، لكنه نحيل جدًا، ما كان بإمكانه اختراق النهر المتجمد وصيد هذه السمكة الكبيرة وحده.

تأملته بعناية، تحت شذرات الشمس هذه المرة، تلتف نظراتها حوله، تُغطّيه، من رأسه إلى أخمص قدميه. حول رقبته ناب حيواني مُدلًى من قلادة من الجلد،

---

(1) الحديد الخام.

تُخمِّن أنه لثعبان مُرقَّط ضخم الحجم لا يعيش إلا فوق الهضبة التي إلى غرب النهر. وجهه الخشن وقسماته المتوحشة محفورة بالكثير من الجروح الغائرة غير المرئية، استشعرتها بحاستها الداخلية التي قلَّما حادَت عن جادة الحقيقة.

روحه مُتكسِّرة، يشطرها الغضب، ترُى، كم هزيمة نكراء كبدته الحياة؟

صمته صارِم، من النوع الذي لا يتبدد بسهولة، عدَّت الكلمات التي تفوَّه بها منذ أن رأته بالأمس، فوجدتها شحيحة جدًّا. الصمت في تقديرها مزية ثمينة، لطالما انجذبت لأولئك الذين يجيدون ترويض الصمت في حظائر الكلمات.

حمل «كهرمان» السمكة الكبيرة بيدٍ، وبالأخرى قبض على عضد «زمهرير» يسحبها خلفه، بلا عنف هذه المرة.

***

- لن أتحرك خطوة واحدة، «زمهرير» متعبة.

بينما تتسلق إلى حيث الكهف، هدَّها الإرهاق. افترشت الجليد غير آبهة إن جرَّها الهمجي من شعرها، لن تتزحزح حتى تأخذ حصَّتها من الراحة.

خالته يملك قرون استشعار تُنبِّئه بحرارة عنادها، إذ لم يحثها على الوقوف واستكمال التسلق، طفق يتمشَّى غير بعيد عنها، يجمع أغصان الشجر ليُطعِم أفواه النيران التي سيوقدها هذه الليلة للتدفئة. يسترق النظر إليها في غدوه ورواحه، هل يخشى فرارها؟ أسعدها قلقه. إن بقيت معه، سيحميها من رجال العشائر المعادية؛ الكبير، والصيادين، وجامعي الحطب، وخادمي النار، وكل الأشرار.

لكنه جلف، شرس، لا يُجيد فنون العِشرة، يليق به أن يكون «عيون الليل» حارس العشيرة وحاميها، وليس فردًا عاديًّا فيها. «عيون الليل» غلاظ، أجلاف، يتمتعون بقوة جبارة تؤهلهم للحراسة، «عيون الليل» هم الوحيدون المخوَّل لهم استخدام العنف مع باقي أفراد العشيرة، لا تتمنى أن يُحفر اسمها فوق راحة أحدهم أبدًا.

تريد رجلًا على مقاس قلبها، وهذا الهمجي أضيق من أن يكون مقاسها.

«كهرمان»، يا له من اسم عجيب، لم تألف أسماعها وقعه، اسم قوي، كاسمها، لطالما جذبتها الأسماء الرنانة. لو كان مباحًا، لطالبَت «نسيان»

بتغيير اسمه، لكن الاسم أولى عتبات الذات، إن فقده سيفقد ذاته، لن يعود «نسيان» «نسيان» مرة أخرى.

- لماذا لا تبحث عن امرأة تجيد الصيد، مثلك؟

كانت قد اقتربَت من مكانه حيث ما زال يجمع الأغصان، التي سرقتها عاصفة الأمس من فوق الأشجار، ونثرتها بعشوائية فوق الجليد الأبيض.

لم يمنحها جوابًا، ولم تنتظر واحدًا. شاركته جمع الأغصان، حتى أضحى الصمت أثقل مما يُمكن لرأسها احتماله:

- «زمهرير» ليست ضعيفة، لن تُبقيني هنا بالقوة، بينما تكون نائمًا سأشج رأسك بحجرٍ ثم أهرب، أو أنثر مسحوقًا مميتًا من النبات الذي ينمو في بطون الكهوف الشرقية وأضيفه إلى طعامك، أو الأسوأ، أقتلك بطريقة «زمهرير» المفضلة، أدق قرن رنّة في منتصف عنقك.

حرصَت على أن تُبدي أسنانها كاملة بينما تتحدث، ولا سيما نابيها الأماميين، تصيغ كلماتها بأكثر نبراتها قسوة، تعرف كيف تستخدم تلك النبرة لتخيف «نسيان» عندما يأتي بما يخدش غضبها.

منحها «كهرمان» نظرة خاطفة غير مبالية بطرف عينيه، ثم استكمل مهمته، كأن كلماتها ما هي إلا ريح زمجرَت هنيهة ثم مرَّت. وعلى عكس المتوقع، أعجبها صموده، وصدّه، وصمته.

- كيف ماتت امرأتك الأولى؟ هل أكلتها حقًّا؟ سمعت الكثير عن عشيرتك، إنها تُدعى «العشيرة التي تأكل أمواتها»، عرفتك من الناب المعلق حول رقبتك، ما زلت تضع علامتهم المميزة رغم أنهم نبذوك، لماذا؟ أما كان الأحق أن تكرههم؟ أم أنك تدرك جيدًا أنك تستحق هذا العقاب؟ «كهرمان» يستحق العقاب، أليس كذلك؟

- «كهرمان» لم يأكل أحدًا.

اعتزت بمقدرتها على تحرير الكلمات الأسيرة بين شفتيه، حتى وإن كان قالها بحزم وحدة.

- ما خطيئة «كهرمان» إذن؟

- أنه رفض أن يأكل امرأته الميتة.

فهمَت الآن كل شيء، ليست بحاجة إلى المزيد من التفسير، الهمجي ينتمي إلى عشيرة سنَّت قانونًا غير قابل للخرق، أن يأكل أحياؤهم أمواتهم، كي تمتزج الحيوات وتتراكم الخبرات داخل أجسادهم. عندما سمعت هذا لأول مرة شعرت بالغثيان والقرَف، لا بُد أن الهمجي شعر بالمثل وهم يُطالبونه بأكل امرأته، فحكموا عليه بالتغرُّب.

- كيف ماتت؟

سألت برقة هذه المرة، لم تأمل كثيرًا في أن تحصل على جواب، بدا مترددًا، يرمقها بريبة، الصمت الطويل الذي لازمه لدورات شمسية أكبر من أن يحصي عددها، أنساه كيف يدير حوارًا مع إنسان مثله، فضلًا عن أنها غريبة لا تنتمي إلى عشيرته، وفي عُرف العشائر هذا جُرم يستوجِب العقوبة الصارمة.

- قطيع من الثعالب الحمراء هاجم العشيرة في أثناء خروج رجالها للصيد، لا تعرف النساء إشعال النار.

- أنا أشعل النار.

استجلَب اعترافه رأفتها. دَنت منه تمسح فوق شعر ثور المسك عند موضع كتفه اليسرى، وبأنامل يُسراها تنقر فوق جبينه نقراتٍ عشرًا، هكذا يتآسى أفراد عشيرتها.

لم يفهم حركتها، في عشيرته، يضربون ظهور بعضهم بعضًا عند المواساة. شعر أنها تفعل شيئًا طيبًا لأجله، حتى إنه أحبَّه. تلكَّأت عيناه عن النمش المتناثر على جانبَي أنفها، منحها ابتسامة صغيرة، هي الأولى مُذ رآها. كان جذابًا إذ تبسَّم، دفع بالحرارة لأن تتسلق، من بطنها إلى وجنتها، أو ربما من صدرها، لا تعرف.

سألته عن الهياكل العظمية المتناثرة في الكهف، استجمع كلماته ليخبرها:

- كُن زمرة من النساء المحتميات في الكهف قبل أن أسكنه، أكلهن نمر الثلوج.

- ولماذا لم تدفنهن؟

- خشيتُ أن أمسَّهن فأدنس عظامهن، تركتهن حيث مرَّ سُلطان الموت المقدس.

قدرت أن الوحدة حرمته من التفكير السديد، وأخبرته أن عليه دفنهن من باب التكريم. أومأ برأسه من غير اعتراض.

أعلنت رغبتها في استكمال المسير، لا لشيء إلا لأن معدتها تكاد تنسحق جوعًا.

***

تربَّع «كهرمان» داخل الكهف، يفرك حجرين، يستولد بهما شرارة صغيرة من النار قُرب مجموعة من الأغصان رتَّبها على شكل قبَّة الهضبة التي إلى غرب النهر. جالسته «زمهرير» تراقبه بشغف. تمتمت بانبهار ككل مرة تغوص نظراتها في لسان النار:

- يا فالِق الإصباح، ومُنبِت الأفراح، ومُصرف الخطوب والأتراح!

ثم أردفت:

- أحب هذا الحيوان المتوهج الذي يُقال له: نار، برّاق كالنجمات، شرس كالضبعانات، في أول مرة أشعلته، عضَّ أصابعي بألمٍ ليس له مثيل.

قرَّب «كهرمان» كفَّيه من اللهب، بمسافة آمنة، يحثها أن تحذو حذوه، كي تستدفئ بها، وقد أعجبه الدفء الذي ولَّدته النار بينهما:

- شرس ربما، لكن يسهل ترويضه.

تأملت أناملها بعد أن تقشَّرَت عنها البرودة، مسحت فوق وجهها، وجيدها، وقدمها، تبكي وتضحك من فرط السعادة بالدفء. أمسك «كهرمان» بالسمكة، وبقرن عاجي همَّ بتقسيمها إلى نصفين. أوقفته يد «زمهرير» متسائلة بدهشة:

- ألن تُنضِجها أولًا؟

لم يفهم ما ترمي إليه، أخذت السمكة وألقتها فوق الأغصان المشتعلة، زمجر «كهرمان» غاضبًا ظنًّا أنها تُتلف سمكته، وطعام ليلته، مدَّ يده وسط ألسنة اللهب ليُنقذ مؤنته، فقبضت «زمهرير» على يده تطمئنه:

- النار تجعل الطعام طيبًا، لم أوذِ السمكة، ثِق بـ «زمهرير».

لم يقتنع «كهرمان» أن النار لن تُفسد سمكته، النار للاستدفاء، ولإخافة الحيوانات، وإيذاء الأعداء، ما عملها بالطعام والسمك؟ أحبَّ ملمس كفها فوق بشرته، فهدأت نفسه، وإن كان القلق على طعامه ما يزال يخمش صدره.

أخرجتُ «زمهرير» السمكة بعد شيِّها، استخدمت القرن العاجي لتقسمها، ثم وضعت أمام كل منهما حصَّته.

بدأ «كهرمان» الأكل في تردد. الرائحة الزكية أجمل من أن يقاومها، أكل حصَّته بنهمٍ بالغ، مُستلذًّا بمذاق النار فوق اللحم الأبيض، وبمراقبة المرأة التي تجذبه إليها رغمًا عنه.

***

وقفت فراشة زرقاء على ركبته، على ضوء النيران المتراقصة تأمَّل روعة جناحيها، وبديع صنعهما، خُيل إليه أنها تبتسم له ممتنة للزهور التي زرعها في مدخل الكهف، تتغذى على رحيقها وسوائلها، جمد في مكانه مخافة إزعاجها، إلى أن طارت من تلقاء نفسها تستدفئ بالسقف.

حطَّ النعاس فوق أجفانهما. كان «كهرمان» ما يزال جالسًا أمام النار، تجاوره «زمهرير» ساهمة.

تثاءب بقوة، حلَّ على جسده الإعياء، نظَّف أحد أركان الكهف من الحجارة، ومهَّد الثلج ليكون على استواء الأرض. كانت «زمهرير» على ضوء القمر حلوة ونضرة، كزهرة الثلج التي تنمو عند الهضبة الشرقية. الصقيع الذي اشتد، والشوق الذي حلّ، وجمالها الذي تلألأ، أنسوه الصوت الذي حذَّره من السقوط في بئر غوايتها.

استسلم لنداء آخر بداخله، يستصرخه ليُدنيها، أمسك يدها وجذبها نحوه، استلقيا فوق الجليد الممهد متجاورين، أحاطها بذراعيه، خبأ وجهها في صدره، رائحة المسك تُدغدغ حواسها، وشعيرات ردائه تُشعل الحرارة في بدنها.

همست بصوتٍ لا يعلو فوق طقطقة النيران:

- كي أكون امرأتك يجب أولًا أن أحفر اسمي في راحتك، هكذا لن تكون الطقوس ناقصة.

- نحفره الآن.

- يجب أن يتم ذلك بنابٍ عاجي لحيوان «الفظ».

- حفرتُ اسمي في راحتك بحواف الصخر.

- لذلك يجب أن تعيد حفره بناب «الفظ»، هذا مهم.
- غدًا أصطاده، ونحفر اسمَينا معًا.

ابتسمت في قناعة، ثم خطر على عقلها أن تقول بنشوة:

- «كهرمان»، يا له من اسم جميل.
- كل ذكر يولَد في العشيرة يكون له ثلاثة أسماء، اسم تهمس به أمه في أذنه مرة واحدة عند ولادته، كي تجهله الأرواح الشريرة فلا تؤذيه، واسم يعيش به بين أفراد عشيرته، واسم خاص جدًّا لا يذكره إلا لامرأته فحسب، إن باحت به لأحدٍ تكون قد سلَّمت روحه لسُلطان الموت، فينحر عنقه رجال العشيرة، ويعدون من جسده وليمة، ثلاثة نهارات بلياليها.
- إذن "كهرمان" هو اسمك الذي يناديك به الجميع؟

هزَّ رأسه مؤيدًا، فتساءلت:

- إذن ما هو اسمك الخاص الذي يجب ألا أبوح به لأحد؟
- «زعفران»!

***

أغمض الهمجي عينيه، راح يزوم مغمغمًا بكلامٍ لا يبين، بدا راضيًا كنمر الثلوج مُحدودَب العَجُز، وقد انتهى للتو من افتراس «مرموط» سمين.

حلَّت أصبوحة عسيرة عليه، إذ ارتفعت حرارة جسده بحُمى مريعة. شعرت بها ما إن تحسست جبهته، لم يستفِق حين هزَّته، راح يهذي بما يضمره في قلبه، دفعته الحمى لأن يعترف برغبته السابقة في قتلها، التي تولدت في نفسه لحظة أن رآها واشتم رائحتها!

لا بفأسه النحاسي، ولا بسكينه من حجر الصوان، بل بطريقة فريدة جدًّا، سيأمرها أن تصنع بنفسها رداءً يتسع لجسدين، جسده وجسدها، هكذا سيتمكن من القضاء عليها، إلى الأبد!

فكرت «زمهرير»: *كذب «كهرمان»، وصدقت الأقاويل، هذا الرجل قاتل أثيم، وهمجي زَنيم، يقتل النساء اللاتي يرفضن تنفيذ طلبه العجاب.*

لم تطق صبرًا ليستيقظ، فيقدم لها مبررًا واهيًا، أو تفسيرًا شائهًا. أقامت عليه الحُجة، وصدر قرارها بأن يشرب من نهر الغدر نفسه الذي أراد أن يسقيها منه.

أمسكت برمحه، وقفت تطل عليه من مُرتفَع، وبعزم قوتها، دقَّت صدره من الخلف، فانفجرت دماؤه تسبح فوق أرض الكهف. نام نومة أبدية لا يقظة بعدها، إلا حين يُنفَخ في الصور مرتين، الأولى صعقًا، والثانية بعثًا.

# (27)
# حلقة سحرية

ارتعد «زعفران» ألمًا فوق فراش الغرفة رقم (5) بالبنسيون، ينفض عن عينيه آثار النوم، يتحسس صدره في الموضع الذي اخترقه الرمح من الخلف.

يا له من ألم مميت!

أطرافه متجمدة بردًا، طعم الدماء يملأ جوفه، والخوف يزلزل قلبه. بات مع الحلم الثاني واثقًا أكثر مما كان مع الأول، الرجل الذي فقد الذاكرة أسفل عمارة الموت بمصر الجديدة، هو الهمجي الذي يُقال له «كهرمان»، الذي عاش ومات في العصر النحاسي، كلاهما الرجل نفسه!

والفتاة التي تقيم في الغرفة رقم (6) بالبنسيون، ويفصل بينهما جدار واحد، هي «عيناء»، و«زمهرير»، كلتاهما المرأة نفسها!

وكونه لم يتوصل بعدُ إلى الكيفية التي انتقل بها من العصر النحاسي إلى العصر الحديث، ولم يكتشف بعدُ الأداة المذهلة التي تفصله إلى رجلين متباينين، لا ينفي ذلك حقيقة ما يشعر.

تُرى أيهما الحلم وأيهما الحقيقة؟ الحديث أم القديم؟ «زعفران» أم «كهرمان»؟ هل هي صدفة أن يكون «زعفران» هو الاسم الآخر للهمجي، وفي الوقت ذاته الاسم الذي تختاره «أنهار» بعشوائية؟ إذا كانت هذه صدفة، فالانفجار العظيم الذي بدأ على إثره الكون، كان ضربة حظ. هكذا تفكَّر وهو يمسح وجهه، ويهندم ملابسه على عجالة ليخرج إلى الممر، كأن ميقاتًا مدسوسًا في ساعته البيولوجية، أنبأه أن «عيناء» ستغادر غرفتها في هذه اللحظة بالذات.

في الممر التقيا، كل منهما يتطلع إلى الآخر بذهول الحلم، وفداحة اللغز، وتذبذب المنطق، وبهاء الحقيقة.

- أنت حي!

قالتها وكأنها كانت متيقنة من أنه قد فارق الحياة كما حدث في الحلم، إلى هذه الدرجة كان شعورها بالرمح يخترق لحمه ويكسر عظمه، وإلى هذا الحد بلغ هلعها، وقد كانت على ثقة أنها قتلته داخل الحلم وخارجه.

تسلق ألم حارق من بطنها إلى حلقها، عندما أدركت أنها ليست الوحيدة هنا، التي تشعر الآن بمذاق الثلج في فمها.

إذ قال لاهثًا، ومتحمسًا في آنٍ واحد:

- لقد تقابلنا في الحلم نفسه، قبل لحظات كنتِ بين ذراعي، ثم تثورين غضبًا، ثم تطعنينني موتًا حتى تفلّتت من صدري أنفاسه الأخيرة، ما الدليل الذي تحتاجين إليه أكثر كي تصدقي أننا بشكل عجيب مرتبطان معًا بحلقة سحرية عجيبة؟

في وقت آخر، وحال مختلف كانت لتسبُّه ثم تمضي، لولا أنها شاركته الشعور والحدث. كلاهما كان في الحلم نفسه، حلم كالحقيقة، كانت تسمع الفخراني الكبير يقول إن للحقيقة ألف قناع، تخفي جميعها وجهًا واحدًا، لذلك لا يعرف أحد وجهها الحقيقي أبدًا.

فهل ما تُشاركه مع هذا المجذوب هو حُلم، أم بُعد آخر للحقيقة، وقناع جديد لها؟ أم تُراها بالفعل مجنونة كما يدّعي أبوها والأطباء؟

لم تصدقه سابقًا لأنها لم ترَ شيئًا واحدًا يجمعهما، فهل ثمة عامل مشترك أقوى من التقائهما في الحلم نفسه؟ أفزعتها هذه الخاطرة، لأن هذا معناه شيء واحد، كل ما تظن أنه حقيقي هو وهم في عقلها؛ زوجها «جمال»، وبذرة الإله، وخضر الجديد، والوحي الذي يُلهمها بقطع أيادي الآثمين.

- لا أصدق ما تقول.

لم تحتد بقوة كما كانت تفعل سابقًا، خالط يقينها الشك، الكثير منه، حتى بات ملوثًا بالظنون والتأويل. لم يكن اشتراكهما في الحلم هو السبب الوحيد

لزلزلتها، بل تلك المضغة إلى يسار صدرها، التي تنبض بالحياة بقوة لم تعرفها يومها، ولا حتى مع «جمال».

تنبض بالحياة، كما كانت تفعل في صدر «زمهرير» وهي بين يدي «كهرمان»، تصيح بها، تستحلفها بسيد السفح والقمة وما بينهما، أن تُقرّب هذا الغريب، وتتشبث به تشبُّث الغريق بالنجاة.

كانت تنزلق مع الرجل الذي لا تعرف من يكون، تتوحّل معه في بئر الجنون العميقة. له النظرة ذاتها التي رأتها في عيني الهمجي «كهرمان»؛ الغاضبة، السلطوية، العازمة. ماذا إن كان يضمر لها النية نفسها، ألا وهي قتلها؟

انكمشت على نفسها، تتوجس منه خيفة، تشعر أن معه نجاتها، وفي النجاة فناؤها! ممزقة بين شعورين متباينين، كالخير والشر، السماء والأرض، البحر واليابسة. هل تقبل أن تختفي، إن كان هذا هو الطريق الصحيح، والمسار الأوحد؟

ظلت تفكر في السؤال دون أن تجسر على الإجابة.

ولم يكن صراع «زعفران» مع نفسه أخف وطأة، تسارعت وتيرة أفكاره بينما يحاول جمع المستحيل في قبضته، هذه الفتاة كالحجر في بركة ماء راكد، تُبدد سكونه كلما رآها، وتثير فيه عواصف الجنون والتمرد والركض وراء المستحيلات. تعجن المنطق بالخيال، وتقدم له وجبة شهية دقيقة المقادير، لا يستطيع إعدادها منفردًا.

رداء يتسع لجسدين! يا لها من طريقة فريدة في القتل. كانت الفتاة جنونه، وكان هو لجامها. هكذا شعر في نفسه.

فقط لو كان بإمكانه أن يتذكر، لتوصل إلى العقدة وحلّها. لو كان بإمكانه أن يطبع فيها شعوره بلا كلمات، لربما صدّقت وآمنَت -من غير دليل أو أمارة- أن حياتهما معقودة معًا، لكن مثلها قليلي الإيمان بحاجة إلى معجزة، انصرف من أمامها مغادرًا البنسيون، وقد عزَم على خلق واحدة.

# (28)
# جزّار الأيدي

كان مرأى الدماء في المرة الثالثة أسهل من سابقتيها، بترَت «عيناء» يدي الرجل الفاقد لوعيه في سرعة، ودقة، ومهارة. باتت على قدر من الخبرة يُمكّنها من تحديد الجرعة اللازمة من الحبوب المنومة، الكافية لسلب الرجل وعيه خلال دقائق معدودات.

هذه المرة لم تنتظر الرجل المختار كي يخطئ؛ وتُقدم يداه على فعل آثم، قدّرت أنها بحاجة إلى الإيمان من جديد، بعقيدتها التي بهتت، وقناعاتها التي اهترأت، أنها بحاجة إلى عملية تطهير جديدة، تعيد تعريف هويتها، كإنسانة طيّعة، تُنفذ إرادة الخالق في المخلوق.

تخيّرت أحد دكاكين القماش في حارة ضيقة بدرب البرابرة، تخف عليها الأقدام، وتذهل عنها الأعين. دكان بسيط، قارَب صاحبه الثمانين، أقرب إلى الموت منه إلى الميلاد، زاهد في متع الحياة. هكذا كان ليراه الجميع، لكنها مميزة، مختلفة عن الجميع، وإلا لما وقع عليها الاختيار، لتكون اليد التي تُطهّر وتُذهِب الدنَس.

عندما كانت تستفسر عن القماش، منحها الشيخ نظرة مطولة متصلة، كانت كافية لتحكم عليه في الحال، نظرة ثم لمسة ثم خطأ شائن، هذا هو التسلسل الذي سيأتي به الشيخ إن تركت له الحبل على غاربه. ربما لو عرفت أنه شحيح النظر، وأن عضلات عينيه ضعيفة التكوين، لكانت رأته كما يراه الجميع، عجوزًا عليل الصحة، أولَى زلّات الشباب ظهره مذ وقت طويل. بيدَ أنها لم تقرأ في نظرته الفاحصة الممتدة؛ سوى شبح إنسان أثيم، بحاجة إلى ساطورها للتطهير.

مع فرارها من الدكان، استعادت شعورها بهويتها الحقيقية، كمُخلِّصة للبشرية من نتن الآثام، رغم ذلك عليها أن تعترف، هذه المرة لم تستمتع، فقدت النشوة والزهو المرجو.

زاحمت عقلها نظرات المجذوب وكلماته، نفضت رأسها من تفاصيل الحلم الذي جمعها به مرتين. سارت من حارة إلى عَطفة، ومن عطفة إلى زقاق، ثم شارع، وكبري، وأنفاق، حتى بلغت مكانًا لم تبلغه قبلًا، كانت فيه وجهًا لوجه أمام النيل.

ذكَّرتها المياه الراكدة بالنهر المتجمد في حلمها، حيث الثلج في كل مكان. صارت ذكراها عن «جمال» بعيدة جدًّا، تجتهد لتتذكر ملامحه، بينما قسمات الرجل الآخر تقتحم عليها التأمل والتفكير.

- لم يكتفِ بالحلم، صار يفسد عليَّ حياتي في الواقع.

تهامست لنفسها في ضيق. حاولت صرف أصداء كلماته، وتمزيق صورته المتخيَّلة؛ سددت حينًا، وكانت في أكثر الأحايين فاشلة.

- أنت يا «عيناء» تحتاجين إلى العمل، لأجل المال، ولكي تتمكني من خنق التفكير، كيف أتحصل على المال بلا شهادات؟

وجهت سؤالها للنيل، والسماء، والأفق بينهما، ارتد عليها السؤال لساعات، حتى بلغَت ما شاءَت من الجواب.

نفضت عن ردائها ما علق به من خشاش الأرض، وانصرفت تشق طريق العودة إلى البنسيون، وقد اعتزمَت أن تسلخ اللحم عن أصابع الآثمين، بحمض قوي فتاك، لتصنع منها مكاحل من مسحوق الأثمد، تبيعها للنساء في الأتوبيس!

***

«جزار الأيدي»

هكذا وصفها صحفي ما، في جرنال يقبع فوق طاولة الطعام بالصالة، أزعجها التوصيف، وشعرت معه بمهانة ساحقة.

لا أثر لصاحبة البنسيون، انتهزت الفرصة لإعادة الدفتر قبل أن تكتشف غيابه. كانت الغرفة رقم (2) تمامًا كما تركتها آخر مرة، تلكأت قليلًا تفحص

محتوياتها، إلى أن فاجأها سعال صبي النجار، على بعد خطوات من الممر. انسلت بسرعة تحت الفراش، تكتم أنفاسها براحة يُمناها، وبالأخرى تمسح فوق رأسها الذي اصطدم بقوة بالألواح الخشبية.

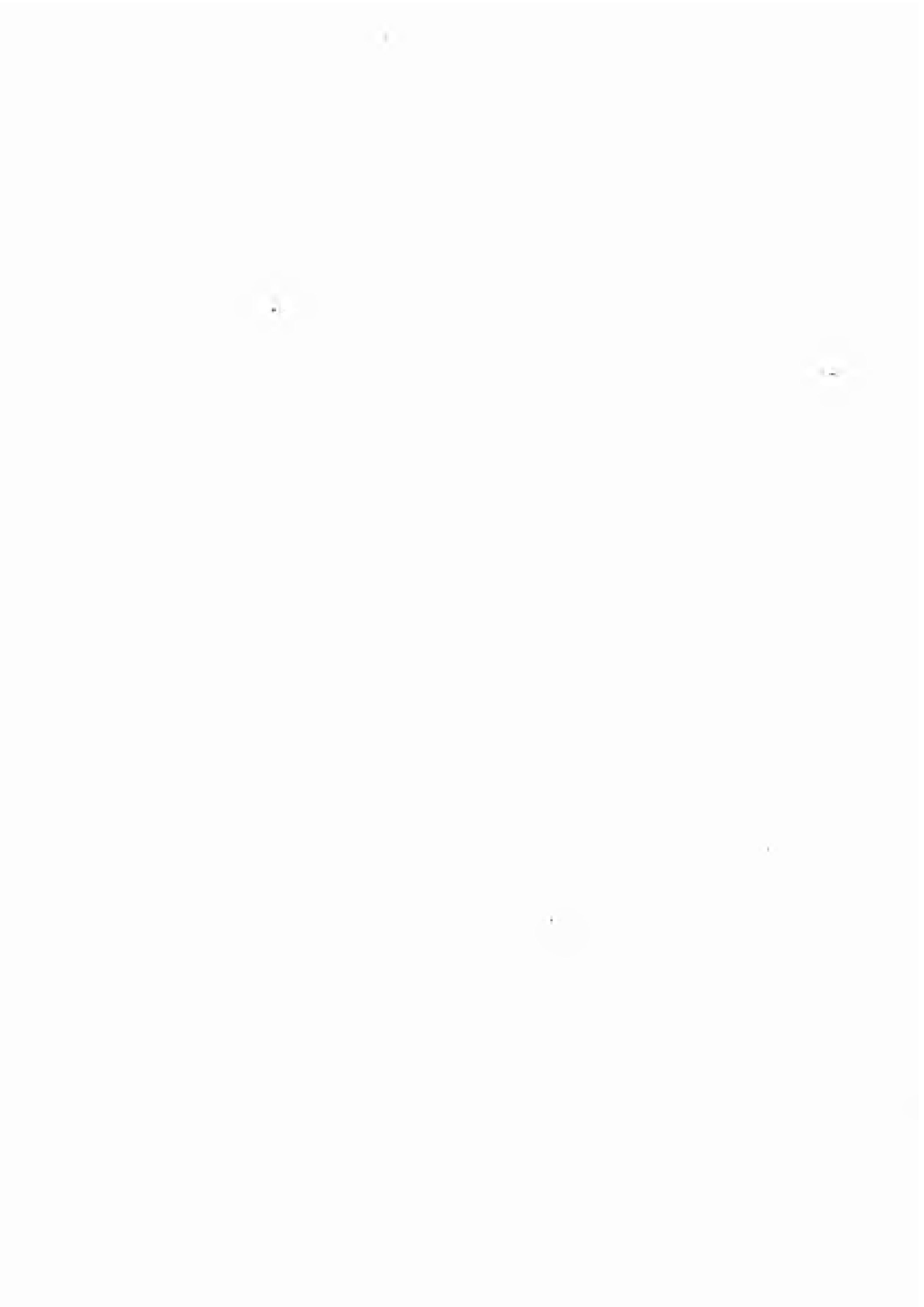
كان عليها أن ترحل بسرعة، قبل أن يراها أحد النزلاء وينفضح أمرها. كانت نظراتها قد التصقت بالشيء الذي يملأ المساحات الفارغة أسفل الفراش، أوانٍ فخارية متوسطة الحجم.

من غير جهد، وعلى ضوء الشمس المتسلل من النافذة المفتوحة، تمكنت بسهولة من تمييز توقيع الفخراني الكبير، حرفه الأول باللغة العربية في أسفل كل إناء.

الآنية كلها لينة، غير محروقة! وكانت ابنة الفخراني الكبير خير من يعرف دلالة الفخار غير المحروق.

- يا الله، هذه السيدة تستخدم الفخار في أعمال السحر!

***



# (29)

# وشوشة الماء

مع الهدوء الظاهري الذي يخيم على أرجاء البنسيون، كان ثمة ما يدور في طابق البدروم؛ في غفلة عن الأعين.

لم تعتد صاحبة البنسيون غلق غرفتها بالمفتاح؛ لا تحتفظ فيها بما يثير الريبة، سرها الأكبر كانت تخفيه أسفل البنسيون، في بدروم تتشبع جدرانه بالرطوبة، تنبعث رائحة العطونة من أركانه، وجدرانه المتآكلة، مكدس بالأثاث القديم، والأغراض التي لا يتذكر المرء كيف تحصَّل عليها، لا سبب يدفعه للاحتفاظ بها، سوى فكرة قهرية، أنه يومًا سيحتاج إليها. هذا اليوم لا يأتي أبدًا، فيتراكم كل ما تلف، وكُسر، وفسد، وخرب، وتدهور حاله.

في مربع ضلعه ثلاثة أمتار، خالٍ من الكراتين المعبأة بالتوالف، جلست السيدة المكتنزة أمام عشرات الآنية من الفخار غير المحروق!

تبتاعهم سرًا وبصفة دورية من الفخراني الكبير، صاحب الفاخورة التي تبعد عن البنسيون بحارَتين، بعدما بلغتها الشائعات التي تقول إنه الوحيد في المنطقة الذي يقبل ببيع الفخار، قبل حرقه في الأفران.

ملأت كل إناء بالماء إلى آخره، صفّتهم حولها في دائرة كاملة، تجلس هي في منتصفها، متربعة فوق الأرض، حاسرة جلبابها الفيسكوز عن بنطال من القطن الأبيض. في رأسها يرتع مخزون كبير من الأحداث، وبجوارها مخزون وفير من الكتب. تُدني أحد الآنية من فمها، تهمس له، توشوشه، كما تفعل الغجرية مع الودَع. تقص على الماء أحداثًا تاريخية، وقائع معاصرة، ودقائق المعلومات التي عرفتها. تُعامل الماء ككائن ذكي، بل هو أذكى الكائنات وأجلُّها، منه خُلقت البشرية كلها، وفاضت الأرض بأحمالها. تتسابق الساعات،

ويتعاقب الليل والنهار، وتظل صاحبة البنسيون على حالها، تمارس هوايتها المفضلة في وشوشة الماء داخل الفخار غير المحروق، تقص عليه كل ما تختيره من أحوال الناس، ووقائع الأحداث، من دقائق الأمور وسفاسفها، إلى أعظم الأحداث وأجلها، متخذة منه صديقًا وأنيسًا.

تحكي للماء عن الصراعات، والحروب، والنزاعات، كم شهدت السماء من الحرائق، وكم سُقيت الأرض من الدم المسكوب. تحكي عن الأنظمة وأنواعها، والسُّلطات وأهدافها، والإمبراطوريات ومآلاتها، عن العروش والملوك والقوة والبارودة والسيف. وكيف يحاول المرء البحث عن سُبل النجاة، في عالم غير متكافئ، بموازين مختلة النفوذ والقوى.

لا أحد يسمعها سوى الماء، لا أحد يصبر عليها سوى الماء.

يشقشق الصباح، فيبح صوتها، ويهدها التعب، وتتوقف عن وشوشة الماء، مؤقتًا، إلى أن تعود في المساء، بينما نزلاء البنسيون يغطون في سبات عميق، لتعيد الكرة من جديد، وتقص في آذان الآنية أخبارها، فالماء أكثر حفظًا للكلمات من الورق، وأكثر إخلاصًا من ذاكرة البشر.

تقاطعها «عجب هانم» قفزًا فوق حجرها، من النافذة خرجت وحررت نفسها، تخمش وجه السيدة، وذراعيها، وساقيها بأظفارها وأنيابها. تتألم السيدة، وتنكمش في الزاوية، تعتذر للقطة الهائجة، التي تبرق عيناها الفيروزيتان بنيران الغضب، التي تهددها بالطرد من البنسيون الذي يحمل اسمها. تتأسف السيدة على حبسها، وتعدها ألا تعيد الكرة، ستتركها تغزل الثوب متى أرادت، دون إجبارها. تجثو السيدة عند قوائم القطة باكية، راجية إياها ألا تطردها، لأن الطرد مجلبة لسوء الحظ.

يحتار الرائي أيهما الحيوان، وأيهما صاحبه!

تُدرك السيدة تمام الإدراك أن العالم يخلو من القطط المتكلمة، التي يستطيع البشر التواصل معها بلغة مشتركة، هذه القطة فائضة على العالم، وجودها شذوذ عن القاعدة.

تشعر السيدة بالوحدة في هذا العالم المزدحم بالناس والتفاصيل، لا تجد مخلوقًا يُشاركها الأفكار القهرية التي تُزاحم رأسها، إذ تؤمن أن النهوض من السرير من الجهة اليُمنى مجلبة للحظ، تنام ورأسها للشمال وقدماها للجنوب، لا

تنفض الماء من يدها صباحًا مخافة أن يتساقط منها الحظ السعيد باقي اليوم، إذا سقط دبوس شعرها فهذا معناه أن شخصًا يفكر بها، سقوط الملعقة من بين أصابعها خيبة أمل، تحطيم الفخار والزر في العروة الخطأ والحذاء فوق المائدة نذير شؤم، لذلك تحرص «عجب هانم» على سرقة أحذية الزبائن ووضعها فوق الطاولة، وتقلب المملحة رأسًا على عقب، إمعانًا في تعكير مزاج السيدة.

«عجب هانم» ليست أذكى من إياس[1] ولا أقوى من شمشون، بيدَ أنها تعرف كيف تتحكم في السيدة بالتسلُّط والهيمنة على مواطن معتقداتها، إذ تُهددها بكسر المرآة التي تتوسط جدار الصالة، فتفزع السيدة التي تؤمن أن تحطيم المرآة سيجلب عليها سبع سنوات من الحزن. تشعل أمامها ثلاث شمعات بعود ثقاب واحد، فتفزع السيدة مما ينتظرها من سوء العاقبة.

سيدة معجونة بالخرافات، أسيرة لأفكارها، لا تملك إرادتها لتفعل عكس ما تُمليه عليها وساوسها.

بترفُّعٍ تقبل «عجب هانم» اعتذارها، ثم تهز ذيلها مغادرة البدروم، بعد أن حمَّلت الهواء برائحتها المميزة، من الغدد العرقية في قاع كفوفها. تعود السيدة إلى آنيتها، تلعق ضعفها، تُدني من فمها إناءً فخاريًا نيئًا، ممتلئًا بالماء، تخبره بما حدث للتو، وتشكو إليه أوجاعها.

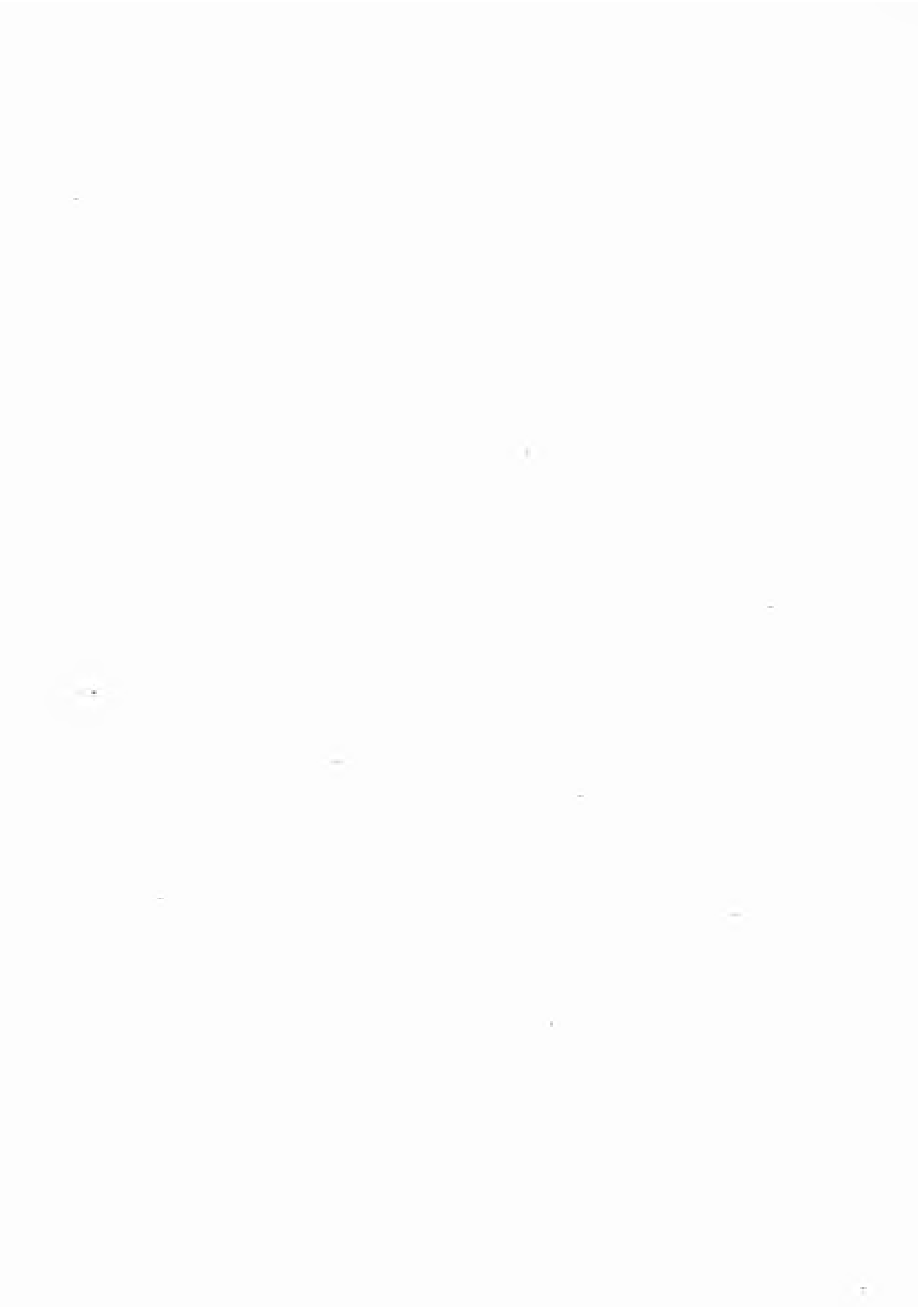
ومن كومة الكتب تنتقي واحدًا، متخمًا بالتعاويذ والطلاسم، تدندن ببعضها، وتحفر أخرى بطرف إبرة، على الإناء من الخارج. تعاويذ لها قوة جبارة، ستُمكِّنها من السيطرة على «عجب هانم»، وأمن مكرها. هكذا ادَّعى صاحب فرشة الكتب بالأزبكية.

لا تملك الإرادة القوية، والعزيمة الفولاذية، لهذا تلجأ إلى قوة السحر الخرافية. دماغ القطط تُشبه كثيرًا دماغ البشر بيولوجيًا، وبخاصة تلك المسؤولة عن الاستجابة العاطفية، لذا تأمل أن تنجح هذه التعاويذ في السيطرة على فصيلة «عجب هانم» القططية.

تنتهي من النقش فوق الإناء، تحتضنه بين ذراعيها، ثم تغادر البنسيون، متوجهة صوب النيل.

---

(1) إياس بن معاوية، قاضي البصرة، يُضرَب به المثل في الذكاء.



# (30)

# الزلزلة العظمى
# الخميس، 8 أغسطس، 1303م - 24 ذي الحجة 702 ه.

هل يستطيع المرء استدعاء النوم؟

بذل جهده كي يسقط في عالم الأحلام، بوتيرة أسرع من ساعته البيولوجية المعتادة.

أسند «زعفران» جبهته إلى زجاج النافذة المغلقة في الأتوبيس، الناس من حوله يُسرعون إلى شواغلهم، لا يلقون له بالًا. تجاهل الضوضاء، وأغمض عينيه، ريثما يستهل طريقه الطويل إلى الجرنال، عازمًا على أن يمنح «أنهار» الأمانة التي سلّمه إياها الفخراني الكبير؛ الصورة التي لم يرَها بعد. أو للدقة فالصورة ذريعة لرؤيتها، كان في أمَس الحاجة إلى رجاحة عقلها، وخبرتها الحياتية، للتحدث معها فيما كان وفيما سيكون.

يجهل أنه في اللحظة التي طرق فيها بوابات النوم، اجتذب «عيناء» معه إلى عالم الأحلام، وأن رأسها الآن يتساقط أسفل فراش صاحبة البنسيون، من غير حول منها ولا قوة، تغط مثله في نوم عميق، يحيطها الكثير من الفخار غير المحروق.

يجهل كلاهما أن دخول أحدهما إلى مملكة الأحلام، بات يستدعي الآخر بالتبعية، وأن الحلقة السحرية التي تجمعهما، أكثر وهجًا من ظنونهما معًا!

لم يكد «زعفران» يقع على مشارف الحلم الجديد، حتى اهتزّت الأرض أسفل قدميه بزلزلة عنيفة، هذه المرة لم يجد نفسه في بقعة جليدية من

العصر النحاسي، اختفت الجبال والثلوج والنهر المتجمد من المشهد، وتوهجت الشمس فوق الرؤوس، حمراء جدًّا، وحقيقية جدًّا.

لم يشعر كالمرة السابقة أنه «كهرمان» الهمجي، الذي يطوف العشائر بحثًا عن امرأة بعينها. إنه الآن يتلبّس شخصية مغايرة، لرجل حكيم، ذي رأي رشيد ومال وفير، يُقال له الأمير «نعمان بن آل سمعان»!

كانت زلزلة شديدة، رجرجت ربوع القاهرة بقوة عنيفة، عند صلاة الصبح، لما يقرب من الساعة.

سُمع للحيطان صوت قعقعة مريع، انهارت المباني على رؤوس ساكنيها، وكان لها حين سقوطها صوت أفزع الطيور النائمة في أعشاشها. هرع الناس إلى الطرقات، بينما الأرض تميد بمن عليها، تُميل السائر، وتُسقط الراكب، وتُقلق الأجنة في أرحام أمهاتهم، تشققت الجبال حتى خُيل إلى الناس أن السماء قد انطبقت على الأرض بفكها.

صراخ في كل مكان، يهرب المرء من زقاق إلى آخر طمعًا في النجاة، فما هو إلا كالمستجير من الرمضاء بالنار، هبّت ريح عاصف حارة تشوي الوجوه، تقلبوا فيها تقلب اللحم فوق الجمرات. تطاير معها الأمير «سمعان بن آل نعمان»، وقد كان على متن مركب يشق طريقه وسط النيل قبل حدوث الزلزلة. ثار النيل ثورة لم يرها أحدٌ من العالمين، تقيأ على الشطآن ما فاض بحمله من الماء، والمراكب السائرة، والبحارة، قذفهم قذفة قوية مزّقت الأخشاب والأجساد معًا.

ثم عاد لينحصر فجأة، كما فاض فجأة، مبتلعًا ما على الشاطئ بداخل جوفه المظلم العميق. تمكن الأمير «نعمان بن آل سمعان» من التشبث بشجرة خروع نامية على ضفاف النيل، بقوة كادت تقتلع ذراعيه عن جسده، لولا أنه قوي البنيان، موفور الصحة، شديد الإرادة، لكان في عداد الأموات.

ما توقفت الزلزلة حتى هبّت ريح سوداء من الوجه القبلي، لستين دقيقة كاملة، أعجزت الناس عن رؤية بعضهم بعضًا في الطرقات، باتوا يتحسسون السبل، ويبتهلون بالدعاء، ترتجف قلوبهم فزعًا ورهبة، وقد حسبوا أنها القيامة الموعودة، الآن سيقوم الأموات من قبورهم، ويُحشر الناس مع أعمالهم.

ما إن انقشع السواد حتى سكنت النفوس قليلًا، بيدَ أن الخراب الذي رصدوه في قاهرتهم شقَّ عليهم كثيرًا. مضى الأمير «نعمان بن آل سمعان»

في الشوارع هائمًا على وجهه، يتفحص بعينين راصدتين آثار الزلزلة على المباني والمنارات ومنابر الجوامع، ما من بيت إلا وكان أمام بابه التراب والطوب ومخلفات الهدم، تزعزعت الجدران وتشققت، مخلفة عروقًا متشعبة ما كان لها وجود قبل الزلزلة.

التهى الناس في تفقد أنفسهم وذويهم وأملاكهم، فيما مضى الـ«نعمان بن آل سمعان» يشق الدروب صوب قصر بعينه، يعرف أن فيه مراده.

تفقَّد الخدم والحرس، كانوا جميعًا أحياء سالمين، قدَّم لهم نفسه بالاسم واللقب. طافت عيناه في أرجاء القصر بحثًا عن امرأة بعينها، ولما لم تعثر عليها النظرات القلوقة، أخذ يتساءل في شك مريب عن قهرمانة القصر، ومدبرته التي ترعى أموره.

- أين «مرجانة»؟

تعجب الجميع لسؤال أمير له مُلك وجاه عن خادمة كـ «مرجانة»، لماذا يهتم أمير مثله بقهرمانة القصر ويخصها بالسؤال؟ اللهفة التي تحدث بها، والجزع في نظراته التي تفتش عنها في الأركان، أثارا الريبة في صدورهم.

طأطأ أحد الخدم برأسه، وقال في حزن بادٍ على محياه:

- سيدي، تفقدنا الجميع، إلا أننا لم نعثر عليها في أي مكان.

انتفض قلب الأمير برجفة كادت تقترب من هزة الزلزال المدمرة. أطلق سؤالًا صاخبًا بالشعور، دون أن يولي ذرة اهتمام بمظهره أمامهم:

- كيف ذلك، ألم تكن في القصر وقت وقوع الزلزال؟

- لا يا سيدي.

ساورتهم الشكوك، ولعبت بعقولهم الظنون؛ لم يسبق لأمير أن أبدى اهتمامًا مماثلًا بقهرمانة القصر، ولا بأي من الخدم، أو بأحد الحرس. هذر الأمير «نعمان» ذو الصوت الجهوري، الذي أفزعهم ما إن تملك منه الغضب. انطلق من فوره يتفقد الطرق، يطوف الأزقة حاملًا قلقه وجزعه فوق كفَّيه، يُلقي نظرة داخل دكان، ويوقف أحدهم ليسأل عن امرأة نجلاء العينين، بجبين لا ينحني أمام وزير ولا في حضرة أمير، شعرها طويل ثائر كموج البحر، ولقلبها القدرة على إسعاد قافلة من التعساء.

لم يعثر عليها في أي مكان، كأن الريح السوداء قد سرقتها، وأخفتها في جيبها.

وقف وسط السوق الممتلئ بالتراب والطوب بأكثر مما يحوي من البشر، يتساءل في لوعة وجزع:

- أين هي؟ يجب أن أعثر عليها قبل فوات الأوان.

***

بهزات ارتدادية متتابعة، ما زالت الأرض ترتجف، لم تسكن مذ أن وقعت الزلزلة، توالت الريح الحارة تخنق في الناس أنفاسهم، وتضيق عليهم الأرض بما رحبت. أرسل السلطان الناصر محمد بن قلاوون يتفقد أحوال رعيته، هرب الخلائق من البيوت مخافة الموت والدمار، هجروا قلب القاهرة إلى الصحراء، عسكروا فيها ونصبوا خيامهم، لملمهم المصاب في عقدٍ واحد، الأمراء والخفَر، المعوزون والأعيان.

طاف الأمير «نعمان» بالخيام المنصوبة في العراء، التي تستر خلفها الأطفال والحريم، يسأل القائمين على أمرهم عن «مرجانة»، التي تعمل في أحد القصور كقهرمانة. لم يدع بابًا إلا وطرقه، ولا شبرًا إلا وفتَّش فيه، حتى أتاه أحد الحرس يبشره بالعثور عليها، في خيمة غير بعيدة.

اصطدم صدره بكتف بائعة تفاح، تُخفي وجهها خلف غلالة من الشيفون الأبيض، وقعت سلة الخوص من بين يديها وتناثر ما بها في الأرجاء، رغم عجلته عاونها على لملمة مصدر رزقها، وقبل أن ينصرف سدد لها نظرة تحية واعتذار.

أقبل الأمير «نعمان» على خيمة متواضعة، لرجل حلّاب كشطت الريح داره، كان يحلب بقرة حين وقعت الزلزلة، فقذفته الأرض مع المحلب والبقرة إلى الأعلى، ثم أنزلته دون أن يُراق من حليبه قطرة واحدة، يجلس وحوله يتجمهر الناس في نصف دائرة، يقص على مسامعهم قصته العجيبة، ولُطف اللطيف به.

قام الحلاب يرحب بالأمير مُبينًا بحماس:

- سيدي لم أكن أعلم من هي، أخرجتها من وسط دار تهدمت، كان معها شيخ لم يتمكن من النجاة، يبدو أبوها أو أحد أقربائها.

- مرجانة!

ما إن رآها الأمير نائمة فوق أرض الخيمة، حتى همس باسمها، بحميمية استجلبت دهشة الحلاب. بإشارة من يده أمره بالانصراف، خلت الخيمة إلا منه ومنها، متسطحة فوق رداء سميك كانت، وجهها معفر بالتراب، والجروح مغطاة بدماء متجلطة. أخبره الحلاب قبل أن يغادر أنه قدم لها الحساء، وأنها نائمة قبل ساعتين، بعد أن هدَّها التعب والألم والبكاء.

أمسك الأمير بخرقة كانت في زاوية الخيمة، قرب إناءٍ نحاسي، سكب بداخله الماء، ثم جلس على فرشتها، يزيل ما علق بوجهها من شوائب، بروية خشية إيقاظها.

- متى سينتهي هذا العذاب؟

همس الأمير «نعمان» بصوت مشروخ، ونفس متعبة. فتحت «مرجانة» عينيها تطالع وجه الأمير على بعد بوصات منها، تنتفض من رقدتها، تطالع ما حولها في ريبة. رفع كفًا يهدئها:

- أنتِ بخير.

- أين أنا؟

- في خيمة رجل حلاب، أنقذك من تحت الأنقاض.

- ومن تكون أنتَ؟

- لا يهم من أكون، من الشيخ الذي كنتِ عنده في الدار؟

استرابَت من مسلَك الرجل حسن المظهر، فخم الملبس، في إصبعه خاتم من الياقوت الأحمر، لا بُد وأنه ينتمي إلى طبقة الأمراء. لم يسبق أن أبدى غريب نحوها عاطفة رعاية، أو بادرة اهتمام، كان وزنها في القصر الذي تعمل فيه كمقعد خشبي، أو فنجان من الخزف، لا قيمة لها ولا مزية، إن تكسرت اليوم، سيأتي أصحابه في الغد بعشرات غيرها. فمن هذا الرجل الذي يبدو كأنه يكن لها من المشاعر أعمقها، ومن الخبايا أقواها؟

أدركت أنها لم تُجب عن سؤاله، وفطن هو لذلك، ظنت أنه سينتزع الجواب من فمها بطريقة الأمراء القاسية في التعامل مع خدمهم وحاشيتهم، إلا أنه التزم الصبر.

دار يتأمل محتويات الخيمة، أحضر لها خبزًا جافًا كان بداخل طبق من الخوص، والقليل من السمن المخلوط بالسكر، وضعهم في يدها وأمرها بلطف:

- كلي هذا إذا كنتِ جائعة.

- لا أشعر بالجوع.

- عطشى إذن؟

- نعم.

شربت الماء الكثير من القِربة حتى ارتوت، جفلت حين جلس الأمير على مقربة منها. رفع كفه يقول مطمئنًا:

- أريد التحدث فحسب، ما سأقوله مهم وخطير وصعب التصديق، أريدك أن توليني انتباهك كاملًا.

أولته جُل اهتمامها، وما سمعته تاليًا لم يكن مهمًا وخطيرًا وصعب التصديق، بل كان مستحيلًا ولا عقلانيًا. إذ بادرها بجدية بالغة:

- لا أنتِ «مرجانة»، ولا أنا «نعمان» الأمير!

تعلقت نظراتها بختم من الشمع الأحمر يتوسط جبهته، كان غريبًا متوهجًا، لم يسبق لها أن رأت شيئًا مماثلًا، إلا فوق الرسائل التي كانت تحضر إلى القصر، التي تتعامل معها بشكل خاص، نظرًا لسريتها، وخطورة فحواها.

فلماذا يرغب رجل في أن يختم نفسه بالشمع الأحمر؟

- ماذا تقول يا سيدي؟

- أقول لا أنتِ من هذا العصر ولا أنا، أنتِ لستِ من تظنين، وجودك في هذا العالم شاذ، كما هو الحال في كل زمان ستمرين به.

- هل أنتَ بخير يا سيدي، إنك تهذي بشكل مخيف.

- اسمعيني ولا تقاطعيني، أنا هنا في مهمة.

- أي مهمة؟

- مهمة جليلة جدًا، ولكي أعود منها منتصرًا عليكِ أن تفعلي أمرًا مهمًا لأجلي.

- أنا مجرد قهرمانة، ماذا يريد أحد الأمراء مني؟

- أريدك أن تحيكي ثوبًا، من أي قماش شئتِ، وبأي خيط أردتِ، المهم، أن يتسع لجسدين.

- أي ثوب هذا؟ لا أريد أن أحيك شيئًا لأجلك، أنا لا أعمل عندك لتأمرني، ثم ما المهم في هذا الثوب؟

- إنه الطريق الوحيد للنجاة، والعودة إلى حيث أنتمي.

نظرت صوبه بدهشة، تحسب أن مسًا من الجنون قد أصاب الرجل الذي يبدو كالأمراء، لكن يتحدث كالمجاذيب، يهذي أمامها بحديث لا يخرج من جعبة العقلاء، بوجه قاسٍ مريب.

طفق يدور في أرجاء الخيمة بوتيرة محمومة، لا تعرف إن كان يوجه حديثه إلى نفسه أم إليها:

- قوى الشر تتحكم بنا بشكل أخبث مما نظن، إنهم لا يجبرونك على فِعل الشر، بل يزينونه لكِ حتى ليبدو مذاقه كالشهد في فمك، تستيقظين من النوم لتجدي نفسك قد وقعتِ في حب الشر وأهله، هل تعرفين ما أكبر معول لإضعافنا؟ أننا نسلم زمام عقولنا لحفنة من الإمّعات والرويبضة والمخابيل، فقط لأنهم يملكون منابر غالية، وأصواتًا عالية، يُحسنون التزين والتزلف، جيوبهم ممتلئة بالدنانير، وصدورهم متخمة بالأوسمة والنياشين.

تملك منها الخوف على نفسها، وهي ترى الأمير في حالة من الثورة والغضب، فآثرَت الصمت إذ توقف عن حركته المحمومة، ورمقها مستطردًا بسخط:

- هل تذكرين ما وقع في رمضان وحتى بداية شوال؟ تفاخر بعض الأعيان والأمراء بالسرادقات وزينتها، والأقبية واستطالتها، فرحًا بالنصر على المغول، أقاموا الاحتفالات، التي جرى فيها ما يشيب من هوله الوِلدان،

نزعوا رداء الحياء وسيَّروا بينهم المنكر والمحرمات، جاهروا بالمعصية ودعوا إليها، باركوا صنوف الفواحش وأشاعوها، كبَّروا من واقعها ونفروا ممن نبذَها.

أخفت قهرمانة وجهها بين كفَيها، حياءً مما تسمع، كانت قد بلغتها أخبار هذه الفواحش، ومن شارك فيها، حتى ظنت أن الزلزال كان عقابًا ربانيًا. أردف الأمير ساخرًا، بنبرة أشد من سابقتها:

- لا تظنين أن هذا أسوأ أنواع الشرور، سيأتي زمان أغبر يحدث فيه ما لا يُمكن لشطط خيالك أن يبلغه، أعرف، لأنني قادم منه الآن.

أمسك بكتفيها بين قبضتيه، فانتفضت تنوي الصراخ، لم تسنح لها الفرصة، إذ وضع كفًّا فوق فمها يئِد الصرخة قبل أن تولد. يقول بغضب مكظوم، وعناد مسموم:

- سأجرب معك كل شيء، سأسلك وراءك كل طريق، سأتبعك في جميع الأزمنة، وسأجبرك على صناعة الثوب، بالشدة أو باللين، بالترهيب أو الترغيب.

قاطع حديثهما دخول الحلاب ذاكرًا اسم الأمير، ومحاورًا إياه في أمر تافه. تنامى الغيظ في صدر الأمير، بادر بصرفه ومنعه من اقتحام الخيمة، ومقاطعة اجتماعه بـ «مرجانة».

كانت «مرجانة» تفكر في حظها الأسود الذي أوقعها في قبضة أمير مخبول، ماذا تفعل الآن ولم يعد لها ظهر يحميها من غدر السنين؟

تفكر في الدار التي تهدمت، والشيخ الذي زهقت أنفاسه الأخيرة قبل أن يرتويا معًا من كأس الانتقام. لم يكن الشيخ سوى أبيها، الذي كان سابقًا أحد الأعيان، من كبار التجار، أغار زمرة من الأمراء بظلمهم وطيشهم على مخازن الرجل، سلبوه المال والجاه. لم يكتفوا بذلك، دبَّروا له مكيدة محكمة زجَّت به في السجن لسنوات، سلبته العمر والسمعة الطيبة، لم تتحمل أمها هذا القهر، ماتت من هول الفاجعة.

دخلت «مرجانة» قصر أحدهم بعدما أقنعت أباها بضرورة الانتقام، أرادت أن تجمع من الأدلة أشدها، ومن الخبايا أبشعها، ما يثبت فساد الأمير

وصُحبته، فتقدمهم جميعهم إلى السلطان لينالوا عقابًا رادعًا، جزاء القلوب التي أحرقوها، والحيوات التي سلبوها.

لم تفلح في مسعاها، كانوا أكبر من الانهزام، وأكثر حصانة من الحساب. اشتد الظلم واستطال إلى أن أتى الزلزال، يسد عليها طريق الانتقام قبل بلوغ نهايته، ما نفع الانتقام الآن وقد مات الأب تحت الردم دون أن يسمع صرخاته أحد؟ ما نفع تبرئة اسمه بعد أن فقد حياته، نسيًا منسيًا كان، لا يودُّه أحد، ولا يصدقه أحد؟

امتلأ صدر «مرجانة» بحمم تغلي وتثور، تحقد على كل ثري وصاحب جاه، ترجو له الذل والهوان. تزلزلت بداخلها كل الفضائل التي سكبها أبوها في أسماعها من حصافة الفكر، واتزان الشعور، ثم انهارت أرضًا مثل بنيان مهزوم. كان الأمير واقفًا يوليها ظهره، ينهي حديثه مع الحلاب، قامت من فورها تستل خنجر أبيها من حزام تلفه بخصرها أسفل الفستان، مرصع بالزمرد الأخضر، كان قد صُنع خصيصى لأجله قبل زمن بعيد. انطلقت في سرعة وعزم نحو ظهر الأمير، كناية عن كل الأشرار الذين آذوها. وقبل أن يستفيق من دهشته، ويلتفت ليُطالع وجه قاتلته، كانت قد سددت ضربات قوية متتالية، اخترقت فيه القلب، ومزقت فيه الحياة.

اتسعت عينا الأمير، يهوي فوق الأرض مضرجًا بدمائه، لم تند منه نظرات غضب، أو أمارات بغض، بدا متأهبًا لطعنة في الظهر. همس لها بكلماته الأخيرة، التي تتخلط فيها الأنفاس بخرير الدماء:

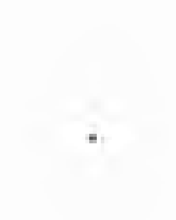
- سنلتقي من جديد!

***

في الأتوبيس، استيقظ «زعفران» فزعًا، يضع كفه عند موضع قلبه الذي تمزق في الحلم قبل قليل، يجاهد ألمًا يبدو مريعًا، وحقيقيًا.

تهامس لنفسه بيقين، وهو يُجيل النظر في الطريق ذاهلًا عما حوله:

- لقد فهمتُ الآن، الزلزال هو مفتاح كل شيء!



# (31)
# كنشارة لا مكارة

استفاقت «عيناء» من الحلم، أسفل فراش صاحبة البنسيون، تتخبَّط في آنية الفخار غير المحروق، في طريقها سعيًا للفرار. في غرفتها غلَّقت الباب، ووضعت خلفه مقعدًا ومشجبًا ودولابًا، صدرها يعلو ويهبط بتواتر حثيث، تعب رئتاها الأكسجين بالكاد.

قبل قليل، كانت هي نفسها القهرمانة «مرجانة» في عصر المماليك، تستل خنجرها المرصع بالزمرد الأخضر، لتقتل به الأمير «نعمان»، الذي تثق أنه نسخة مجسدة عن الهمجي «كهرمان»، ومن قبلهما المجذوب «زعفران»، الذي لا يفصل بين غرفتها وغرفته أكثر من جدار.

- هذا سحر أسود، لا يقوى عليه إلا ساحر لعين.

لم تحتَج إلى طول تفكير؛ ربطت الأحلام العجيبة بصاحبة البنسيون، والفخار غير المحروق، الذي يحمل توقيع أبيها الفخراني الكبير. لم تكن تلك هي السابقة الأولى له، كانت تعرف بيعه لهذا النوع من الفخار، بمبالغ كبيرة، ليستخدمه السحرَة في أعمال السحر المذموم.

يوم أن فهمت ما يصنع، وشت به إلى أمها طريحة الفراش، فدبَّ بينهما شجار سمعه القاصي والداني من أهل الحارة. بكت أمها طويلًا، ترمي في وجه أبيها تهمًا شتى: بالجشع، والخسة، ورذائل الأخلاق. كيف يطعمهم من بيع الفخار غير المحروق؟

أخبرتها أمها أن الفخار النيء، الذي لم يشم رائحة النار، ولم يمس رماد الأفران، شاع الاعتقاد باستخدامه في أعمال السحر، عن طريق الكتابة والحفر

فوق سطحه القابل للتشكيل، يُترَك ليجف، بغير نيران، ثم يُلقى في النيل، أو أماكن مهجورة، أو داخل الآبار الجافة.

وهي ذاتها الطريقة التي يستخدمها السحَرة، في الكتابة فوق عظمة بيت اللوح[1]، في الحيوان المذبوح، التي يحرص الجزار الأمين على كسرها قبل التخلص منها.

يتأكد السحر ويشتد كلما جفّ الفخار في الهواء، فتثبت الكتابات والأشكال التي حفرها الساحر فوقه، ويتحقق السحر للمسحور المتعوس. يرفض كل فخراني ذي ضمير حي، بيع الفخار النيء. وللأسف، لم يكن أبوها واحدًا من أولئك الأمناء. كانت أمها دومًا تقول:

- يومًا ما ستحل فوق رؤوسنا اللعنات.

وها هي اللعنة تطاردها الآن، بعدما دسَّت لها صاحبة البنسيون السحرَ في الأحلام!

***

عليها أن تُنجز مهمتها المقدسة، قبل أن تتلوث أفكارها أكثر، ما كان السحر ليجرؤ على الاقتراب منها إن لم يجد ثغرة ينفذ عبرها، عليها أن تثبت إيمانها، هنا، والآن!

أدركت أنها لن تنجح في الاحتيال على أبيها مرة أخرى، بدس الحبوب المنومة في فنجان قهوته، فاعتمدت خطة مغايرة للإيقاع به، تخيرت الساعة التي اعتاد فيها الفخراني الكبير أخذ قيلولته الأثيرة، التي لم يتخلف عنها إلا مرة واحدة، يوم وفاة أمها.

كان من السهل أن تدخل البيت عبر نافذة غرفته، التي يتركها مشرعة، مفسحًا للشمس الطريق تختال في الدار، متى اشتهت وقويت.

جثمت فوق أنفاسه بمنديل مغموس في المخدر، فثقل نومه، واستعصى على عقله الإدراك. بجانب الفراش ثمة مقبس كهربائي، ثبتت فيه سلك المنشار، إذ طلبت استعارته من صبي النجار.

---

(1) عظمة الكتف.

ذبذب الصوت الكهربائي سكون المكان، ومزّق الأرق الذي لا ينام، شعرت بعيني أمها تراقبانها من نافذة مشرعة على السماء، تبارك فعلها الرشيد، وشجاعتها المستثناة.

ثبتت كفّيه على الوسادة فوق رأسه، ثم كبّرَت، وسمَّت الله.

في حركة خاطفة لم تحسب حسابها، انقض عليها أبوها يتبادل وإياها الأماكن، ينتزع منها المنشار، ويثبت كفّيها فوق الفراش. ذهلت، ثم جفلت، ثم ارتعدت، هل باعها الأجزجي مخدرًا مغشوشًا؟

رمقها أبوها بغيظ كبير، ولوعة من خسر كل ما يملك من سمعة وكبرياء. أزيز المنشار يقترب، تعلو الذبذبات وتشتد، أطلقت صرخة عالية مزّقت الجدران الشاهدة، بينما كفّاها يُبتران عن جسدها، ويسقطان بجوارها جثة هامدة.

العالم ليس محّارة، بل كسّارة. هكذا فكّرت وهي ترى الدفقات الأولى من دمائها.



# (32)

# المسافر

- هل أنت متأكد؟

كررتها «أنهار» على مسامع موظف السجل المدني مراتٍ ثلاث، خلال حديثهما الذي دام لعشرين دقيقة كاملة، قبل أن تغادر مبنى الأحوال المدنية في ذهول؛ ما اكتشفته فيما يتعلق بابنة الفخراني الكبير مريب للغاية، ويتجاوز كل الظنون.

أوقفت سيارتها أمام مبنى الجرنال، خطت قليلًا فوق الرصيف، عقلها سابح في مكان بعيد، يحاول حل أحجية عصية على الأفهام، حين قفز أمامها على حين غرة زميلها «سمير»، يكشر عن أنيابه ويكيل لها الاتهام، بعدما خسر ثقة زوجته، وطالبته بالطلاق.

احتدم الجدال، تراشقا بالتهم. لم يكد يشد على عضدها بعنف حتى ظهر من خلفهما «زعفران»، كالمُنقذ من الأخطار. أفقدتها سرعة الضربات والركلات التركيز، فلم تنتبه أيهما بدأ المعركة أولًا، تطاحنا فوق الأرض، وتلاسنا بالسباب. ثم شهدت بابتهاج تقهقر زميلها خاسئًا ذليلًا، يمسح الدماء عن وجهه، والتراب عن قميصه. بعد أن هدَر «زعفران» في وجهه:

- إنْ اقتربتَ منها ثانية، سأقتلك.

جاورت «زعفران» في جلسته أسفل شجرة وارفة، استظلا بأوراقها الكبيرة، ترنو إلى خدوش طولية بعرض جبينه، تشق ختم الشمع الزعفراني إلى أجزاءٍ ثلاثة. هدأت أنفاسه قليلًا، وإن لم يزل الغضب في عينيه متوهجًا:

- ما مشكلته معكِ؟

أخبرته «أنهار» بأمر المساومة، وما أنزلته به من تنكيل. أخرجت منديلًا قماشيًا من حقيبتها وحاولت تنظيف جرحه، أبعد رأسه وأخذ المنديل يسحقه في قبضته. أردف لائمًا بانزعاج صارخ:

- ولماذا لم ترفضي عرضه من البداية؟
- كنتُ بحاجة إلى المعلومات.

تجعد جبينه محتدًا، رمقها بنظرة مشتعلة، دفعتها للدفاع عن نفسها:

- أنتَ لا تعرف كيف يسير عملنا، الصحفي للجرنال مثل الدجاجة التي تبيض، إن لم أمنحهم ما يفيدهم فسوف...
- وهل الأمر يستحق؟

لا يعرف كم مرة تسأل نفسها هذا كل صباح، هل الأمر يستحق أن تُسحَق كرامتها، وتخالط من تبغض، وتُداهن من لا قيمة له؟ فلا تجد إلا إجابة واحدة: وما البديل؟ الشجار مع أمها كطلقس صباحي معتاد نقرة، وامتداد الطقوس لتشمل كل ساعات اليوم إذا ما قررت ترك العمل، نقرة أخرى.

لا يدرك كم هي وحيدة، تتآكلها المخاوف من الداخل، وتتكالب على روحها المآسي والظنون. إن لم تدفن نفسها في العمل، سينتهي بها المقام إما بالانتحار وإما بالجنون.

لا يدرك كم تأمل في مسار آخر لحياتها، لكنها لا تعرف مُستهل الطريق، لا إشارات أمامها، ولا كُتيب تعليمات. استطرد:

- أنتِ تشترين المعلومات، وتدفعين راحتكِ ثمنًا لها.
- غيري يدفع ما هو أكثر.

العناد درع يحميها من التكشف، يُظهر للآخرين «أنهار» أخرى غير التي تخفيها. سعت إلى تغيير مسار الحديث، وإنهاء الجدل:

- لم تخبرني، لماذا أتيتَ الآن؟

كان قادمًا للحديث معها عما يحدث في ساحات أحلامه، يشاركها ما توقف عليه من إشارات جديدة، من شأنها أن تحل جزءًا كبيرًا من الأحجية. إلا أن دماءه كانت في فورة غضب؛ نهجها في الحياة لا يستسيغه، تُلقي نفسها وسط الأخطار دون أن تُبالي بالعواقب. أراد أن ينهي اللقاء في الحال، مخافة

أن يقسو عليها في الحديث، أو يطلق على تصرفاتها الأحكام. أخرج الظرف من جيبه، قائلًا باقتضاب:

- أعطاني الفخراني الكبير هذه الأمانة لأسلمها إليكِ.

ما إن تلقفته منه حتى نهض مغادرًا. دسّت الصورة في حقيبتها دون أن توليها ذرة اهتمام، جذبت ذراعه بقوة تستوقفه، تسأله بحدة كانت في نظره غير مبررة:

- لماذا ترحل سريعًا، ما الذي أغضبك؟

لمّا ضنَّ بالجواب، أردفت بالحدة ذاتها:

- كنت أستطيع تدبر أمري، أنت تدخلت لتشوه معالم وجه الرجل، لم أطلب منك المساعدة.

- أعتذر عن التدخل فيما لا يعنيني.

لكنه يشعر أن أمورها تعنيه، وبشدة. بات يلحظ الآن الوتيرة المتصاعدة لمشاعره نحوها، ولأنه رجل لا يتذكر الماضي بكل ما فيه من تجارب وأحاسيس، لم يتمكن من تسمية تلك البذرة التي نمَت بداخله، التي تدفعه لأن يُقبل على «أنهار»، ويُدنيها.

لم يرغب في جرها معه نحو نفق مظلم، وهو الذي لا يزال يشعر بالأرض تميد تحت قدميه، لا بسبب الزلزال الذي دمَّر البنيان، بل لأنه يجهل من يكون، لم يجد بعدُ تفسيرًا نهائيًا للغرائب التي تحدث له.

كظمًا لغيظه استدار مفارقًا. تركته يبتعد عدة خطوات قبل أن تعود إلى حقيبتها، تفتح السحاب، وتُخرج الصورة من مرقدها، تجمدت للحظات من هول المفاجأة. أطبقت على ذراعه تستوقفه من جديد، وقبل أن تسنح له الفرصة للاعتراض، بادرته بانفعال:

- ألم تتعرف على الفتاة التي في الصورة؟

جزَّ على أسنانه يقول:

- صحيح أنني لا أتذكر من أكون، لكنني لستُ رجلًا يخون الأمانات.

أشهرَت الصورة أمام عينيه الذاهلتين، كان وجه «عيناء» متجليًا داخل الإطار الصغير الأبيض، لا لبس فيه ولا إشكال. أمسك بالصورة بلهفة، أمضت

في جيبه يومًا بليلة، دون أن ينظر إليها. تمتم بعبارة غير مفهومة، أتبعها بسؤال:

- لماذا يحمل الفخراني الكبير صورة «عيناء» معه؟ ولماذا أعطاكِ إياها؟

استثارت أعصابها، وتبدلت أحوالها، كلما ظَنت أنها على وشك الفهم، تبددت كل الحقائق أمام عينيها، لشد ما يزعجها الغموض غير المفسّر، والوثائق المبتورة، والقضايا غير المحلولة.

- الفخراني الكبير هو والد الفتاة المجنونة التي أبلغ عن محاولتها لقتله بعد هروبها من المصحة، كنتُ قد طلبتُ منه صورتها، أخبرتكَ أنني أتابع الخبر منذ اللحظة الأولى.

سألها بنبرات مستريبة:

- وهل كنتِ تعرفينَ أن ابنته هي نفسها «عيناء»؟

نفت بقوة، كمن وضِع بغتة في موضع الاتهام:

- لقد عرفتُ للتو.

عاد يتأمل الوجه المطبوع بين أنامله، إن كانت الفتاة مجنونة، هاربة من مصحة كما تقول «أنهار»، فلعله هو أيضًا مجنون مثلها. ربما الجنون هو الشيء الوحيد الذي يجمع كل هذه الخيوط معًا، وليس المنطق كما كان يظن ويأمَل.

- «زعفران» ابتعد عنها، ثمة شيء مريب متعلق بهذه الفتاة.

كان قد اعتاد رغبتها الحثيثة في إثنائه عن المضي قدمًا في إثبات الصلة بينه والفتاة، لكن هذه المرة انتبه إلى أن صوتها يحمل شيئًا من المعرفة، لا الاستياء فحسب. سألها:

- ماذا تقصدين؟

أخذت شهيقًا عميقًا زفرته بقوة، أخرجت من حقيبتها وثيقة تحصلت عليها قدرًا، عندما أعطاها الفخراني الكبير شهادة الميلاد، كانت ثمة ورقة أخرى مدسوسة في طياتها، في غفلة منه.

قالت تنزع فتيل قنبلة مدوية سُمع صوتها في الأرجاء:

- هذه الفتاة لديها شهادة وفاة!

***

كان لحديثهما القدرة على التشعب، والاستطالة إلى ما شاء الله. استحسنَا الابتعاد عن أنظار المارة في الشارع، والالتفاف حول طاولة منزوية في كافيتيريا الجرنال، للتباحث حول كل المعطيات الملتوية التي صادفتهما حتى الآن.

العثور على شهادة وفاة لـ «عيناء» ليس الحدَث الأغرب في كل ما سبق، إلا أنه الوحيد الذي لم يُعثر له على تفسير، لا بالمنطق ولا بالخيال. لماذا يستخرج الأب شهادة وفاة لابنته التي على قيد الحياة؟

بادرته «أنهار» وهي تنثر القرفة في كوب السحلب:

- ما فهمته من مصدر معلوماتي يعمل بالسجل المدني، أن شهادة الوفاة ملغية، كان لا بُد وأن تُتلَف منذ زمن طويل.

أزاح «زعفران» كوبه الذي لم يُمَس إلى طرف الطاولة، قائلًا بحماس، وأنامله تتشبث بأطراف الصورة الصغيرة:

- أي أن أباها استخرج لها شهادة وفاة، وهذا يستلزِم تصريحًا بالدفن كما أخبرتِني، بعد صدور الشهادة حدث شيء ما تسبب في شطب النسخة الأصلية وحذفها من السجلات، وبقيت هذه الواقعة مسجلة في دفاتر الأرشيف، هذا لا يترك لنا سوى احتمال واحد للتفسير.

أكملت «أنهار» حديثه من حيث توقف، يبثان الأفكار على موجة واحدة:

- الفخراني الكبير دفع رشوة لأحد موظفي مكتب الصحة لاستخراج تصريح بالدفن لابنته الحية، ثم حدث أمر ما جعله يتراجع، ويسعى إلى إتلاف الشهادة المزورة من السجل المدني، ربما الأمر يتعلق بميراث.

تفكَّر «زعفران» قليلًا، أرسل نظراته بعيدًا، ثم عاد ليُسقطها فوق وجه «أنهار»، يضيف:

- أو احتمال ثانٍ.

رمقته «أنهار» في فضول. أردف:

- لم تكن مؤامرة، كل شيء تم بصورة رسمية منذ البداية، بلا تلاعب أو رشاوى أو تزوير.

- كيف؟

بسطَ شهادة وفاة «عيناء» جنبًا إلى جنب شهادة ميلادها، ثم استطرد:

- انظري إلى تاريخ الوفاة، إنه تاريخ ولادتها نفسه، ربما قطعَت النفَس وظن الأطباء موتها، وبعد استخراج تصريح الدفن وشهادة الوفاة تبين لهم أنها لا تزال حيَّة.

كان ما قاله منطقيًا جدًا، إلا أنه لا يُبرر ما استرابَت بشأنه منذ البداية؛ لماذا يكره الفخراني الكبير ابنته إلى هذا الحد، أليس من المفترض أن يمتنَ لبقائها على قيد الحياة بعدما ظن أن الموت قد اختطفها من حضن أبوته؟

فاجأته «أنهار» بكلمات مُذعنة، ما ظن أن يسمعها منها:

- كنتَ محقًّا من البداية، ربما هي زوجتك فعلًا، وقد أفقدها الجنون إدراكها، لذلك لم تتعرفك.

- ما الذي بدَّل رأيكِ؟

رغم علمها أنها بكشف المعلومات التي توصلت إليها، ستفقد رويدًا رويدًا كل رابط يجمعها به، وأنها ستقربه أكثر من غريمتها الوحيدة، فإنها قررت مصارحته. اختارت إخباره، رغم أن الطريق إلى سعادته سيمر عبر تعاستها.

- هل تذكر «نزيه الليثي»، زميلي الذي عرفتك عليه في الجرنال؟ «نزيه» مختفٍ منذ أيام، لا يعلم أحد مكانه.

- ألم تُقدموا بلاغًا للبوليس؟

- نعم فعلنا، وليس هذا موضوعنا، فتشنا مكتبه فلربما نعثر على شيء يقودنا إلى سبب أو مكان اختفائه، في أثناء ذلك عثرتُ على دفتر ملاحظاته.

أدرك «زعفران» أن للأمر علاقة وطيدة به، لذا أصاخ السمع، وتحفَّزت أعصابه.

- «نزيه» كان يُعد مقالًا عن فتاة تطوف شوارع مصر القديمة بفستان الزفاف بعد الزلزال، بحثًا عن زوجها الذي فقدته تحت الأنقاض، ولسبب ما كان يربط في ملحوظاته بينك وبينها.

- وما علاقتي بها؟

- هذه الفتاة هي «عيناء» نفسها، تأكدتُ من ذلك بعدما تحدثتُ إلى أخيه، ضابط قسم الجمالية الذي تلقى بلاغها باختفاء زوجها، زوجها «جمال»، الاسم نفسه الذي أخبرتني أنت به.

توقفت لتتأمل قسماته، وتأثير كلماتها عليه. قاومت غصة مريرة، أوهنَت صوتها وهي تردف:

- المشكلة الوحيدة أنني عثرتُ عليك أسفل عمارة الموت في مصر الجديدة، وهي تقول إنها فقدت زوجها في مصر القديمة، لم يعرف «نزيه» بالطبع أنها هيَ نفسها الفتاة المجنونة الهاربة من المصحة، وإلا لأدرك ما أدركه الآن، الفتاة تعاني أوهامًا وضلالات تجعلها تخلط بين الحقائق والظنون، ربما فقدتك أسفل عمارة الموت فعلًا لكن بسبب مرضها لا تدرك ذلك.

أنهت شرحها بسرعة، تتخلص من حمل ثقيل بوزن الجبال. طفقت ترتشف السحلب بروية، تولي وجهها شطر السماء، دون أن تجسر على النظر إلى وجه الرجل الجالس قبالتها، الذي توشك على فقدانه، إلى الأبد.

كانت المشاعر تعصف به من كل اتجاه، وتتقاذفه الأفكار من جهة لأخرى. نطق باسمها، فاضطربت، طالعتها نظراته الشغوفة، قلبها يدق بقوة لا قِبل لها بها. قال ببساطة:

- أنا أيضًا بدّلتُ موقفي.

رمَت بنظراتها صوبه، تنتظره أن يُحيي الأمل الآخذ في الذبول. أردف في ثقة:

- هذه الفتاة ليست زوجتي.

بلغ بها العجب مبلغًا عظيمًا، دفعها لأن تتخلى عن الحذر، فتتجلى بسمة صغيرة على شفتيها، قبل أن تسأله في لهفة:

- ولماذا تظن ذلك؟

الحلم الذي مرَّ به في أثناء قدومه بالأتوبيس، كان محركًا فعالًا لبوصلته في الاتجاه الصحيح. المشاعر التي يكنها للفتاة، أبعد ما تكون عن الحب، أو الشوق، أو الاشتهاء. لم يدرك هذا بسبب الحلم وحده، للمرأة الجالسة قبالته حصة كبيرة في ذلك.

- ما هو الحب يا «أنهار»؟

بوغتت بسؤاله، حتى إن نظراتها تجمدت فوق وجهه للحظات، قبل أن ترتشف من المشروب الذي فتَر. تُطرق برأسها، تفرك كفَّيها بتوتر ملحوظ، تعترف:

- لا أعرف.

تسكت لحظات، يقف عصفور على حافة النافذة، ويغرِّد. تردف:

- شعور مميز، ليس الجميع قادرًا على الإحساس به، أظن.

- شعور بماذا؟

كيف تختزل معاني الحب في كلمة، دون أن تخِل بالمعنى؟ لم يطل تفكيرها. قالت:

- بالذوبان.

اعترفت في نفسها أنها تشتهي هذا النوع من الذوبان، مع شخص يراها أفضل مما تبدو عليه، ويبدد مخاوفها عن الحب والحياة.

أخرجها من شرودها بسؤال أصعب من الأول:

- وأنتِ، ألم تشعري به من قبل؟

هزَّت رأسها نفيًا، ترفع كفها تلمس أطراف شعرها القصير، تجذبه من غير عنف، تُحاول مداراة الجُرح القديم، وآثار النزيف، قبل أن يلحظه الرجل الذي أولاها اهتمامًا كاملًا، كأنه يقرؤها.

- ممَّ تهربين؟

استجلب سؤاله العبرات المالحة إلى حدقتيها، ولشد ما تكره أن تمتلئ عيناها أمام أحد. رعشت رموشها بوتيرة سريعة. أنكرَت:

- لا يهرب سوى خائف أو ضعيف، وأنا لستُ أحدهما.
- بل أنتِ كلاهما.

انزعجت، فعقَّب بسرعة:

- ولا بأس أبدًا في ذلك، يمكننا أن نكون خائفين وضعفاء أحيانًا.

عانق شكها باليقين، تلطف بها، كأنها طفل يخطو خطواته الأولى صوب الحياة، بحثًا عن هويته.

رنَت إليه ذاهلة، قليلًا، ربما لأنها لم تُفكر في هذا المعنى من قبل، نعم، يمكننا أن نكون خائفين وضعفاء أحيانًا، دون أن نضطر إلى جلد ظهورنا بسياط الماضي، وما كان يصح، وما كان يجب أن يكون.

يمكننا أن نكون خائفين وضعفاء أحيانًا، دون أن نحتقر هذا الخوف، أو نمتهِن هذا الجُبن، نتصالح معهما كصفات مزروعة في شفرات حمضنا النووي.

- شخص ما عليّ مواجهته، لكنني لم أجرؤ قط.
- ما الذي يمنعكِ؟
- إن وقفت أمامه سأبكي، لا أريد أن أخوض هذه المواجهة كأنثى مرتجفة مهزوزة.
- عندما نعترف لأنفسنا أننا أقل ثباتًا في مواضع ما، دون أن نحتقر ذلك، سنطور استراتيجيتنا الخاصة في الصمود والاستقواء، الأشياء تستجلب نقيضها أحيانًا.

استوقفها منطقه، الذي يُشبه كثيرًا الصورة التي تحب أن تكون عليها، فقط لم تكن تستطيع أن تصيغ هذا المعنى في جمل مفيدة، وسماعه مرتبًا على هذا النحو، جعلها تنفتح على نافذة جديدة، لم يسبق لها أن طالعت المشهد من خلالها.

رنَت إليه ممتنة، ومنجذبة في آنٍ، لم يثقل عليها بالأسئلة، سحب الحديث من قلبها ببطء من يملك الصبر كله. الرابط الذي يتوطد ببطء، أكثر متانة من ذاك الذي ينشأ سريعًا. شيئًا فشيئًا كانت تلتحم معه في عقدة، تسلبها العناد،

وتُرخي آلياتها الدفاعية المعهودة. أمامه تشعر أنها مأججة بالمشاعر الحلوة، ولم يكن قد سبق لها أن تلذذت بحلو المشاعر.

لم يحاول أن يلمسها، ولو مرة، أبقى على قدر من الخصوصية بينهما، وأبدى احترامه لأفكارها ومشاعرها، حتى وإن اختلف معها، لا يدرك كم تثمّن ذلك.

قال عازمًا على الإفصاح عن كل ما يدور بخلده، الذي أتى إليها ليقوله:

- «أنهار»، بِت الآن واثقًا مما توصلتُ إليه، كل ما يحدث له علاقة بالزلزال.

***

لم يكن من سبيل للتأكد من صحة النظرية التي بناها «زعفران» إلا بولوج غرفة الأرشيف بالجرنال. مهدت «أنهار» أمامه الدرب كي يُطالع منها ما يشاء. أمام مئات الأرفف الممتلئة بالملفات، المكدسة بآلاف المعلومات والصور والمقالات التي أفرزها محررو الجرنال منذ تاريخ إنشائه. أكمل سرد نظريته وهو يزيح الغبار عن الملفات، ويشاركها البحث والتفتيش في الأوراق:

- أنتِ لم تكوني هناك، كنتُ الأمير «نعمان بن آل سمعان» تمامًا كما كنتُ من قبل «كهرمان» الهمجي، كل شيء حقيقي جدًا، كأنا، كأنتِ، كوجودنا بين جدران هذه الغرفة الآن.

لا يزال يساورها الشك في نظريته، أخذت تجادله:

- لا أكذّبك فيما تقول، لكن ربط كل ذلك بالزلزال فهذا شيء...

قاطعها وقد توقف عن البحث، يحمل في يده ملفًا كبيرًا يضم مقالات الجرنال قبل عشر سنوات، يقول بجدية بالغة:

- أؤكد لكِ أن الزلزال هو بداية قصتنا ونهايتها، عندما كنتُ وسط كل هذا الجليد شعرتُ بالأرض تتصدع أسفل قدمَي، وقذفتُ في عصر المماليك في لحظة تزلزلت فيها الأرض بحملها، وهنا في هذا البُعد، عثرتِ عليَّ أنتِ تحت أنقاض عمارة تهدمت إثر زلزال عنيف، كيف بعد كل هذا لا تصدقين أن للزلازل علاقة قوية بما يحدث لي؟

- لا أصدق، ولا أكذّب، أنا فقط، لا أعرف.

تهدر المروحة المتآكلة فوقه رأسيهما بأزيز ظل الوحيد الذي يُسمع بين الجدُر الأربعة، لما يزيد على الساعة ببضع دقائق، حتى صاحت بحماس:

- يبدو أنني عثرتُ على شيء.

جاورها يُطالع الأقاصيص بلهفة مماثلة، تأكل أنظارهما الكلمات المحبرة بسرعة فائقة، بينما لسانها يلهج بمقاطع متفرقة:

- ... وكانت زلزلة عُظمى ظلت الأرض ترتجف بعدها عشرين يومًا، عصفت بالبلاد ريح مظلمة، تفسّخت الأرض وظهرت من تحتها رمال بيضاء وحُمر، هدمت منابر الجوامع...

أوقفها «زعفران»، يُبعد ناظريه عن الأسطر، قائلًا بانفعال:

- كنتُ هناك مختبئًا في عقل الأمير «نعمان»، عاينتُ كل هذه التفاصيل، سقطت بعض جدران جامع الحاكم بأمر الله ومئذنته، كان الخراب في كل مكان، تضررت منارة المدرسة المنصورية، وتشققت جدران جامع عمرو بن العاص، انتظري سأخبرك أيضًا، سقطت مئذنة مسجد آخر كان اسمه... نعم، جامع الفكهاني.

أومأت برأسها في دهشة ألهبت حماسته، فأردف وكأنه يصف مشهدًا حيًا أمام عينيه:

- كنتُ في القاهرة وقتها، فلم أرَ بعيني آثار الزلزال على الإسكندرية، لكن بينما كنتُ أبحث عن «مرجانة» وسط الخيم المنصوبة في العراء ليلة الجمعة، بلغتنا أنباء الدمار الذي وقع عليها، تدمرت حصون الإسكندرية وتهدمت المنارة وشُرفها، ثار البحر على ما فيه، ثم هجم على الشطآن يقتلع الناس والشجر والحجر.

- كيف عرفتَ كل ذلك؟

- لأنه لم يكن حُلمًا، كنتُ هناك يا «أنهار»، حقيقة لا مجازًا.

استوثقَت من كل كلمة قالها، دار رأسها، لم تقوَ على الوقوف، فأراحت جسدها فوق مقعد خشبي في الزاوية، كانت بحاجة إلى فسحة من الوقت لاستيعاب الصورة الكاملة. أغلق الملف، ووضع يديه في جيب بنطاله، يدور في الفراغ الضئيل بين الأرفف، يقول متفكرًا:

- في الحلم، دائمًا ما أحاول قتلها، كأنها شيء فائض على الحياة، أو الحصاة التي تخل بالميزان، كنتُ أظن في البداية أن الرابط الذي يجمعني بها هو الحب، الآن بعدما مررتُ بأحاسيس «كهرمان» و«نعمان» بِت واثقًا، ما أشعر به نحوها هو الرغبة في إنهاء حياتها.

- ما تقوله خطير جدًّا، لماذا ترغب في قتلها؟

جاورها فوق مقعد خشبي صغير، مردفًا:

- ليس قتلها بالمعنى الذي تفهمينه، أشعر... أشعر كما أنها ما كان يجب أن تكون حية من الأساس، كأن وجودها خطأ لا يُغتفر، وهذا الخطأ لسبب ما متعلق بحياتي، بوجودي، بمن أكون.

نهض مرة أخرى، لا يسعه السكون، يستطرد:

- بينما أرغب في التخلص منها، تنتهي الأحلام دومًا بموتي، طعنًا من الخلف، بالرمح أو بالخنجر.

توقف عن الحركة، وعن الحديث، رفعت رأسها تطرح عليه سؤالًا صامتًا، أجابه في الحال:

- هذا يعني أن «عيناه» ستحاول قتلي هنا أيضًا، وأن عليَّ منع ذلك، ثمة صوت بداخلي يقول إن هذه هي فرصتي الأخيرة كي أنجح في مهمتي، أو...

- أو ماذا؟

- أو أخسر إلى الأبد.

طال بها التفكير، نفضت رأسها ما إن عصي عليها التأويل، أخذت تتساءل في حيرة:

- تقول إن هذه ليست أحلامًا، بل ذكرى حقيقية لحيواتك السابقة، كيف تعيش في ثلاثة عصور مختلفة، بشخصيات لا رابط بينها، كيف انتقلتَ بالزمان والمكان وكأنك تستقل الأتوبيس إلى المحطة التالية؟

لم تترك له فسحة للإجابة، هزَّت رأسها بقوة تنفض عنه كل هذه الأفكار السخيفة، ثم رنَت إليه تقول بحزم:

- في جميع الأحوال، وقبل أي شيء، يجب أن أعيد هذه الفتاة إلى المصحة.

انخلع قلبه أو كاد، رأت فيه هشاشة لم تعهدها، واضطرابًا لم تألفه، احتشد الرجاء في مقلتيه، يستجديها:

- لا يا «أنهار»، أرجوكِ لا تعيديها، أقول لكِ إن حياتي متعلقة بها بشكل ما.

قالت بوهن كبير، لم تستشعره في نفسها يومًا:

- هل تعرف كم صحفي مستعد لأن يتقاتل كي يحوز هذا السبق، وأنتَ تقول لي ببساطة: لا يا «أنهار»؟

- حياة الناس ليست لُقيمات سائغة يقتات عليها الآخرون.

- ربما يكون هذا في العالم الذي يدور في رأسك، لكن في العالم الذي نعيش فيه إنها كذلك.

- أنتِ لستِ من أولئك الانتهازيين الذين يقتاتون على آلام الآخرين.

- أنت لا تعرفني.

- أعرفكِ.

الهشاشة التي شعرت بها في نفسها، التي تقذف بها إلى قاع بئر مظلمة لا نهاية لها. دفعتها لأن تستقوي بالعناد:

- هل تعرف كم خبرًا مدويًا تنازلتُ عنه منذ أن عرفتك؟ هل تعرف كم سأخسر بسببك؟

في الحقيقية لم تكن تعنيها خسارة ألف مقال، الخسارة الوحيدة التي كانت تخشاها أكثر من أي شيء آخر، هي خسارته، ولأنها لم تعتد بسط أحاسيسها بوضوح فوق طاولة الحياة، أبدَت عكس ما تُبطِن.

رجل بلا ماضي، لا يملك أن يمنح وعودًا إزاء المستقبل، رغم ذلك قال وكأنه يحوز اليقين في قبضته:

- عندما ينتهي كل شيء، لن تكوني خاسرة أبدًا، أعدك.

للمرة الأولى، يعجز عقلها عن اتخاذ قرار، لا تعرف حتى أي الطرق عليها أن تختار. تساءلت بوهن:

- ما معنى كل ذلك؟

اتكأ بظهره على الأرفف، يقول ببساطة من يتحدث عن أمر اعتيادي، جرى العمل به في الحياة اليومية:

- معناه أنني مسافر عبر الزمن يا «أنهار».

اتسعت عيناها ترنو إليه في ذهول، لم يكتفِ بهذا فأضاف:

- أنا قادم من الماضي، وعليكِ أن تساعديني على الرجوع إلى حيث أنتمي!

# (33)
# الخطة

في دفتر قديم مَنسي في أحد الأدراج، دوَّن «نزيه» كل ما قصَّته «عجَب هانم» على مسامعه، وإن لم يصدق من ادعاءاتها حرفًا واحدًا، تلك القطة الكسولة الشرهة للنوم، تدعي ما لا يُمكن استيعابه بقوانين الفيزياء، وما يُخِل بكل أبجديات المنطق.

تقلبت «عجب هانم» فوق فراشها النحاسي الصغير، تغط في نوم القيلولة العميق، يراقبها في أثناء نومتها الهانئة.

عبَّ الماء داخل جوفه مباشرة من الصنبور، ثم عاد ليبرك فوق البلاط، مستندًا برأسه إلى الجدار. لم يقرَب الكرسي الهزاز؛ عندما حاول غير مرة الجلوس عليه، قفزت «عجب هانم» تخمشه بأظفارها الطويلة الحادة، مفرزة روائحها حوله، لتحدد ملكيتها. أخذ يتصفح الدفتر، ويسترجع ما أخبرته به «عجب هانم» من أمور عصية على التصديق.

أخبرته بترفُّع شديد أنها لا تنتمي إلى هذا العصر الحديث، وأنها قد مرَّت بمحطات التاريخ، كمن يستقل قطارًا ذا اتجاهين، مرة تقفز إلى الأمام، وأخرى ترجع إلى الخلف!

حدَّثته مثلًا عن حياتها السابقة في بيت موظف يعمل في مبنى رئاسة النظار[1]، إذ كانت ترافق زوجته، وتُدمن على حديثها الذي لا يُمل منه، عن الأشعار والأدب والتاريخ.

ثم انتقلت معها إلى بيت زوجها، الذي شغل منصبًا مهمًّا في نظارة الأشغال العمومية. ولما ماتت إثر حادث أليم، رافقَت فتاة ثرية مرحة، وقعت في حب

---

(1) مجلس الوزراء.

شاب بسيط يعمل في تنظيف المباول[1] ويعيش في قرية «الكونيسة» القريبة من أهرامات الجيزة. كانت الفتاة تُحسن إليها وتُلقي لها من الفراندة بفائض أكلها، إذ كانت أمها تتحسس من القطط وتمنع دخولها إلى البيت.

وكانت تصحب الفتاة في أثناء مقابلة حبيبها سرًا في ليالي الجُمَع، يتندَّران عن حبهما غير المتكافئ، ويتحدثان عن الحياة والعدل، وحادثة جلد ثمانية من أبناء قريته لاعتدائهم على ضباط الاحتلال الإنجليزي. ثم قصت على «نزيه» في مسحة حزن، كيف انتهت حياة الفتاة بفاجعة، عندما فقدتها في زلزال القاهرة 17 يوليو 1887م.

صباحًا، في الساعة العاشرة إلا ثلاث دقائق، شعرت بالهزة القوية للزلزال، هكذا أخبرته «عجب هانم» بدقة متناهية، تتابعت هزات شديدة على القاهرة من الغرب إلى الشرق، تعكَّرت السماء، وهجمت الريح، وتغبَّر الأفق، كانت الحرارة قوية تهلب جسدها، وتخنق أنفاسها، وصفت له كيف طافت الأهرامات بجوار النيل، حيث فاضت المياه وغارَت على الأرض تأثرًا بالزلزلة.

التزم «نزيه» الصبر، لم يرمِها بالكذب. استمع إلى المزيد من ادعاءاتها الزائفة في صمتٍ ساخر، عندما أخبرته كذلك أنها كانت حاضرة في أثناء زلزال 1847م.

أتت الضربة المزلزلة جنوب غرب القاهرة، هذه المرة كانت «عجب هانم» تعيش في الخرابات، إلى جوار بيت من الطين لفلاحة أصيلة، كانت تُطعمها من صحن واحد، مع ما تربيه من دجاج وبط وديك رومي، وتعمل في أرض كانت عُهدَة لرجل من حاشية محمد علي باشا. والعُهدة هي قطعة أرض يعجز فلاحوها عن زراعتها، تُمنح لرجل ذي مُلك ومال، قادر على دفع الضرائب للدولة، يُسخِّر الفلاحين المعوزين للعمل فيها، نظير جزء من المحصول حين حصاده.

في صباح السابع من أغسطس، وفي تمام الساعة الثانية، اهتزت الأرض بقوة عنيفة، أضرَّت بمسجد «المؤيد» بالدرب الأحمر، وضعضعت أربعة عشر بيتًا من بيوت الأزبكية، وسبعة وعشرين في حي الخليفة بالسيدة زينب،

---

(1) الحمامات العمومية.

وآخرين في عابدين، وباب الشعرية، ودرب الجماميز، وبولاق، وأغلب مناطق مصر القديمة.

وأكثر البيوت التي تهدمت كانت في الفيوم، حيث بؤرة الزلزال.

تمادَت «عجب هانم» في هذيانها، وشطحت في خيالاتها، فأقرت أنها كانت حاضرة في أثناء زلزال مارس 1481م. بعد صلاة العصر، كانت تلهو مع طفلة ابنة العاشرة في إيوان[1] مدرسة الصالحية، حيث يعمل بها أبوها موظفًا، وعلى مقربة منهما ينام قاضي القضاة الحنفي «شرف الدين موسى بن عيد الدمشقي»، شعرت بالأرض تموج بمن عليها، ورأت الحجارة تسقط من أعلى المدرسة على القاضي فتقتله.

شطحت أكثر لتصف له تهدم جزء من مدرسة السلطان حسن في زلزال نوفمبر 1360م، بتفاصيل من عاصر الحادثة ورآها رؤى العين.

كانت قد استقلت فوق الفراش لتأخذ قيلولتها المعتادة، ولم ينقطع حديثها بعدُ، عن الريح العظيمة التي عصفت بالبلاد، والنار التي تخرج كل ليلة من بطون الجبال في زلزال أكتوبر 1203م.

دوَّن «نزيه» التواريخ التي ذكرتها، والتفاصيل التي قصَّتها، وإن لم يصدقها بالتأكيد. تملكته إثارة عجيبة، كاسم القطة التي لا تتوقف عن ذِكر الزلازل التي عاصرتها.

كانت قد فكَّت القيد -غير المحكم- عن رسغيه، وتركته يعود إلى غرفته، على وعد أنه سيزورها من حين إلى آخر، إذ إن الوحدة تُشعرها بالرغبة في إيذاء الآخرين، فتدخل غرف النزلاء عبر النافذة، تتبول في أُصص الزرع، وتخمش أغراضهم في أثناء غيابهم عن البنسيون. لم تأسره رغمًا عنه، بل طواعية، لذا كرر زيارتها كما وعدها، وفي كل مرة كانت تقص عليه أحداث زلزال جديد، وتفاصيل حياة مختلفة عاصرتها في أزمنة متباينة، إلى أن أوقعها حظها العاثر في هذا التاريخ، تعيش في البنسيون مع سيدة لا تحبها أبدًا.

***

(1) مساحة متسعة مسوَّرة بالجدران.

استحسَن الخروج من النافذة المشبعة بالرطوبة وأنياب الزمن، كي لا ترصده عين صاحبة البنسيون أو أحد نزلائه. قفز إلى الفراندة الدائرية التي تطوق واجهة البناء، توقف عند كل نافذة مفتوحة متلصصًا عما يدور خلفها، لم يكن أي من النزلاء في غرفته. دخل غرفته عبر نافذتها المشرعة، تمدد فوق الفراش. راح يسترجع دهشته، عندما كان خارجًا من غرفة «عجب هانم» ذات مرة، فصادَف «عيناء» و«زعفران» يتهامسان في الممر، لحظتها أدرك أن «أنهار» تعرف أكثر مما يعرف، وأنها باتت قاب قوسين أو أدنى من اقتناص سبقه المثير، وهذا ما لن يسمح به أبدًا.

لم يكن في وسعه الذهاب إلى رئيسه ليقول: انظر سيدي، لقد التقيت قطة مُتكلمة، هل ترغب في كتابة مقال عنها بالصفحة الأولى؟

ما كان لأحد أن يُصدقه، والتقاط صورة لها بالدبابة السوفيتية[1] ليس إثباتًا كافيًا، عليه أن يصورها بكاميرا فيديو. المشكلة الوحيدة أنه لا يستطيع أن يصورها ويحادثها في الوقت نفسه، إن وضعَ الكاميرا في مكان ما داخل الغرفة، ستتمكن القطة بسهولة من رصدها، وربما ترفض الحديث معه ثانية.

عليه أن يُعد خطة تُمكنه من تصويرها على شريط فيديو في غفلة منها، يكون دَاعمًا قويًا لقصته.

---

(1) كاميرته الخاصة.

# (34)
# نجم البحر

انبجسَت الدماء من يديها المبتورتين عند الرسغ، تصبغ الملاءة البيضاء ببقع قبيحة، شُبِّهَت لها ببقع الرطوبة التي كانت تنطبع فوق جدران عنبر (أ) بالمصحة.

كادت أن تفقد وعيها لهول الصدمة، عضداها يبرزان أمام وجهها من غير كفين، تمامًا كما فعلت بالرجال الذين طهَّرتهم من الخطايا والآثام، لكنها ليست مثلهم، هي إنسانة صالحة، لمَ العقاب إذن؟

- لم أوليكِ ظهري قط، المرة الوحيدة التي فعلتُ، سددتِ طعنة الموت الغاشمة، وسلبتِني زوجتي وحبيبتي الوحيدة.

ما زال يُلقي بإثم فعلته فوق كاهلها الهزيل، نعم تلصصت عليه، وأفشت ما يحيكه مع النساء في الفاخورة عامدة، وبيعه للفخار النيء لأرباب السحر، وشت بكل خلجة من خلجاته تفضح شره الكامن في أعماقه المظلمة، ما ذنبها إذا كان أبوها فاسقًا؟

لم يعترف أنه كان مخطئًا، أنه زلَّ، والزلل يستوجب التواضع، والتوبة النصوحة، لتتبعها المغفرة. نزع عن نفسه كل الملامة، وصنع منها رداءً يتسع لجسد واحد، ولم يجد سوى جسد ابنته الواشية ليلقيه فوقها.

إثمه الأكبر لم يكن في زلّته، إثمه الأكبر كان الكِبر، وهي خطيئة إبليس نفسه، حين عصى ربه، وتكبّر.

لم يستحق الفخراني الكبير مغفرة زهرته؛ لم يعتذر، لم يبكِ، لم يُقر. انتظرت طويلًا أن يرتدع، أن يتوقف، أن يشعر بالندم. حاولت أن تفهم السبب الذي يدفعه لملامسة غيرها من النساء وهي زوجته وحبيبته.

- أبوكِ مريض.

هذا ما كانت تخبر به «عيناء»، لتمنحها إجابة منطقية عن سؤال مُلِح: لماذا يفعل؟

قدّرَت المرأة أن زوجها يعاني اضطرابًا يحتاج إلى العلاج، لكن كيف تُعالج شخصًا يرفض الاعتراف بالداء؟

كانت امرأة جاهلة بالحياة، انتقلت من بيت أبيها مباشرة إلى بيت زوجها، بخبرة صفرية في التعامل مع المشكلات، لاذت بالصمت، مثلما كانت ترى أمها تفعل، ولاذ هو بالضرب في محاولة لاستنطاق هذا الصمت المميت.

تركت الأمور تمشي كما تُسيِّر الريح السفن، وكما أراد لها الربّان، لم يكن ربان بيتها يومئذ سوى الزمن، ولا خطأ أبشع من أن تُترك الدفة بين أيادي الزمن، الزمن حاوٍ لئيم، يُخرج من جعبته عقارب وثعابين، لدغتها مميتة، وبخّتها مُهلِكة.

كان يحبها، وكانت تحبه، والحب وحده ليس كافيًا لحفظ الزواج وتعمير الأبنية؛ الحب بلا حكمة، كالخيمة بلا وتد، تدوسها الدواب، وتسرقها الريح.

- أنا... كنتُ أساعدك يا أبي، كنتُ أبعد عنك يديك الشريرتين.

- نصبتُ لكِ فخًا، كنت أثق أنكِ ستعودين، كنجم البحر، ما إن يفقد إحدى أذرعه حتى تنبت له واحدة جديدة.

- كنتُ أنقذك، صدقني.

- أنتِ معتوهة، ملعونة، عرفتُ ذلك من اللحظة الأولى لذا رفضتُ حملك بين ذراعيَّ، مكانك الحقيقي بين جدران المصحة التي سأعيدك إليها بيدي التي أردتِ بترها، لن ترى عيناكِ الطرقات ثانية.

جذبها جذبة قوية أفقدت جسدها توازنه، كانت قد ألفت مرأى الدماء حولها، وتشرُّب ملابسها وفستانها، هذه المرة لم تقوَ على النظر؛ ما أُريق هذه المرة كان دماءها هي. دفعت صدره بعنفٍ بموضع البتر، صرخت مُنتحبة بلوعة، وجسدها ينتفض:

- لماذا تكرهني؟ كيف يكره الأب ابنته؟

انتفخت عروق جبهته، تجعّدت قسماته، جزّ فوق أسنانه، تناثر من عينيه الشرر. قال:

- لستِ ابنتي، أسمعتِ؟ لستِ ابنتي.

لم تكن عبارة عابرة يُلقيها أب غاضب على مسامع ابنته، كان لوقعها على قلبها قدر اقتلاع شجرة من تُربتها، العنف نفسه، والأثر نفسه. أفنَت عمرها تفتّش عن جذور تقتات بها، في تربة جافة قاحلة، الآن لم يعد ثمة تربة ولا جذور، أصبحت في مهب الريح مثل ورقة خريفية لا قيمة لها ولا حاجة.

دفعت صدره ثانية، بأشد مما فعلت في الأولى، صرخت بهستيرية تنهَره:

- لا تقل ذلك، ابنتك، أنا ابنتك.

بقسوة بالغة، أفشى السر الذي طواه بداخله طيلة السنوات الماضية:

- لستِ كذلك، ابنتي الرضيعة قُذفت إلى الحياة جثة هامدة، لم تفتح عينيها الصغيرتين قط، لم تنتفخ رئتاها الصغيرتان بالهواء قط، لم تقبض بأناملها الصغيرة على إصبعي قط، ميتة لا روح فيها، ظلت كذلك حتى حانت ساعة دفنها، نيّمتها بيديَّ هاتين في قبرها بقلب يتمزق ألمًا وحسرة، وكانت زهرتي في حالة أسوأ، إذ اضطر الأطباء إلى استئصال رحمها أثناء الولادة، وبموت طفلتنا فقدتْ حلم الأمومة إلى الأبد.

أطلق زفيرًا حارًا ثم قال وكأنه يبصق الذكرى من قلبه المتخم بالألم:

- عجزت أقدامنا على حمل جسدينا المثقلين بالهم، كنا شبحين هزيلين يدفنان قلبيهما طواعية عند قبر طفلتهما الوحيدة، وعندما كنت متأهبًا لأن أهيل فوقها التراب، سمعنا صوت الصرخة، نظرنا فإذ بنا نرى ما أسمته هي معجزة ربانية، وأسميته أنا لعنة شيطانية.

امتلأت عيناه نفورًا وهو يشير صوبها يقول:

- كنتِ أنتِ وسط التراب، تحدقين إلى وجهينا بعينين واسعتين لم أرَ فيهما ملمحًا من ملامح الطفولة البريئة، أصرت «زهرة» أنكِ طفلتها العائدة من الموت، وأصررتُ أنا أنكِ لقيطة مندسة لا تمتين لابنتي بصلة، كانت شديدة العطش للمعجزات وفقدت صوابها حين رأت

واحدة، بينما هللت «زهرة» وكبّرت أمام تلك المعجزة، كنت أنا سابحًا في قيعان الفزع.

توقف للحظات قصار يلتقط فيها أنفاسه ثم يتابع بالشدة نفسها:

- نفرتُ حين مسّت أناملكِ الصغيرة راحة يدي، وكأن حيّة رقطاء تزحف على ربلة ساقي، امتعضتُ حين لوثتِ هواء الغرفة بزفير رئتيكِ، كأن غازًا سامًا تسرّب في الأرجاء، وحين تطلعتُ إلى عينيك المفتوحتين على اتساعهما، شعرتُ وكأنني أنظر إلى نافذتين مفتوحتين على الجحيم.

ألجمتها قسوته وشدته، جرحتها شفرات كلماته، فلم تقوَ على الحديث، فيما أردف:

- عرفتُ من اللحظة الأولى أنك طفلة غير عادية، تختلفين عن روح ابنتي التي فارقت الحياة بين ذراعيَّ، حتى وإن احتللتِ جسدها بطريقة الله وحده يعلمها، فإنكِ لستِ هي، شعرتُ أن بداخلك شخصًا ناضجًا، لا طفلة وديعة، هشة، كنتِ تقتحمين رأسي بنظراتك، وكأنكِ تقرئين وتفهمين وتعرفين، كنتِ شريرة خبيثة، شيطانة صغيرة، تتغذين على النزاعات بيني و«زهرتي»، توقعين بيننا، كأنكِ معجونة من الشر، لم أشعر قط بطفولتكِ، لم أشعر قط ببنوّتك.

كانت لترد كل كلمة قالها، وتدفع كل تهمة ساقها، وتمزق كل سهم رماها به، كانت لتبكي وتصرخ وتتمرغ أمامه تستعطفه، ألا يقطع مسامعها بتلك الشفرات الجارحة، لولا أنها أدركت تمام الإدراك، وصدقت تمام التصديق، أنه محق فيما يقول.

منذ اللحظة الأولى لميلادها شعرت أنها واعية، مُميِّزة ككل الناضجين من حولها. بينما جسدها صغير، يُحمَل فوق كفٍّ واحدة، كان عقلها قد انتقل مباشرة من المرحلة الجنينية إلى البلوغ، دون أن يمر على الطفولة أو المراهقة.

- انظري إلى يديكِ، انظري أي شيطان أنتِ.

نقلت نظراتها من وجهه المشمئز إلى كفّيها، لترى معجزة تتجسد أمام ناظريها، أو لعنة كما يروق لأبيها أن يطلق عليها، نما باطن الكف رويدًا

رويدًا، ثم استطالت الأصابع واحدة تلو الأخرى، تكلّست العُقل واحدة تلو أخرى، ثم اكتست بالعروق واللحم والجلد، في يُمناها أولًا، ثم نمَت يُسراها بالبطء ذاته، والكيفية نفسها.

صدق أبوها، هي ملعونة إذًا.

حمل وجهها الدهشة كلها، فيما بقي وجهه جامدًا، خاليًا من آثارها، فاستدلّت بذلك أنه عايَنَ هذا المشهد من قبل، ربما مرات ومرات، قطعت إصبعًا بآلة حادة، أو سلخَت لحمها بسكين، عامدة أو غير عامدة، ثم رأى كل شيء يعود سيرته الأولى، كأن شيئًا لم يكن.

قال بنبرات خالية من أي شعور، خاوية حتى من الغضب:

- أحببتكِ زهرتي رغم كل شيء، لم تصدق أنكِ لستِ طفلتها التي وُلِدت ميتة، كذّبتْ يقيني معاندة، ألقَت خلف ظهرها الدلائل والبراهين، لم أستطع أن أقتلعك من بيننا، كنبتة سامة شربتِ وكبرتِ واستطلتِ، أفسدتِ كل شيء في بيتنا، أفسدتِ حياتي بأسرها.

تبدَّى البغض من عينيه جليًا لا يحتاج إلى تعريف:

- هل أجبتكِ الآن عن سؤال: لماذا أكرهك؟

شعرت أنها بيت مرَّ به زلزال دمَّره، أتى عاليه سافله، خرَّب أثاثه، وغرفه، وجدرانه، وأسقط السقف فوق رؤوس أحلامها.

فيما أبوها يقذف كلماته الأخيرة في وجهها:

- لا أنسى أبدًا اللحظة التي حللتِ فيها داخل جسد ابنتي الميتة، تفتحين عينيكِ على اتساعهما، لحظتها تزلزلت الأرض تحت أقدامنا، وكأنها تُنذرني باللعنة التي حلَّت على حياتي.

- تزلزلَت؟

رددتها ذاهلة، فأضاف واجمًا:

- ولِدت روحك الشريرة مع الدفقات الأولى لزلزال شدوان!

فهمت حينئذ السبب، الذي جعلها طوال حياتها تشعر بالأرض ترتجف تحت قدميها؛ لقد ولدَت من بطن الزلزلة.



# (35)

# زلزال شدوان

- زلزال شدوان 1969م، كان مركزه شرم الشيخ وتأثرت به القاهرة!

صاحت «أنهار» وهي تُقبل على «زعفران»، تحمل في يدها ملفًا بغلاف من الكرتون، استخرجتِ منه أقصوصة لمقال نُشر في الجرنال قبل ثلاثة وعشرين عامًا.

كانا لا يزالان داخل غرفة الأرشيف، يسبحان بين الأوراق والأقاصيص، بحثًا عن كل خبر له علاقة بزلزال قريب أو بعيد، قديم أو حديث.

عندما أوشكت على منحه المزيد من التفاصيل، قاطعها دخول رئيسها كعاصفة، يُسمَع صوت زمجرتها بغير عناء، لم يلتفت صوب «زعفران» القريب منه، بدا وكأنه لم يره من الأساس.

تناثر الغضب من شدقيه، جبنًا إلى جنب كلماته النارية. يقول وهو يُلوح بعدد اليوم في وجهها:

- كيف تكتبين شيئًا كهذا؟

لم تكن بحاجة إلى النظر صوب المقال المرصود، تعرف جيدًا ما أثار حفيظة رئيسها وأفقده صوابه. قالت بهدوء غير عامدة استفزازه:

- كتبتُ ما أومن به.

المقال الذي أثار حفيظته، كان مكتوبًا في العدد الصباحي لهذا اليوم، تتحدث فيه عن «جزار الأيدي»، الذي روَّعت أخباره سكان القاهرة خلال الأيام الماضية، وبخاصة بعدما اتضح من شهادات الضحايا أن الفاعل امرأة. وبينما يكتب الجميع عن بشاعة الجُرم، واستحقاق المجرمة الأثيمة للشنق في ميدان عام، جراء الجرائم المروعة التي ارتكبتها في حق الأبرياء، كتبت هي

عن المجتمع الذي يحول أفراده إلى مختلين عقليًا، استفاضت في الكتابة عن العدالة الغائبة، التي إن حضرت تمثّلت في امرأة تحمل ميزان العدل معصوبة العينين، العدالة عمياء، لذا يشق البعض وحدهم الطريق صوب النور والشمس والحقيقة.

تطرقت إلى الأفكار المدمرة التي تُزرع في عقول الصغار، عن طريق مواد مسموعة ومرئية، أفكار شاذة غير مفلترة، تُعادي الفطرة السوية. ثم أنهت المقال بالحديث عن غياب القدوة، تفشي الجهل، فقدان الناصح الأمين، والانشغال بالتوافه بدلًا من القضايا المهمة.

ألقى الجرنال في وجهها، وصاح هادرًا:

- عندما تفتحين جرنالك الخاص اكتبي ما تشائين لا شأن لي، أما وأنتِ تعملين تحت إمرتي ستلتزمين بأوامري، وإلا ستجدين نفسك مفصولة من العمل، نفد صبري يا «أنهار»، تذكري هذا جيدًا.

تفشّت عدوى الغضب سريعًا في الغرفة، فأصيبت «أنهار» بشيء منها، ما فائدة سلاح الكلمة إن لم تستطع توجيهه يدويًا إلى حيث تؤمن؟ يريدونها أن تستسلم لسُلطانهم، وتقبل بتوجيهه آليًا إلى حيث تصب مصالحهم، لا ورب الكلمة لن تفعل. أما الحصة الأكبر من الغضب فكانت من نصيب «زعفران»، الذي خرج إلى بقعة الضوء، بوجه تتجلى فيه أمارات السخط، يزمع تمزيق الرجل الذي يصرخ فيها وكأنه امتلكها. رأت «أنهار» ما كان «زعفران» عازمًا عليه، فأوقفته بإشارة من يدها، وقالت لرئيسها باقتضاب:

- لن يتكرر الخطأ ثانية.

دار على عقبيه مغادرًا كعاصفة، بالزمجرة نفسها التي أهلّ بها.

- لماذا تسمحين له أن يعاملكِ بهذا الشكل؟

- لأنه رب عملي.

- فليحترق العمل.

لم يسعها إلا الابتسام، الحياة بالنسبة إليه بسيطة جدًا، تسير في خطوط مستقيمة بلا اعوجاج، بلا مخاوف عظيمة، ربما لأنه رجل بلا ماضٍ، الماضي

يشتبك مع الحاضر، وكلاهما يدًا بيد يبذران المستقبل، فإن كانت البذرة فاسدة، نبتت الثمرة من النوع ذاته.

- دعك من هذا الآن، اقرأ هذا المقال الذي وجدته عن زلزال شدوان، له علاقة وثيقة بـ «عيناء».

تلقف «زعفران» المقال بلهفة، طافت نظراته المتأملة فوق السطور تلتهمها، أخرج من جيبه شهادتَي الميلاد والوفاة، يُدني الورقات الثلاث من بعضها. يُفسر:

- وقع الزلزال في اليوم نفسه الذي ولدت فيه «عيناء»، 31 مارس 1969.

ثم أضاف بحماس جارف:

- هذا يثبت أن كل شيء له علاقة بالزلازل تمامًا كما أخبرتكِ، هل تصدقينني الآن؟

كانت لتقول أي شيء، وتبذل كل شيء، كي تثبت أن ما يدّعيه محض أوهام، فقط لتستبقيه في عالمها، وحياتها. بينما هي لا تود التفكير في فراق يحول بينهما، كيف تتقبل أنه من الأساس لا ينتهي لهذا الزمن، وأن السد الذي يكبر بينهما يومًا بعد يوم، لا قوة بشرية تكفي لهدمه؟

- أنا لا أنتمي إلى هذا العالم.

كأنما يقرأ أفكارها، قال ما كانت تفر من الإقرار به، والتعايش معه. كانت دومًا من أولئك الذين يميلون إلى المنطق، ويحتاجون إلى الإثباتات القوية، بأدلة لا تقبل الطعن، ولم يمنحها حتى الآن إثباتًا وحدًا، فقط ظنون، وبعض الأحلام، وحديث عن الزلازل لربما قرأه في أي مكان.

- هل فكرت أنكَ لربما كنتَ تعمل في المعهد القومي للبحوث الفلكية؟ أو أن والدك أو جدك كان يشغل موقعًا مهمًا في مرصد حلوان؟ من هنا نستطيع إيجاد تفسير منطقي يُبرر علمك بتفاصيل زلزالَي العصر النحاسي والمملوكي، دون أن نضطر إلى اللجوء لمثل هذه التفاسير الفانتازية عن الترحال في الزمن والقفز من الماضي.

تفكَّر في كلماتها، وإن كان يثق بصحة ما خلص إليه من معتقدات، إلا أنه منح نفسه فسحة لتقليب رأيها في رأسه، فطن إلى أنها تحتاج إلى أمارة قوية لا خلاف عليها.

توجه من فوره إلى أحد الأركان، افترش جرنالًا قديمًا، وأراح جسده، متخذًا من كفيه وسادة. اقتربت منه تسأل في دهشة:

- ماذا تفعل؟

أجابها مغمض العينين مسترخيًا:

- أطفئي النور، ولا تصدري أي صوت، أحاول أن أنام.
- هل هذا هو الوقت أو المكان المناسبان في رأيك؟
- أثبت لكِ صحة ما أقول، سألج الآن زمنًا آخر وعصرًا جديدًا، سأقص عليكِ ما يُمكن أن تجديه لاحقًا في مقالات الجرائد أو بحور الكتب، ثم لنتساءل بعدها، كيف عرفتُ هذا وذاك.
- وهل تظن أن عندك زرًا خفيًا تضغط عليه لاستجلاب النوم لساعات؟
- لا أحتاج سوى إلى أن تغفل عيناي لدقائق، وربما لثوانٍ، الزمن نسبي، تذكَّري.

بغير اقتناع كبير أطفأت الأنوار، ثم جلست في ركن غير بعيد، تراقب أنفاسه المنتظمة، وحركاته الشحيحة، كم ستفتقده في عالمها. بنزعة أنانية تمنَّت ألا يستعيد ذاكرته أبدًا، وألا يتمكن من إثبات نظريته. ألقت برأسها إلى الوراء تسنده إلى الأرفف، لا تبعد ناظريها عن وجهه، تحفظ كل ملمح في أعمق نقطة من ذاكرتها، إلى أن غلب على ظنها أنه انزلق بالفعل إلى مملكة الأحلام.

# (36)

# أول جريمة في التاريخ

كان الفخراني الكبير يجذب «عيناء» من ذراعها بقوة، يسوقها خارج الفاخورة، كي يعيدها إلى المكان الذي إليه تنتمي، السجن أو المصحة، عندما هوَت أرضًا تغط في نومٍ عميق، بعدما استُدعيَت قسرًا إلى ساحات الحُلم.

ظنها تحتال متلاعبة به، ركلها فلم تتحرك، قرصها فلم تتأوَّه، خرَّت عند قدميه عروس ماريونيت انقطعت خيوطها بغتة. فزع من المشهد، ظنها سقطت ميتة، لم يكن لديه خبرة كافية ليفحص نبضها، دنا منها بكثير من التوجس والحذر، يقرب أذنه من أنفها ويصيخ السمع.

حمد ربه أنها لا تزال تتنفس، اتقاءً للمُساءلة. لعل جهازها العصبي انهار بغتة ففقدت وعيها، هكذا فكَّر. واجهته معضلة، إن حملها وجال بها في الشوارع بفستانها الملطخ بالدماء، سيثير في نفوس الجميع الريبة. الأسلَم له أن يُسرع الخطى صوب المصحة، كي يحضر من يعاونه على حملها، بشكل طبيعي لا يثير الشبهات في نفوس جيرانه وزبائنه. هكذا قرَّر.

غادر الفاخورة على عجالة، بينما «عيناء» النائمة تضع خطواتها الأولى فوق أرض بِكر، بعد قليل ستتزلزل بهزَّتها الأولى في تاريخ البشرية.

لم تُدرك لوهلة في أي زمانٍ هي، كانت الأرض تعانق الأفق على مرمى البصر، السماء صافية، الألوان زاهية، والهواء نقي مُفعَم بالحيوية، كأنها في مكانٍ لم يتلوث بعدُ بيدِ البشرية.

حين تحشرج صوتها وأرادت إجلاءه، خرج عجيبًا، أثار الفزع في نفسها، وحين تفحصت جسدها المغطى بريش أسود، وجناحيها العريضين، ورأت

انعكاس منقارها في بحيرة صافية، أدركت أنها هذه المرة ليست كائنًا بشريًا، وإنما أنثى غراب أسود ينعق بشكل مستمر.

تلبّست شعور الغراب، وأدركت أنها تنادي ذكرها، الذي غادر منذ وقت طويل للبحث عن طعام تقتات عليه؛ سلاحف صغيرة أو حيوان نافق أو جيفة مُتبقية من وليمة للغربان، ولم يعد حتى الساعة.

تركت بيضها في العش، ثم جالت في أرجاء السماء بحثًا عنه، تنعق بنبرات حادة متقطعة، علّه يسمعها ويجيب نداءها. ينبّئها حدسها أن مكروهًا قد أصابه، ليس لأنه تأخر في العودة، بل لأنه حين تركها كان قلبها يتقافز في وجَل. انتابها الخوف إزاء شيء قادم، لا تدري كنهه على وجه الدقة، منذ أن زاحمَ أول بشَري مخلوقات الأرض، شعرت أنه أتى جالبًا معه القسوة والغلظة والدمار لعالمهم الجميل.

تناهى إلى أسماعها -بينما تحلّق فوق غابة كثيفة الشجر- ما بدا لها كصوت حيوان جارح يتعارك مع آخر مفترس، فتقافز قلبها فزعًا، حلّقت على مسافة أقرب، تبدّى لها بشريان حديثا العهد بالحياة الدنيا. كانت الأرض مسكنًا للحيوانات والشجر والحجر، حتى هبط إليها أبو البشر، الذي سوّاه الله بيديه من طين لازب[1]، ونفخ فيه من روحه. حطّت فوق صخرة قريبة، توقفت عن الرفرفة بجناحيها، وأصاخت السمع. رأت البشريان يتشاركان حديثًا محتدمًا، كان أحدهما يحاول تطهير قلب الآخر من الحسد، يستجديه بروابط الأخوة، وبحُرمة سفك الدماء التي تغدو وتروح في عروقهما، أما الآخر فكان ظلومًا، أهوج، انساق خلف هوى النفس، وما تزعمه المخيلة من تفوق وأحقية، ثم تناهى إلى مسامعها صوت طقطقة قوية.

وجّهت جانب رأسها الأيمن صوبهما، ودققت النظر، كان أحدهما يقف فوق رأس الآخر، وقد شجّه بحجر! سلب روحه، وألقاه في العراء جثة هامدة، مأدبة سائغة للهوام والحيوانات الضارية، دون أن تأخذه به شفقة أو رحمة.

تزلزلت الأرض بهزة عنيفة، هي الأولى في تاريخ البشرية، حتى ظنّت أن الصخرة أسفل مخلبيها قد تتفتت.

---

(1) يلتزق بعضه ببعض.

أدركتْ أن هذا المخلوق البشري ليس شرًا محضًا كالشياطين، ولا خيرًا محضًا كالملائكة، إنما خُلق بمزية الاختيار، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

جلس القاتل جوار القتيل خائر القوى، وهن العزيمة، حائر الوجدان، لا يدري ماذا يصنع بجثة أخيه، وكيف يواري سوءته الثرى؟

بدا هشًّا جاهلًا، لو كان ذكرها حاضرًا، لعلمه كيف يحفر بمنقاره، ويهيل التراب فوق البدن المستكين، فالدفن حيلة قديمة تعرفها كل الغربان، بيدَ أنه لا يزال غائبًا. ودّت لو شاركها لحظة ميلاد أول جريمة قتل بشرية في التاريخ، كان ليُعلق بشكل ساخر، إن الرحم الذي حمل القاتل هو نفسه الذي حمل المقتول، وكيف يُمكن للخير والشر أن يخرجا من جسد واحد، كان ليخبرها أن هذا القاتل مهّد الطريق أمام كل القتلة الذين سيردون على الحياة الدنيا، وأن إثمهم يقع على كواهلهم، وكاهل معلمهم الأول.

وكانت لتحدثه عن خطيئة الحسد، ووضاعتها، وأنها آفة خطيرة منشؤها قلب الإنسان، الذي وإن كان راجحًا بالعقل، فإنه مرجوح بالمشاعر المظلمة، عدوى تخشى أن تنتشر في الأجواء، فينقلها الماء والهواء والتراب، لتلوث أبدانهم. تخشى أن تتطور الخطيئة، فيبتكر البشر فيما بعد موبقات مُستحدَثة، أكثر إجرامًا وتفشيًا.

كان القاتل لا يزال حائرًا، حين رنّت صوب غراب يطوف السماء، ثم يستقر على مقربة منهما، يحمل غرابًا آخر ميتًا، يهيل فوقه التراب ليدفنه. أدركت من اللحظة الأولى أن ذاك الميت هو ذكرها، الذي تقتفي أثره منذ البكور. ثارت ثائرتها، نعقت بقوة، ودّت لو تطير إلى الغراب القاتل فتقوده بمخالبها القوية إلى المصير نفسه الذي ساق إليه وليفها.

يحذو البشري القاتل حذو الطير القاتل، معلمه الأول في طقوس الموت، فيهيل التراب فوق الجسد المسجى، بعد أن تحركت مشاعره الإنسانية قليلًا، وراح يتذوق مرارة الندم والحسرة؛ كم هو جاهل صغير، عجز أن يكون في خبرة الغراب وحكمته.

كانت تفكر في خطة للانتقام من الغراب القاتل، حين لمحها بطرف عينه، وانطلق من خلفها يشق عباب السماء بجناحين متينين، عازمًا على قتلها.

هربت منه إلى الجبال، تطوف من سفح لقمة، ومن قمة لسفح، تاهت عن أنظاره داخل الغابات الكثيفة، فقد أثرها لدقائق معدودات، ثم نجح في أسرها.

حمل بمنقاره الأغصان الصغيرة، والورق العريض من أعالي الشجر، ثم أمرها أن تصنع عشًّا يسع جسدين. سخَّرها لصُنع العش لأيام متتالية، كان يراقبها خلالها إلى أن فُتن بجمالها، وسقط أسير إغوائها، ودَّ أن يكون وليفًا بديلًا عن ذاك الذي أجهَز عليه، ويعيش معها في سلام طويل، متخليًا عن فكرة قتلها؛ طاردها عازمًا على نيلها. فكَّرت في بيضها الصغير، الذي تركته بغير حماية، ماذا لو عرف مكانه وكسره، انتقامًا منها لرفض ندائه المُلح للتزاوج؟

توقفت عن التحليق، وأظهرت ميلًا زائفًا غير مُستراب، نحو الغراب القوي الذي تمكن من الإجهاز على ذكرها، في معركة غير متكافئة القوى. دنا منها يطلب الود، ويشرع في المداعبة، أخذت بمجامع قلبه رغبة قوية في الاستحواذ عليها. لم تبدِ تفورًا أو امتعاضًا، طافت حوله في استكانة ظاهرة، منحها ظهره غير مدرك للحقد الذي يشتعل في قلبها، لم تنتظر أن تُعقد محكمة الغربان، فتشكوه وتهجوه، لتوقع عليه العقوبة التي يستحقها.

بمنقارها القوي، نزلت فوق ظهره تدقه بقوة غشيمة، تنتش الريش، تُفتت اللحم، وتُفجر الدماء من عروقه، توسعه تمزيقًا بمنقارها، حتى سقط أمامها جثة لا حول لها ولا قوة.

# (37)
# نقطة ومن أول السطر

استفاق «زعفران» فزعًا يتحسس ظهره، يقاوم ألمًا مميتًا يزحف بطول عموده الفقري، في المواضع نفسها التي طعنته فيها أنثى الغراب بمنقارها.

هبّت «أنهار» تتفحصه، حسبت أن شيئًا أصاب ظهره بينما كان نائمًا. تبدد الألم رويدًا، أشار لها بيده يستوقفها، ويطمئنها:

- إنه الحلم.

تساءلت في لهفة لم تسعَ لإخفائها:

- ماذا حدث؟

استكان الألم، هدأت أنفاسه، أقام ظهره، تطلع إليها يجيب:

- القاتل نفسه، والطريقة ذاتها، لا رمح ولا خنجر، هذه المرة قتلتني بمنقارها.

- منقارها!

- كنا غرابين يعيشان في فجر التاريخ.

بسط يده أمامها، فوضعت كفها فوق فمها تكتم شهقة دهشة. بين قبضته ريشة سوداء صغيرة، قبض عليها بجناحه، حين كانت أنثى الغراب تنتفه عن جسده.

راح يتفكّر في الأحلام الثلاثة، يفتش عن الروابط التي تجمع بينها؛ أولًا الزلزال، يبدأ كل حلم بهزة أرضية مفاجئة حقيقية ومثبَتة في دفاتر التاريخ، ثم ينتهي الحلم عندما يموت طعنًا وغدرًا.

وما بين البداية والنهاية، ثمة أمور أخرى مشتركة، بات قادرًا على رؤيتها الآن، في كل مرة كانت تستحر بداخله رغبة قوية في قتل الفتاة، يشعر أن حياته وبشكل غريب مُعلقة في خيط رفيع معقود حول أصابعها، يؤمن في قرارة نفسه أن قتلها هو الغاية الأخيرة، والملجأ الوحيد.

لو تزوره ذاكرته المفقودة، لتبيَّن السبب الذي يجعل الفتاة مهمة، إلى الدرجة التي تدفعه لتتبعها في الأماكن كافة، وكل الأزمنة. الموت هو البوابة التي تُخرجه من الزمن، والزلزال هو البوابة التي تُدخله في آخر، وهذا يخلص به إلى نتيجة واحدة.

- «أنهار»، هذه الحكاية ستنتهي بطريقتين لا ثالثة لهما.
- إما بموتك على يد الفتاة، وإما بزلزال جديد يُخرجك سالمًا إلى زمنك الحقيقي.

اتسعت ابتسامته حتى بدَت نواجذه، في كل مرة كانت تُثبت له أنهما يتلاقيان عند النقطة نفسها.

- صحيح ما تقولين، المشكلة الآن كيف أقنع الفتاة أن ثمة رابطًا غامضًا يجمعنا؟
- بل المشكلة الآن كيف تكون زائرًا من الماضي، وأنت تعيش كل زمن بسلاسة وكأنك عايشته سابقًا؟
- ماذا تقصدين؟
- إذا كنتَ قادمًا من الماضي، إذن فبديهي أن تكون جاهلًا بكل الأزمنة التي ستأتي بعد زمنك، لكنك في كل زمن تتعايش بشكل طبيعي، وكأنك تعرف كل شيء عنه سابقًا، حتى هنا بينما أنت فاقد لذاكرتك، لا تبدو كشخص يجهل بالتكنولوجيا وتطورات عصرنا، وكلانا يعرف جيدًا أنه لا يمكن التنبؤ بالمستقبل، وأنه شيء مخبأ في رحم الغيب.
- وهذا يعني أنني لست قادمًا من الماضي، بل من المستقبل!

التزمت الصمت، إذ إن كل ما قيل كان أكبر من قدرة خلايا عقلها على المعالجة.

***

اقترحت حلًا للتلاقي بمنأى عن أعين زملائها ورئيسها في الجرنال، التي تستريب بوضوح فج من وجود «زعفران» إلى جوارها باستمرار. تكاثر التهامس حولهما أقلق راحتها، لا خوفًا على نفسها، بل عليه من الفضول وانكشاف سره.

وكان الحل يتمثل في استئجارها لغرفة تجاور غرفته بالبنسيون، فيتمكنان من الاجتماع في مكان واحد، دون إثارة لريبة أو استهجان.

غرفة واحدة كانت لا تزال شاغرة، ألا وهي الغرفة رقم (4). أنقدَت «أنهار» صاحبة البنسيون ثمن ليلة واحدة، تعثَّرت في الحصيرة، في الوقت نفسه الذي دقَّت فيه الساعة من الراديو. تحمست السيدة مُبشِّرة:

- خيرٌ ما قادم إليكِ.

منحتها ابتسامة قصيرة مجاملة، وضعت حقيبة ملابسها في الغرفة، ثم غادرت البنسيون على عجالة، عازمة على مواجهة تأجلت طويلًا، وما عادت ترغب في التسويف.

طوَت الطريق إلى «بورسعيد» في وقت قياسي، أو ربما أُوحيَت بذلك نظرًا لاستغراقها في التفكير. لم ترفع يديها عن المقود إلا خمس دقائق، توقفت فيهم عند استراحة صغيرة، تبتاع فنجان قهوة، يُحفز خلايا عقلها، لما هي مُقبلة عليه.

ولأنها لم تُرد للقاء أن يكون مشحونًا بأي عاطفة إيجابية، لم تطرق باب خالتها مباشرة. فضلت انتظاره في حوش العمارة، حيث اعتادت أن تلعب، عندما تتجمع العائلة للمصيف.

سدد نظراته نحوها لثوانٍ متفاجئًا، ثم انزلقَت عيناه إلى الأسفل، والأعلى، والجانبين، كل شيء إلا وجهها. إشارات جسديهما هذه المرة كانت مختلفة؛ هي تقف بثبات، تغرز نظراتها في وجهه، وهو متردد، مهزوز، ومضطرب.

هي من تسعى إلى المواجهة، وهو من يتوق إلى الهرب.

وضعت كفَّيها في جيبي سترتها الرياضية، مدَّت جسدها على استقامته، حرصت على أن تخرج نبرة صوتها خالية من العاطفة، جامدة، وباردة.

تحشو الكلمات كطلقات في حنجرتها، وتُسددها غير متأنية:

- كنت لأكون مخرجة سينمائية عظيمة، لو اخترتُ أن أدخل هذا المجال، أتخيَّر كادرات استثنائية، وأعتني كثيرًا بالتفاصيل المشهدية؛ الديكور المُحمل بدلالات رمزية، أين تقف الشخصيات، وكيف تقف، ما تقول بلسانها، وما تقول بعينيها، أحيانًا تكون المشاهد الصامتة أكثر بلاغة من ديالوج طويل مُكدس بالكلمات الرنانة. أحيانًا تعوزنا القدرة على الشرح والتوصيف، كيف تُعبر بالكلام مثلًا في مشهد سينمائي عن مشاعر إنسان يحترق؟ إنه يتألم، يتعذب، يصرخ، يتخبَّط، آخر شيء يرغب فيه هو أن يتكلم، اشتعال النار في جسده بليغ وكافٍ.

تفصَّد جبينه عرقًا، لم يكن الجو حارًا، بيدَ أنه شعر بحرارة الشمس أكثر مما كان قبل دقائق، أو ربما مصدر الحرارة كان نارًا أخرى، توقدها «أنهار» بداخله.

- أعدتُ هذا المشهد في رأسي ألف مرة، مع تغيير الديكور، ردَّات الفعل، وزاوية العرض، أحيانًا نكون هنا في الحوش حيث اعتدتُ أن ألعب، شاعرة بأمان كبير، كنت أومن أنه لا يمكن أن يضيع، وأحيانًا نكون أمام البحر، حيث اعتدتُ أن أسبح، لا شيء يخيفني، ولا حتى فكرة الغرق، لأنك موجود، ستُنقذني في الوقت المناسب، أو عندنا في بيتنا القديم، في حارة السكر والليمون، في الشرفة الرئيسية، أمام شجرة الجميز المُعمرة.

سكتت عندما اهتز صوتها، وتلجلج ثباتها، ونغزت مقلتيها عبرات حارقة. «لا بأس أن نكون خائفين وضعفاء أحيانًا»، ترددت تلك الأصداء في رأسها.

- يُمكنك أن تتصور أي شيء، إلا شعور أنثى منهوبة، سُلبَ أمانها في لحظة، لحظة تحولَت إلى حلقة ملعونة، تظل محبوسة فيها، ومقيدة بها، لا تظن أن لهذا علاجًا أبدًا، يُمكنها أن تتظاهر بأنها نسيت، أو تعافت، أو تجاهلَت، لكن في الحقيقة إنه شيء عليها أن تتعايش معه إلى الأبد، مثل مرض مزمن، وأكثر ما يؤلمني أنكَ هذا الفيروس.

لا يزال مطرقًا إلى الأرض، ينتعل حذاء المخرج، يحاول استعادة المشهد الذي لا يتذكر الكثير من تفاصيله. مشهد مفجع، فيما يبدو، أصبح أكيدًا من هذا الآن.

- لا تكُن بخير أبدًا.

ألقت كلماتها الأخيرة، ارتدت نظارتها الشمسية عسلية الإطار، ثم غادرت بهدوء، تشق طريقها بالفيات عائدة إلى القاهرة، تفتح النافذة، تتنفس، لأول مرة منذ زمن طويل جدًا.

أخبرته كيف يتكبَّل الإنسان بلحظة، ويُحبس فيها إلى الأبد، شعر أن كلماتها الأخيرة قيدٌ موصوم بالخزي، ومحكوم بالأبدية، لا قوة في الأرض قادرة على تحريره، أبدًا.

***

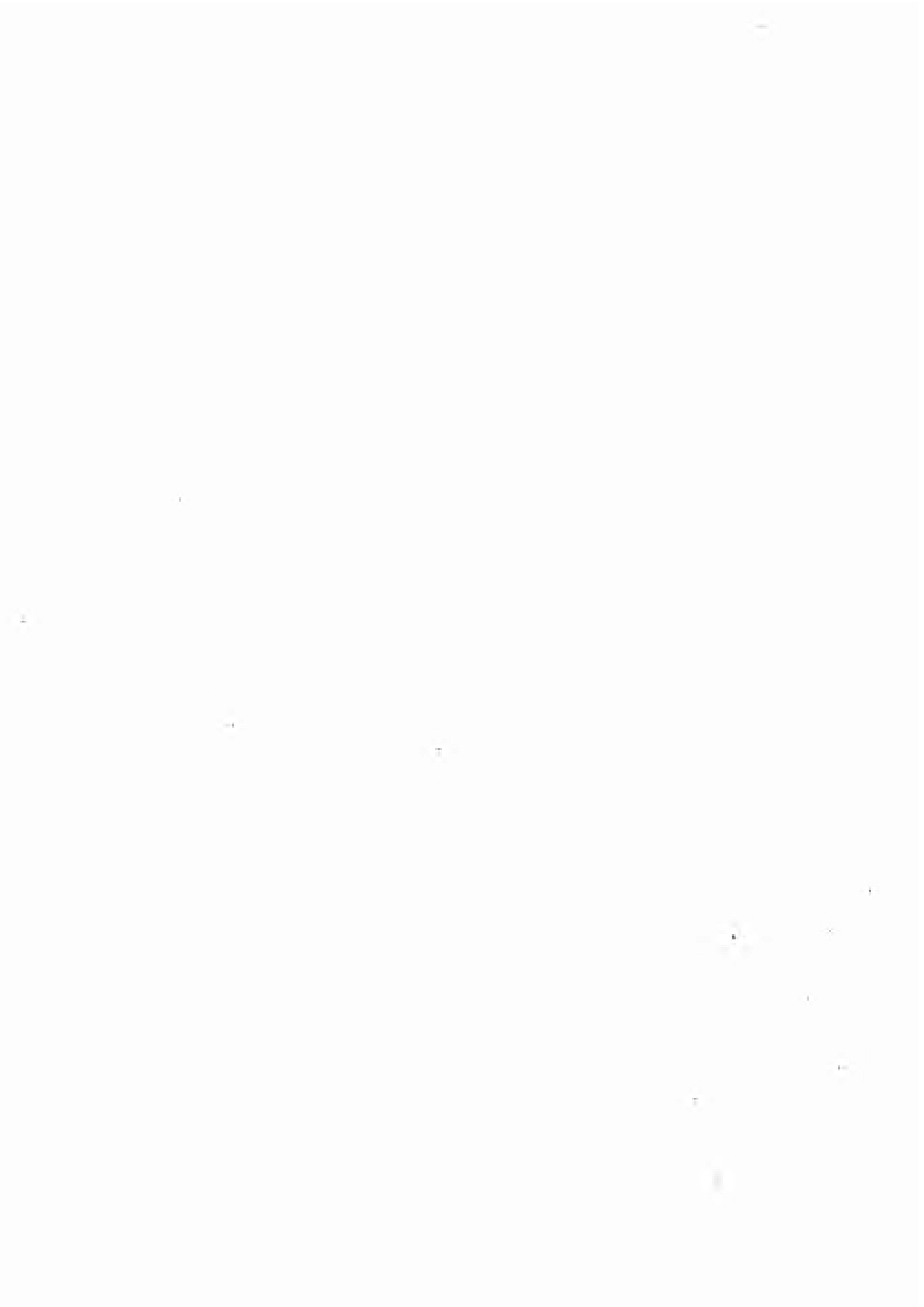
لما وصلت إلى البنسيون، وصفَّت سيارتها أمامه، كان الإرهاق قد بلغ منها مبلغًا عظيمًا، أزاحت القطة السوداء الغثيثة، التي حاولت خمش ساقها، لولا البنطال الذي حال دون تحقيق مأربها. من فورها توجهت صوب الفراش، ألقت بجسدها فوقه، آملة في نوم عميق.

أفسدت الكوابيس استرخاءها؛ أجساد ضحايا الزلزال الممزقة، بكاء الثكالى، وأنين الأرامل والأيتام، وسط كل هذا الخراب، اقتحم «زعفران» المشهد، حملها بين ذراعيه وانتشلها، وفوق جواد أبيض، ككل القصص الخيالية السخيفة التي لا تؤمن بها، انطلق بها بعيدًا صوب الأفق، ثم ذابا معًا في ذرات الشمس، وصارا شعاعًا واحدًا.

استفاقت على طرقات هادئة فوق باب غرفتها، أفزعتها وقد ظنَّتها جزءًا جديدًا من الحُلم، قذفت إلى عالم الواقع بسرعة أكبر مما يحتاج إليها جسدها المنهك.

- ماذا تفعلين هنا؟

وقف على بابها آخر شخص توقعت رؤيته في البنسيون، «نزيه الليثي» المتواري عن الأنظار منذ أيام.



# (38)
# الوحمة

تذكرت الآن أين رأت الوحمة الحمراء المطبوعة فوق جبين «زعفران»!

مرأى كل تلك الدماء نشَّط ذاكرتها، لتقفز إلى السطح هذه المعلومة الغائبة، التي تبدو لها في هذه اللحظة غير مهمة على الإطلاق، كل ما صبَّت عليه تركيزها أن تفر من الفاخورة قبل رجوع أبيها غير المحمود.

كانت ما تزال تشعر بحركة الريح تحت جناحيها، بالقهر إثر دفن وليفها أمام عينيها، وبالخوف بعد مطاردات الغراب المجنون لها، ورغبته التي تذبذبت بين قتلها، والاستحواذ عليها.

لماذا يطاردها هذا المدعو «زعفران» في أحلامها؟ تارة كـ «كهرمان»، وتارة كـ «نعمان»، وأخرى كـغراب أسود، ولماذا تبدو التفاصيل حقيقية وملموسة إلى هذا الحد؟

كأنها انقسمت إلى «عيناءات» عديدة، كل واحدة اختارت لنفسها زمنًا مختلفًا، وحياة مغايرة، أو ربما لم يخترن بل دُفعن إليها دفعًا. راودها إحساس عروس الماريونيت التي تُسيُرها الخيوط من الأعلى، والمعقودة حول أصابع خفية، قادرة على تحريكها واللعب بحيواتها.

- هل أنا مجنونة؟

اجترَّت الشكوك حول رجاحة عقلها، وسلامة منطقها، وحقيقة هويتها، أصعب ما يقاسيه المرء في هذا العالم، ليس الفقر، أو القهر، أو الألم، بل صراعه مع الأفكار الشرسة، التي تتغذى على روحه.

لجأت إلى غرفتها بالبنسيون قبل أن يراها أحد، كانت الصالة خالية من الجميع.

ودت لو تُبدِّل فستانها الملطخ ببقع الدماء، أعجزها عن ذلك أنها لا تملك غيره -كانت قد تخلصت من العباءة البنية التي أخذتها من دكان ثاني الرجال الذين نحتتهم كالفخار- أخرجت من الدولاب الشيء الوحيد الذي تملكه، فستان زفافها.

كانت قد خيَّطت الشق الطولي، ونظَّفت ما تمكَّنت من فركه، ساعدها على ذلك أنها ومنذ البداية كانت ترتديه بشكل مقلوب، فظلت البقع المتبقية في الوجه الداخلي متوارية عن الأنظار.

كان لوجهها الداخلي بقع مماثلة، نزعة شريرة لم يشهَدها أحد، ودَّت لو تُمسك بساطور وتجتز أيادي الجميع، ثم تجمعها في أجولة، وتُلقي بها في فم النيل، إن كان عليها أن تعيش ناقصة، فعلى الجميع أن يتجرع من الكأس نفسها. استبدلَت بالفستان البرتقالي فستان الزفاف، لم يلِق بها هذه المرة، شعرت أنها دخيلة عليه، بعد أن قص عليها أبوها حكاية المسخ، حكايتها هي.

استلقت فوق فراشها يئن جسدها ألمًا، إنها مسخ، ولا شيء سوى مسخ، تأكدت من ذلك الآن، كان أبوها محقًا من البداية، هي من كان عليه أن يموت تحت الأنقاض، وليس كل تلك الأرواح البريئة التي فقِدت.

فم الموت الأسود الطويل كزلومة الفيل، هو النهاية الوحيدة التي تستحقها، فقط تريد له أن يؤدي مهمته سريعًا، بلا تمهُّل. فتحت النافذة ثم قفزت إلى الفراندة، تمطَّت حافتها المنخفضة كالحصان، لبيوت مصر القديمة مزية في الليل لا تجدها في وضح النهار، أنها تُشبهها إلى حد كبير، ميِّت ينتظر التأبين، هكذا رأتها «عيناء» عندما طافت بنظراتها فيما حولها، مشحونة بالعواطف كمَن يُلقي نظرة الوداع الأخيرة.

طرقات على الباب لم تستجِب لها في البداية، ولما توالَت واشتدت، قررت أن تفتحه قبل الاستسلام لإغراءات فكرة الطيران صوب السماء الواسعة، ربما لأنها من دون أن تشعر ودَّت بشدة لو يمنحها الطارق -أيًا كان- معنى لقصتها التي انتهَت قبل أن تبدأ، فقد وُلدَت من الأساس ميتة.

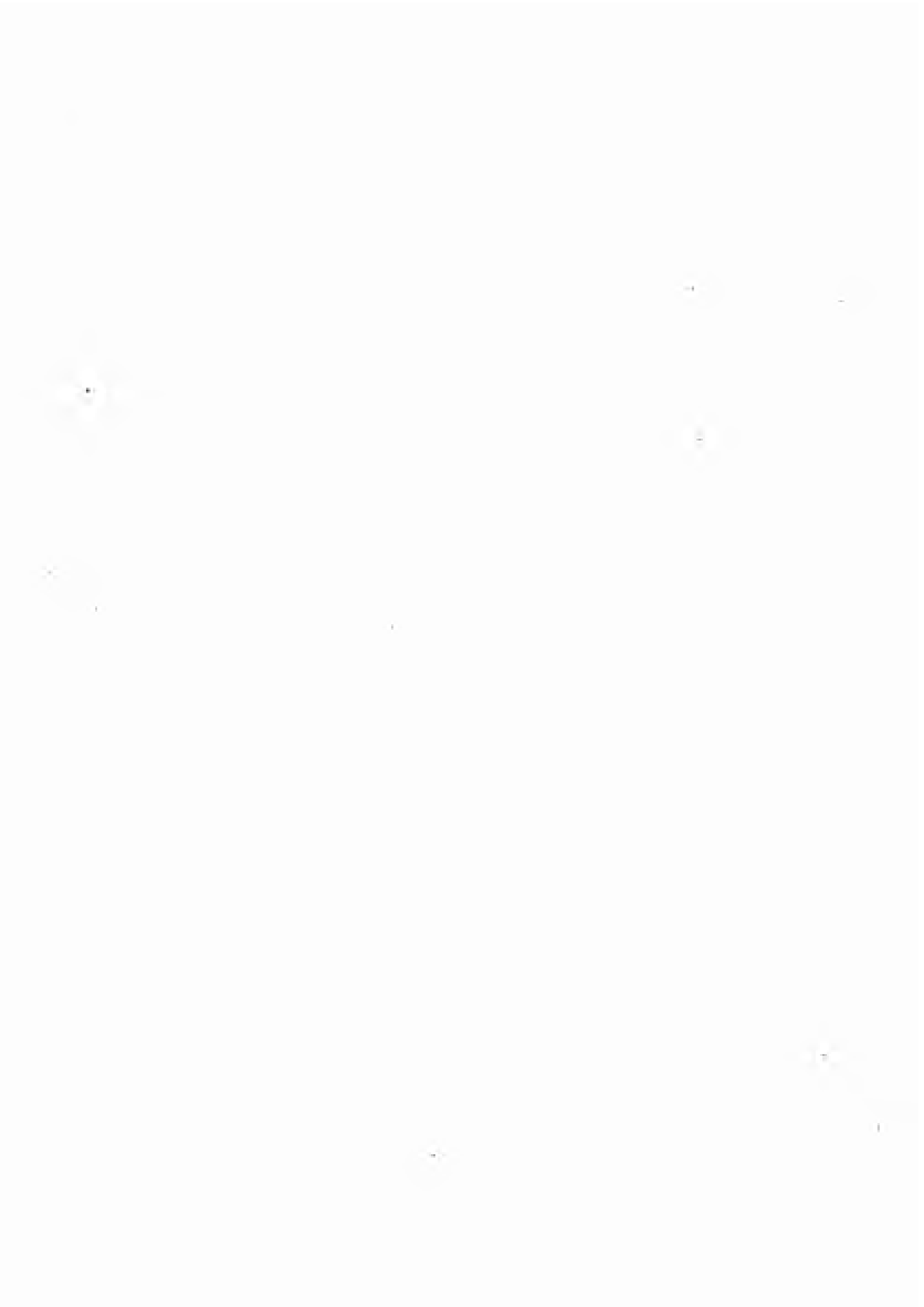
لم يكن الطارق صاحبة البنسيون كما ظنَّت، كان صاحب الوحمة كما تمنَّت.

- يجب أن نتحدث.

قالها بإصرار من لا يقبل الرفض، ولم تكن تملك لا القوة ولا الرغبة لرد مطلبه، بل تتطلع شوقًا لهذا الحديث بأكثر مما يفعل.

رأت الوحمة بارزة بين خصلاته السوداء الطويلة، فتذكرت للمرة الثانية أين رأت واحدة مماثلة؛ فوق مؤخرة عنق السيدة القصيرة التي تملك عيني قطتها، عندما استدارت لتجلب مفتاح غرفتها أول ليلة لها في البنسيون.

*لماذا تشترك السيدة التي تسير كالبطريق، و«زعفران» المجذوب في الوحمة نفسها؟!*



# (39)
# الخيط الذي يمسك به الجميع

أدركت «أنهار» أن «نزيه» الواقف أمامها داخل غرفتها، يُخفي بجعبته أكثر مما سيدّعي. والمثير أن لـ «نزيه» الوعي اليقظ نفسه، الذي أنبأه أن «أنهار» ستحيك من الأكاذيب أكثر مما سيفعل معها.

الفوز بالخبر المثير هو غنيمة الأوقات العسيرة التي أمضاها في البحث والتقصي، وثمن ساعات الجوع والعطش التي أمضاها في غرفة القطة الخرفة «عجب هانم»، ولن يدع تلك الـ «أنهار» تسلبه هذا الحق أبدًا.

«أنهار» و«زعفران» و«عيناء»، يسكنون ثلاث غرف متجاورة في البنسيون نفسه، كل هذا –في رأيه– أكبر من قدرة المصادفات على الاحتواء.

«زعفران» الذي تحميه «أنهار» بإخفاء هويته، هو نفسه العريس الذي تبحث عنه الفتاة، لكن ثمة حلقة مفقودة بين الحدثين لم يتمكن بعدُ من العثور عليها، ولربما يقوده هذا إلى حدث أكبر مما يتصور، يستطيع خلاله ربط الرجل والفتاة بالحكاية العجيبة للقطة وصاحبتها.

لم يكن أمامهما من تسوية، سوى أن يتظاهرا بتصديق كل منهما للآخر. أخذ «نزيه» زمام المبادرة، ليحوز سبق إدارة دفة الحديث حيث يريد:

– يبدو أنكِ هنا للسبب نفسه الذي أتيتُ لأجله، والجميل أن كلينا فكر في استئجار غرفة في البنسيون ليكون أقرَب إلى نبع الأخبار المثير.

أدركت «أنهار» أنه استهل حديثه بنصب فخ خبيث، يريدها أن تسقط فيه، لتبوح أولًا بما تخفيه. تظاهرت أنها لم تفهم. سايرته:

– الصحفي الماهر يبقى قريبًا من صيده، ولا يسمح له بالفرار، أليس كذلك؟

ليست غبية لتبوح بكل شيء، كان يعرف ذلك سابقًا، عليه أن يفهم ما يدور برأسها، وما توصلت إليه من معلومات. جاراها بدوره، متظاهرًا بعدم الاكتراث:

- حظًا موفقًا، ففي النهاية نحن زميلان في الجرنال نفسه، هدفنا واحد، ألا وهو أن تصل الحقيقة إلى الناس.
- «نزيه»، دون لف ولا دوران، تعال نكشف أوراقنا، أظن أن هذا سيختصر علينا الكثير من الوقت والجهد، ما رأيك؟

بينما حكَّ رأسه متظاهرًا بالتفكير، كان قد فكَّر سابقًا أن يسألها الشيء نفسه، عليه أن يعرف إلى أي مدى توغَّلت، وما هي الخيوط التي تتمسك بها في يدها. كل ما يخشاه أن تكون قد سبقته بخطوة، عليه أن يكتشف هذا الآن، كي يتمكن من تعويض فارق المسافات قبل فوات الأوان. سيحتل مقعدها في الجرنال، أقسَم على أن يفعل.

ألقى لها أقل أوراقه أهمية، تحديدًا، الورقة التي يعرف جيدًا أنها مكشوفة، إذ تركها فوق مكتبه بالجرنال قبل أن يقع أسيرًا في قبضة «عجب هانم»، أخبرها أنه يتتبع خبر عروس تبحث عن عريسها في شوارع مصر القديمة، وأنه لسبب غير مفهوم، لا وجود لهذا الرجل في أسماء الضحايا والمصابين، كأنه تبخَّر في الهواء، أو لم يوجد ابتداءً، وما أتى إلى البنسيون إلا ليراقب الفتاة، كي يكشف ما تحيكه من مؤامرة، فلربما قتلت زوجها، ثم ادعت اختفاءه بعدها.

قدَّرت «أنهار» أن ما يعرفه أقل أهمية مما ظنَّت، لذا شاركته معلومة هي الأخرى. لم تكن «أنهار» تسعى لمعرفة ما يخفي فحسب، إنما أرادت أيضًا أن تُلقي له طعمًا هامشيًا، يبعده عن «زعفران» وحكايته المثيرة، حتى وإن اضطرت إلى أن تكون «عيناء» هي هذا الطعم:

- وهل تعرف أن الفتاة التي تتبعها، هي نفسها المجنونة الهاربة من المصحة؟ أي أن الفتاة غير متزنة، ومريضة عقليًا.

كانت ضربة قوية مُسددة إلى رأسه، عصفت ما به من أفكار، تطلع إلى «أنهار» ذاهلًا، كل ما رتَّبه سابقًا يحتاج الآن إلى إعادة تدوير.

الفتاة فاقدة للأهلية، وهذا يُبرر ادعاءاتها بالزواج برجلٍ تتوهم أنها فقدته في الزلزال. في هذه الحالة، ما دور «زعفران» في القصة؟

رغم كل شيء، ما زال يشعر أن ثمة رابطًا ما يجمع القصتين معًا، فقط لو تمكن من تسليط كشاف على ما يدور في رأس «أنهار»، سيتمكن من حل اللغز كاملًا.

استجمع أفكاره، ثم سألها دون مواربة:

- حسنًا، وما هي قصة هذا الرجل، «زعفران»؟

- كما أخبرتك سابقًا، فقد امرأة في الزلزال، أساعده في البحث عنهما.

- وهل عثر عليها؟

- ليس بعد.

- أستاذة «أنهار» أعرف جيدًا أنكِ تخفين أكثر مما تقولين.

- مثلما تخفي أنتَ أكثر مما تقوله، مشكلتك يا «نزيه» أنكَ تظن نفسك أذكى من الجميع.

المعضلة الحقيقية التي تنتصب أمامهما، أن كلًّا منهما يملك جزءًا من الصورة، لا تكتمل إلا به، وفي الوقت نفسه يضن كل منهما على الآخر بما يعرف.

- لماذا كنتِ تبحثين في الأرشيف عن تواريخ الزلازل؟

ألقى سؤاله في البحيرة الساكنة، يُبدد هدوءها الظاهري، ويفتت تماسكها الزائف. توترت «أنهار» وهي تجيب السؤال بآخر:

- من أخبركَ بذلك؟

- توجهتُ للجرنال قبل قليل، قال الساعي إنكِ مكثتِ في الأرشيف طويلًا مع هذا المدعو «زعفران»، وإنه عندما كان ينظم الملفات بعد انصرافكما، انتبه إلى كونكِ كنتِ تنتقين المقالات التي كُتبت عن الزلازل، وها أنا أسألكِ، لماذا هذا الموضوع بالتحديد؟

- لا تتوقع أن أجيبك، أليس كذلك؟

في الحقيقة كان واثقًا من قدرته على استنطاقها بما لديه من معلومات ثمينة. كان قد توجه إلى الجرنال للاعتذار لرئيسه عن غيبته المفاجئة، مع وعد بسبق صحفي مثير صباح الغد، سيضاعف مبيعات الجرنال، ويُنقذ ما تبقى من ماء وجه رئيسه أمام رؤسائه، ويُمكِّنه هو من الترقية التي أرادها. وقبل أن يعود إلى البنسيون، توجه إلى جامعة القاهرة.

كان «نزيه» قد افتُتن بخبر إتاحة الاتصال بشبكة الإنترنت لعموم الناس في أغسطس العام الماضي، في مصر لم يكن هذا متاحًا بهذا التوسع بعدُ، اقتصر التعامل مع شبكة الإنترنت على الجامعات المصرية ومركز المعلومات، وكان من أوائل من أتيحت لهم الفرصة –بوساطة من أبيه– لتجربة الإنترنت في جامعة القاهرة.

وهذا ما دفعه لإعادة الكرّة، هذه المرة للبحث بين جنبات هذا العالم المعلوماتي الفسيح، بالإضافة إلى زيارة خاطفة إلى الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية، للتأكد من صحة التواريخ والتفاصيل التي منحتها له «عجب هانم» عن الزلازل التي تزعم أنها عاصرتها بنفسها، ورأتها رؤى العين.

وما استجلَب دهشته، وأثار زوابع حيرته، أنها لم تكن دقيقة في التواريخ فحسب، بل في الساعة، والدقيقة، والثانية.

تفاصيل بهذه الدقة لا يُمكن معرفتها إلا لمن عايشها، أو لمن أتيح له الاطلاع عليها من مصادر خاصة، ولا يظن أن قطة سمينة سوداء، قد تُتاح لها مثل هذه الفرصة.

أدرك «نزيه» أن محاولة الاستفراد بالسبق لن تنجح، وأنه بحاجة إلى مساعدة «أنهار»، يمكنه أن يتفاوض معها لاحقًا على كتابة اسمه ملازمًا لاسمها، هذه أفضل الخيارات المتاحة أمامه، أما أسوؤها هو أن يقدم إلى رئيسه حكاية مبتورة الطرف، يتخللها الإشارة إلى قطة مُتكلمة، تكون سببًا في إلقائه داخل المصحة العقلية بدلًا من الفتاة الهاربة.

أطلق تنهيدة حارة، يقاوم ضيقًا نما بداخله، بالتزامن مع إقراره بحاجته إليها، ثم قال:

- أتوقع أن تتعاوني معي، وبخاصة عندما أخبركِ أنني أعرف شخصًا يزعم أنه عاصر عشرات الزلازل التي تبعد عن يومنا هذا بمئات الأعوام، تأكدتُ من التواريخ والتفاصيل، كلها صحيحة تمامًا.

ترك لها فسحة من الزمن لتهضم تصريحه المفاجئ، قبل أن يردف مانحًا إياها نظرة لئيمة، يُلقي لها بسنارة حظ، في محاولة لصيد طرف معلومة:

- كما أنني أشعر أن لدى «زعفرانك» المزاعم نفسها!



# (40)
# فكرة مسمومة

- يجب أن أعود إلى عالمي الحقيقي.

تتابعت القطرات المتساقطة في حوض الممر، بوتيرة أسرع من الأيام الماضية، يبدو أن الصنبور على وشك الانهيار الكامل، إزاء اندفاع الماء من غير سد قوي يمنعه.

وكانت هي مثل صنبور الممر، على وشك إرخاء عنادها بالكامل، فالطاقة خائرة، والهدف الذي تعيش لأجله تبدد أمامها هباءً منثورًا، لم يبقَ لها شيء، لم يبقَ لها أحد.

- أنا هنا في رحلة.

توجهت إليه بجوارحها، تفتش فيما يقول عن طرف معجزة، تنتشلها من البئر المظلمة التي تهوي داخلها، وتقدم لها التفسير الذي تنتظره. تطلعت إليه كضوء في نهاية النفق، قشة تتشبث بها لتنجو من الغرق.

شعرت بالعطش، فتوجهت إلى الزجاجة التي تُبقيها فوق الكومودينو، وأفرغت نصفها في جوفها. دنت منه خطوات قليلة، تُبدي تمنُّعًا هشًّا، متشبثة بفستان الزفاف، ترنو بطرف عينها إلى مرآة الحائط، يصيبها الذهول، كان الفستان مقلوبًا مرة أخرى، مهما ارتدته معتدلًا يُصر على الانقلاب في كل مرة!

لم تعد تثق بكلمات السيدة صاحبة البنسيون، ارتداء المقلوب مصادفة ليس علامة حظ، بل إشارة تخبرها أنها عنصر معوج. انعكاس غير حقيقي، لشيء ما كان يجب أن يكون. عليها أن تثق بالإشارات أكثر من ثرثرة الآخرين وخرافاتهم. تساءلت:

- لماذا يلفظني العالم كلما حاولتُ أن أفسح لنفسي مكانًا بداخله؟

كان ليمنحها تفسيرًا واضحًا كاملًا، فقط لو تعود إليه الذاكرة. لا تستطيع أن تتناسى كونها مسخًا شائهًا، تنمو أطرافه المبتورة كنجم البحر، لا أب له ولا سلالة، وُلد بلا صرخة من جوف الزلزلة، حسِب أنه «خضر» جديد، يُطهر الناس من أدرانهم، ويبتر الإثم عن أبدانهم، طمعًا في أن يقبلها الله، وأبوها، والعالم، لم تكن نجمة في السماء كما ظنَّت، بل رصاصة في بندقية.

- أنا مسخ.

أقرت بها بصوت مرتفع، بعدما رددتها داخليًا. أخرجت من أسفل فراشها دفتر صاحبة البنسيون، تُريه ما كُتِب بداخله من طلاسم عربية. تستطرد بنبرات مُتعَبة:

- لستُ المسخ الوحيد هنا، هذا البنسيون ملعون، وصاحبته ساحرة أفاقة، تدس لي السحر في الأحلام، وربما هي التي تجعلني لا أشتهي شيئًا سوى الماء، انظر، الماء، كل الصفحات بها ماء.

يتصفح «زعفران» الدفتر بنهمٍ كبير، يُطالع فقرة هنا، وأخرى هناك، أرقامًا ومعادلات وإحصاءات، تتحدث عن التكوين الذري للماء، وعلاقته بباقي العناصر في الكون.

أخبرته «أنهار» عن تلك المعجزة في مجال الاتصالات المسماة بـ «الإنترنت»، التي أطلِقت لعموم الناس العام الماضي. ما زال استخدامها محصورًا في نطاق محدود، لكن -بحسب مزاعم «أنهار»- ستسود وسائل الاتصال الأخرى، وتتفوق عليها، حتى يصبح كل فرد متصلًا بتلك الشبكة المعلوماتية الضخمة.

وما استدعى تلك المعلومة إلى رأسه، هو كتابات صاحبة البنسيون التي تربط بين كلمتي «الاتصال» و«الماء»!

جلس فوق الفراش من غير دعوة، متجاهلًا وجود «عيناء» في الغرفة، ومتناسيًا له، غرق بين الأسطر المكدسة بالمعلومات، يحاول عقله مد جسور التواصل بين المعاني والكلمات، وبخاصة أن الفقرات ليست كاملة، والدلالات مجتزأة عن السياق، كحديث نفسٍ يعرف صاحبه أكثر مما يبوح.

وكلما استزاد من القراءة، تشكلت بداخله أصداء لا تهدأ، لأشياء حدثت، وتحدث، وستحدث.

عندئذ التهبت خلايا عقله، واستنفرت أعصابه، مستدعية الذكريات من مخبئها السري في حنايا الذاكرة.

***

خلال الحرب العالمية الثانية، دعَت الحاجة إلى تطوير وسائل الاتصال، واستنفار الجهد البحثي لإيجاد روابط وعلاقات، تفتح أبوابًا جديدة في مجال الاتصال بين الجنود.

اجتذب هذا المجال أنظار العلماء وجهدهم، ولم تتوقف البحوث حتى بعد انتهاء الحرب، امتدت رقعتها لتشمل دراسة تفصيلية لتقنيات التواصل بين الكائنات المختلفة، ومحاولة إيجاد قنوات تُمكننا من التواصل مع المخلوقات التي تعيش على الكواكب الأخرى، إن كان ثمة حياة هناك.

لكل شيء في الكون لغته الخاصة، هذا ما تخبرنا إياه الطبيعة من حولنا؛ الكلمات لغة البشر، الإشارات لغة الجسد، الأصوات والروائح لغة الحيوانات، النغم لغة الموسيقى، والنبضات العصبية لغة الجهاز العصبي، والهرمونات لغة الغُدد، والذبذبات لغة الكهرباء، والتفاعلات لغة الماء.

اللغة مجموعة من الشفرات تُشير إلى مجموعة من المعاني، متى ما فُكَّت الشفرة تمكن الإنسان من اكتشاف المعنى.

منذ آدم -عليه السلام- يفتش الإنسان عن سبُل التواصل، بالإيماءات، والإشارات، والأصوات، والحركات، والكلمات بشكلها المنطوق والمكتوب. وهذه الوسائل طورها من عصر إلى آخر، حتى توصل إلى ابتكار، التليغراف، والتليفون، والفاكس، والإنترنت كلغة جديدة، تُمكن الحواسيب من الاتصال ببعضها، وتبادل المعلومات المشفرة، شأنها شأن الفيرمونات، التي تُمكن الحيوانات من التواصل، وتبادل الرغبات.

بتزايد سُبل التواصل، يتكاثر الميراث الإنساني من اللغات والعلوم والآداب والفن والتاريخ والحضارات، لهذا يحرص الإنسان على تطوير مجال الاتصال عصرًا بعد عصر.

إلى أن اكتشف علماء عظام طريقة مبتكرة للتواصل مع الخط الزمني للماضي، وللتاريخ، عن طريق الماء.

تقنية مبتكرة للسفر عبر الذاكرة!

كان هذا تحديدًا في الربع الأول من عام 2054م، عندما كان الرجل الذي تذكّر اسمه، يبلغ التاسعة من العمر.

***

ضربت أمواج الذاكرة بقوة فوق صخرة النسيان؛ صورة، ثم صوت، ثم مشهد مجتزأ، ثم صوت آخر، ثم رائحة، ثم مشهد كامل، تساقطت الذكريات فوق الصخرة إلى أن فتتتها وأذهبتها أدراج الرياح.

بينما لا يزال يجلس فوق الفراش، كان عقله يسبح في واقع آخر، يبعد عن هذا الزمكان، بعشرات الأعوام إلى الأمام!

وقفت «عيناء» أمامه تتلمظ غيظًا؛ تناساها كأنها مقعد زائد في غرفة مكتظة بالمقاعد، وأشد ما يثير سخطها هو التجاهل. قالت بغضب مكشوف:

- أنا لا أثق بك، كيف أثق بك بينما لا تخبرني كيف أن جبهتك وعنق صاحبة البنسيون مختومان بالشكل نفسه؟

تطلع إلى وجهها مشدوهًا، وعندئذ تذكر كل شيء!

قالها لنفسه في انتشاء. ليس مجذوبًا كما تظن الفتاة، ولا يملأ رأسه الفارغ من الذكريات بالأوهام، كما كانت تظن «أنهار»، كان محقًا في كل شيء، ومن البداية.

فقط كان يحتاج إلى الخيط الذي يجمع كل هذه اللآلئ المتناثرة في عقد واحد، وها هو يعثر عليه، إنه الماء!

وقف عاصرًا كتفيها بين قبضتيه، تنظر إلى عينيه مشدوهة، قدماها مثبتتان في الأرض، كجذور الشجر، لا تقوى على أن تبرح مكانها، لم يسبق لها أن شعرت بالانتماء؛ إلى مكان، إلى شخص، إلى قضية. لا يترعرع في صدرها إلا الشعور بالنقص، والتهميش، والدونية.

سألته، وقد كانت أبوابها مفتوحة على مصراعيها، لتصديق كل ما ينطق به:

- من أكون؟
- فكرة، ما كان عليها أن تُولَد.
- الأفكار نور يُضيء عتمة العقول.
- ثمة أفكار مسمومة، شائهة، قاتلة.
- الأفكار لا تقتل أحدًا.
- بل هي السلاح الذي يُسقِط عدوك بلا رصاصة واحدة.

صمتت قليلًا، ثم استطردت:

- إن كنتُ فكرة، فأين أعيش؟ إلى عقل مَن أنتمي؟
- تعيشين في عقلي، للأسف.

في الغرفة رقم (6) ببنسيون «عجب هانم»، كان مشهَدًا غريبًا ذلك الذي تشهَده الجدران الفستقية، رجل يلتقي فكرة مجسدة تسكن عقله، فكرة سوداء طاف التاريخ عبر بوابات الزلازل مطاردًا إياها من زمن إلى آخر، كي يتمكن من احتوائها، والسيطرة عليها، ثم سحقها، إلى أن تختفي تمامًا من رأسه، دون أن تترك خلفها أثرًا واحدًا.

وكانت ككل الأفكار السوداء العنيدة، ترفض أن تنتهي إلى التلاشي، متشبثة بكل قوتها، في خلايا رأس صاحبها. دفعت قبضتيه، رجعت خطوة إلى الوراء، وهدرَت:

- لستُ كما تدَّعي، أنا فكرة صالحة، هل تعرف كم عملًا خيِّرًا فعلتُ؟ كم رجلًا آثمًا أنقذتُ؟ كم مسارًا خاطئًا صححتُ؟
- لا يؤمن إبليس في نفسه أنه لعين أبدًا، ظنَّ أنه أفضل من «آدم»، لذا عانَد وتكبَّر، الشر مخلوق بلا وجه، بلا ملامح، لا نلتقيه في الطريق ويقدم نفسه قائلًا: مرحبًا، أنا الشر، ما اسمك؟ إنه يتنكَّر ويتلوَّن كيفما شاء، يُمكنه أن يلبس ألف قناع، ليقدم لنا نفسه بشكل مختلف لما هو عليه في الحقيقة.

لما قرأ في وجهها شراسة العناد، دار في الغرفة قليلًا متفكرًا، ثم أردَف:

- كنتُ أظن أن المسدس والدبابة والقنبلة النووية هي أخطر الأسلحة التي اخترعتها البشرية، التي يحتاج إليها القوي لإخضاع الضعيف، ويلجأ إليها العدو لتدمير خصمه.

تبدت فوق قسماتها أمارات التأييد. دسّ كفّيه في جيبي بنطاله، توقف أمام مرآة الجدار المشروخة من الزاوية، يتأمل وجهًا عجينيًا، بإمكانه أن يحمل ملامح الجميع، أنا وأنتَ وهو. مردفًا:

- سيأتي بعد الزمن زمن، نعرف فيه أن بإمكان العدو تدميرنا دون إطلاق رصاصة واحدة، سيكون الأوان قد فات عندما نُدرك أن التفكيك الأخلاقي أكثر خطورة على بلدٍ من تفجير قنبلة.

استدار قليلًا، يرمي ببصره صوبها. يقول:

- ومن المثير للسخرية أن نقطة القوة التي تحافظ على النسيج المجتمعي، هي نفسها نقطة الضعف التي تُسرِّع العملية. «الأسرة»، ما أصعب بناءها، وما أسهل تفكيكها، إنها القلعة التي تُبنى أخيرًا وتسقط أولًا، الحقوق مقابل الالتزامات، الرغبات مقابل التضحيات، النسوية مقابل الذكورية، تُجذَب المرأة في اتجاه معاكس للرجل رغم أن الفروقات بينهما اختلاف تكامُل لا تناقض، يُغرق الاثنان في القروض والديون والهموم، تُختَرَع لهما معارك وهمية؛ حرية المرأة، حرية الرجل، حرية الطفل، تفكيك المنظومة بدلًا من التعامل معها ككل، ما أسهل إشعال الحروب وما أصعب بناء السلام.

تملَّك منه السخط، وتناثر من عينيه الشرر، وقف أمامها يتحدث إلى نفسه بمونولوج طويل:

- قليل من الخيارات، كثير من الشعارات، صرف انتباه الناس عما ينفعهم، التشويش على أهدافهم، جدال في أي شيء ومن أجل اللاشيء، نشر الشاذ من الأفكار والمشاعر والمعتقدات، تلك هي الخلطة المثالية لطبخ مجتمع من المضطربين نفسيًا المعادين لكل شيء، كنتُ أكن احترامًا كبيرًا للبشرية، كنتُ من أولئك الذين يفتشون عن الجمال في كل مكان، حتى داخل القبح نفسه، لكنني سئمت كل ذلك، رائحة النفاق أزكمَت أنفي، ما أكثر الهيئات التي تُلهي الناس عما ينفعهم، تُنسج

خطرًا وهميًا، مضخمًا، ثم تفرض علاجات لا تنجح في مسعاها أبدًا، نحن نتآكل ببطء، تتفكك روابطنا الاجتماعية، وينحل نسيج وحدتنا، بدس الفتَن وخلق الأزمات، والمصيبة أننا لا نرى ذلك، أو لعلنا لا نهتم، أعرف أن ما من شيء إلا وهو خليط من هذا وذاك، لسنا نورًا خالصًا كالملائكة، ولا نارًا مستعرة كالشياطين، قبلنا بحمل الأمانة ومُنحنا أحقية الاختيار، ومتى ما كان المخلوق مخيرًا غير مسير، أعطي القدرة على تمييز الحد الفاصل بين الخير والشر، العدل والظلم، الجمال والقبح، الهدم والبناء.

أجلَت حنجرتها، عقَّبَت:

- الذكر والأنثى.

أطلق ضحكة عالية أفزعتها، لا مرح فيها، فقط جَلجلة قوية، مع قسوة، وكثير من السخرية. بالمقادير نفسها خلط نبرته قائلًا:

- لقد زال الحد الفاصل بينهما منذ وقت طويل، تظنين أن هذا زمن تسوَّد فيه الشر؟ ثمة زمن سيأتي سيصنع أعداؤنا من الشر شباكًا رهيبة لاصطيادنا ما خطرَت لأحد من العالمين.

كان حزمه قاسيًا، وعناده جبارًا، أردف:

- وأنا هنا لأنقذ نفسي من المصيدة.

- أي مصيدة؟

- مصيدة الحرية.

الحرية، هي السلة التي نُلقي فيها بكل شيء، إلى أن تحولت إلى سلة قمامة. هكذا فكَّر.

في عالم تفككت أخلاقه، تبدَّلَت مفاهيمه، وفُتحت الأبواب على مصراعيها أمام الأفكار الهدامة، بدعوى حرية الاختيار، وقبول الآخر، وخوفًا من الاتهام بالكراهية، احتكَر الكلمة أنصاف المواهب، وأنصاف العقول، بُنيَت من أجلهم المنابر، تسوَّدوا الناس وساقوهم إلى حيث أُريد بهم. بدَّلوا خِلقة الله وما فطر الناس عليه، ولا يزالون يشوهون الفضيلة وينبذون أهلها، بالإيحاء النفسي الخادع، وإعلان الانقلاب على الطبيعة المهيمنة على الجسد فسيولوجيًا.

حتى أصبح تمسك الإنسان بجنسه الذي خُلق عليه نوعًا من التطرف، تُعقد له المحاكم، وتُسن القوانين، وتُنزَّل العقوبات وشتى ألوان النبذ والتنكيل.

وكان هو أحد ضحايا مصيدة الحرية؛ أجاد سحرة فرعون السيطرة على عقله؛ بحجج واهية، وأدلة مُلفَّقة، ما فطن لعفونة منطقها وفساد هدفها إلا بعد أن زلَّ وتذوَّق المذلَّة.

أقنعوه أن ثمة أنثى بداخله تجاهد للخروج، وأن عليه أن يتحلى بالشجاعة، لكسر القيود المجتمعية، زرعوا في رأسه فكرة ملعونة، أن هذه الأنثى بقايا من المرحلة الجنينية، لووا أعناق الآيات والأحاديث القدسية، تحت راية حرية التفسير. ساقوا الأدلة الطبية، أن بداخل كل ذكر هرمونات أنثوية، واتخذوا من هذا ذريعة للمناداة بالعودة إلى الأصول. غضوا الطرف عن الحالات المرضية التي تستوجب العلاج. لم يعد الشذوذ اختيارًا، بل قاعدة لتحديد المسار، الذي يجب أن تكون عليه الطبيعة الجنسية.

بعد أن تقبَّل الناس التحوُّل بأريحية، تأسست في زمنه حركة عالمية متطرفة، تُنادي بترقي الإنسان على سلم التطور، ليكون ثنائي الجنس، بما أنه يحمل كلا الهرمونين الذكري والأنثوي في جسده، وإن كان بنسب متفاوتة. فيرتدي المرء نصف فستان في أحد جانبيه، ونصف بدلة في الآخر. سوار في معصم، وساعة رجالية في الآخر. خاتم زواج ذهبي في البنصر الأيمن، وآخر فضي في البنصر الأيسر. إمعانًا في جر الإنسان إلى المزيد من الفردانية.

تسوَّد أصحاب الميول المنحرفة، والحركات المفكَّكة، والأبواق العالية، مثل قنديل بحر يأكل ويتغوَّط من فتحة واحدة. عالم بلا أخلاق هو غابة بلا قوانين، يتآكل ذاتيًا. انسحب الأسوياء من المجتمعات التي لفظتهم، وضيَّقت عليهم الخناق، اختاروا أن ينغمسوا في حياة بديلة على الشبكة العنكبوتية، يسبحون في سُبات عميق، منعزلين عن مجتمعاتهم، وكافرون بالبشرية.[1]

إلى أن أتيحَت له فرصة الترحال في التاريخ، عبر بوابات الزلازل، يرى السابقين وأحوالهم، يلتقي خلفاء الأخلاق، وسدنَة الفطرة، يخالط أهل الحق

---

(1) رواية «بلاد تركب العنكبوت»، للمؤلفة.

والخير والجمال، بعد أن ندَر وجودهم في زمنه. يبحث عن الفكرة الشيطانية التي اقتحمت رأسه، وبدَّلت شعوره بنفسه.

- لا حاجة بكِ إلى معدة، الأفكار الدخيلة كائنات طفيلية، تمتص الطاقة من رأس صاحبها، لتحافظ على استمراريتها، كنتُ أنا من أمنحك الحياة طوال الوقت، وما زلتُ.

أمسك بالزجاجة، أمال فوهتها أرضًا، مردفًا:

- لا حاجة بكِ إلى الماء أيضًا، الأفكار الهدامة لا تعطش، وإن عطشت لا تشرب، وإن شربت كان شرابها الوهم.

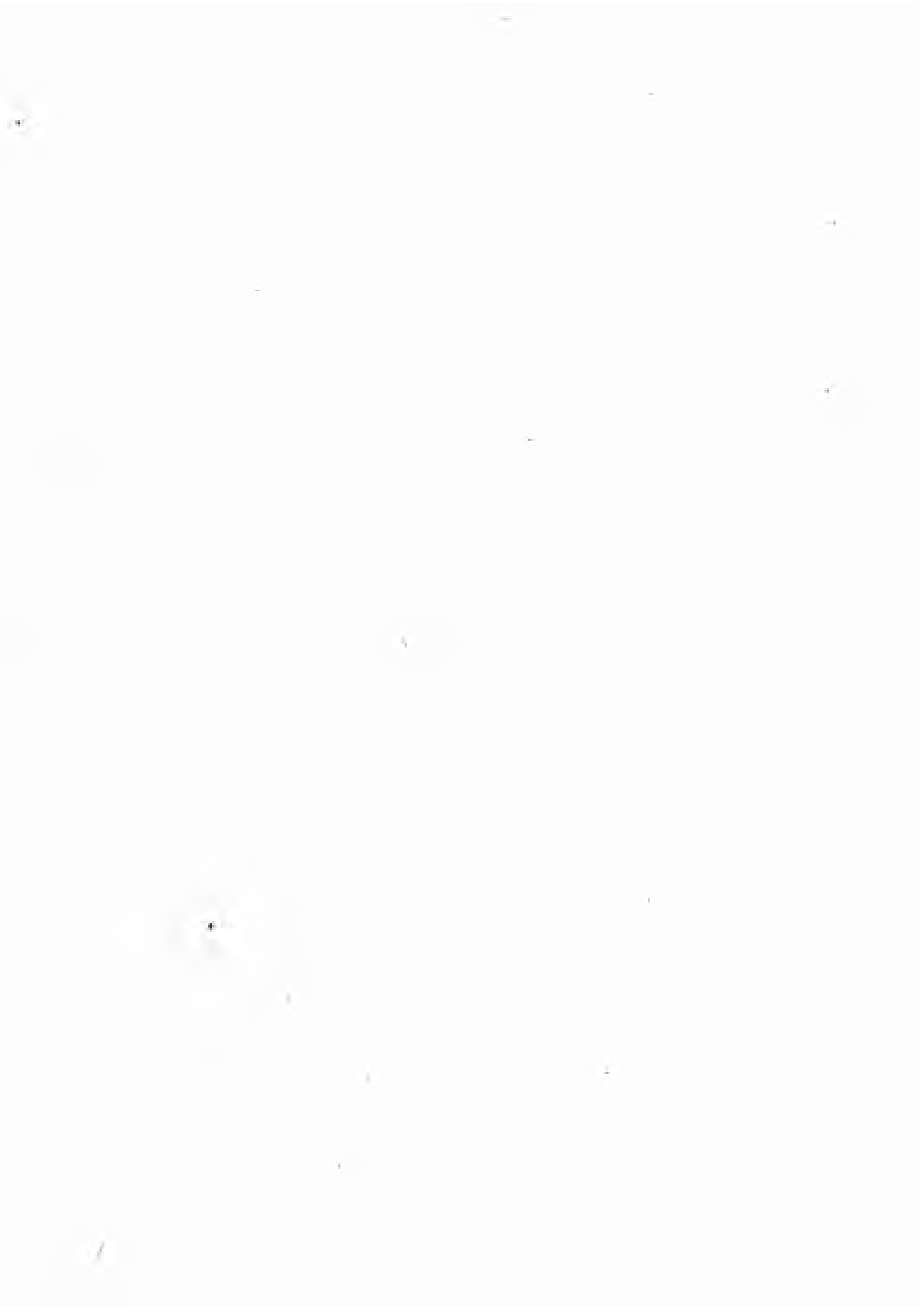
وكأن ما بداخل الزجاجة هواء شفاف، لم تنسكب قطرة واحدة. أكثر ما كانت تتجرعه هو الوهم، الوهم وحده.

- و«جمال»، هل كان موجودًا حقًّا؟

- وجودي في كل زمن هو حِمل فائض عليه، لذا على أحدهم أن يختفي كي أحل محله، كان على «جمال» أن يخرج من هذا المسار الزمني، كي يسعني الوجود، وما إن أختفي حتى يعود. هذا العالم هو الماضي، والماضي له ذاكرة محسوبة بدقة مثل كارت الميموري المحدد بمساحة ثابتة، إن أضفتِ إليه عنصرًا جديدًا كان لزامًا عليكِ حذف أحد العناصر المحفوظة أولًا، وكان "جمال" هو هذا العنصر المحذوف.

زلزلتها حكايته، تهدَّمت صوامع، وتناثر الردم، وعندما فتشت بين الركام عما فقدَت، لم تعثر على شيء ثمين، كل ما هدَّته الزلزلة كان أفكارًا شائهة، وجنونًا لا يهدأ. كأن العفريت الذي أخبرتها عنه زميلتها في العنبر، استدْعي حقًّا من بطون الحكايات، ليهدم عالمًا، ويبني غيره، عالم يجب ألا تكون جزءًا منه، لأنها فكرة مغوية زرعها الأعداء في رأس الرجل الذي سافر في عالم الذاكرة، من أجل طمسها، ونزعها إلى الأبد، وما عاد بإمكانها إلا التسليم والاختفاء.

أمام المرآة، رأت نفسها مُغبرة، ومشوهة، ومسحوقة، كجثة خرجت من تحت الأنقاض.



# (41)

# قطعتا سُكّر تحلمان بالذوبان

قفزت من نافذة غرفتها إلى الفراندة الدائرية، بعدما رأته يستند بمرفقيه إلى السور المنخفض، يُطالع وجه القمر بنهمٍ. جاورته في وقفته، وشاطرته الشرود، تلف كتفيها بشال رماديٍ من الصوف. لم يلتفت، ظنّته غير منتبه، إلى أن فاجأها:

- إنه الصمغ.

هزّت «أنهار» رأسها مستفهمة، كان لا يزال يتأمل القمر نصف المشطور. شرح لها:

- سألتِكِ: ما هو الحب؟ قلتِ إنه الذوبان، أقول إنه أشبه بالصمغ الذي يُبقي عالمنا متماسكًا، في غيابه نسبح في الفضاء بلا وِجهة، بلا جاذبية.

لم يبْدُ لها «الصمغ» مرادفًا شاعريًا، لذا أحبته كثيرًا. فكَّرت، لو كانت تملك هذا الصمغ في حياتها، لتمكّنت منذ أمدٍ بعيد من تقاسم الألم مع أسرتها، لبَكت فوق صدر أمها حتى تجف منابعها، ولأطبقت على عضد أبيها، تستند إليه، تستمد منه القوة والمناصرة.

لو كانت تملك هذا الصمغ، لما وجّهت حمم بركانها إلى الداخل، مُجرِّفة تضاريسها الأصيلة، ولقذفتها في وجه «شكري» في وقتٍ أبكر.

حقًّا، إنه الصمغ الذي يحفظنا من الشتات.

ثارت في قلبها مجاعة للحب. النقص الذي لطالما شعرت به، هو ما يجعلها أقرب إلى الحياة منها إلى الموت، كل ما هو ناقص حي، الاكتمال جمود وموت.

القمر التام لا يكبر، البطارية المكتملة لا تشحن، العربة الممتلئة لا تسع أحدًا، البالون المنتفخ بشدة ينفجر، البقرة التي يتكدس الحليب في ضرعها تتألم، والقلب المتخم بالمشاعر لا يحب. فهمت الآن، أن عليها أن تنقص لتنضج، لتشتهي، لتسعى، لا أن تكون مكتملة فتموت.

عبر شهاب فوق رأسيهما، تعلقت أعينهما به إلى أن اختفى. تواجها كقطعتي سكر، تحلمان بالذوبان، أن يفنى كل منهما في الآخر، داخل كوب من الماء.

الماء يجمع الشظايا المتناثرة، ويُقرب الأجزاء البعيدة، يا له من مخلوق عجيب.

أربكها الصمت الذي طلَّ، والدفء الذي حلَّ. توجهت إليه قائلة:

- هل تعرف من يكون النزيل الجديد في البنسيون؟ «نزيه الليثي»، حاول استدراجي لكنني منحته الفتات التي لا تسمن من جوع، اسمع، إن لديه قصة مثيرة عن امرأة تؤمن مثلك أنها مُسافرة عبر الزمن.

- عبر الذاكرة، وليس الزمن.

لم يكن من الصعب على الرجل الذي تذكَّر، بعد كل تلك الأسفار التي خاضها في ربوع الزمن، أن يفهم كيف تزيَّف التاريخ، وتشوَّهت الفطرة، في سفراته من زلزال إلى آخر كان يمتطي الحُجُب، ويخترق الجُدُر التي شيَّدها الساسة في ذاكرة الناس، لئلا يقفوا على التاريخ الإنساني الحقيقي.

أدرك الرجل الذي تذكَّر، أن هذا التشوُّه للوقائع وما بناها وما تلاها، إنما كان تجهيلًا متعمدًا، يُشتت الناس عن الحقيقة بألعاب حواة، يجيدها المؤثرون في كل زمان ومكان.

صار التاريخ كتابًا مفتوحًا بين يديه، يسير فيه من حدث لحدث، يقرأ مخاوف الناس، ورغباتهم الدفينة، وأحلامهم المستحيلة. مساكين، يصدقون ألاعيب الحواة، وأعوان الدجال، يعاونونهم -من حيث لا يشعرون- في تزييف التاريخ، وتجريف الحقيقة.

أرجعَت رأسها قليلًا إلى الخلف، رنَت إليه في شكٍّ تقول:

- هل...

- نعم، تذكّرت.

قالها باقتضاب، ولم يزد. بدا غامضًا، غير قابل للقراءة، مثل كتاب مدون بطريقة برايل، تطالعه عينان مبصرتان. رجل يحتاج إلى من يلمسه، ليُقرأ. وكانت كذلك تحتاج إلى من يُمرر أنامله فوق ندبات روحها، وتعاريج فِكرها، وتضاريس حكاياتها. عليها أن تسعد لأجله، بيدَ أن الخوف الذي تسلّط عليها جمدها في مكانها ومنعها من إبداء ردّة فِعل مناسبة، أو حتى مجاملة.

بحنانٍ أردف، بينما نظراته تمسح فوق وجهها المتعب:

- نامي الآن، تحتاجين إلى الراحة، غدًا نتحدث في كل شيء.

فلما رأى الأرق ينصب خيمته في عينيها، استعدادًا لليلة طويلة قاسية، ترقد فيها الهواجس إلى جوارها، تؤكد وحدتها، وتُبدد سَكينتها، منح بسمة مطمئِنة إلى المرأة التي تجمع بين الرهافة والصلابة. يؤكد:

- ثِقي بي.

وكانت بحاجة مُلحة إلى أن تثِق من جديد. ندَّ ثغرها عن ابتسامة رائقة، ونظرة متلطفة، قطفها وخبأها في قلبه.



# (42)
# ليست النهاية

حلَّت أصبوحة عسيرة على الجميع، صكَّ الآذان صوت سرينة سيارة البوليس، أفزعَت نزلاء البنسيون النيام، لم يكد كل منهم يغادر فراشه مُستطلعًا، حتى هجم أفراد الأمن على الغرفة رقم (5) بلا تمهُّل، يعرفون وِجهتهم!

كان «نزيه» في تلك الساعة مستغرقًا في تنفيذ خطته، استعار من صديق له يعمل في فريق إعداد القناة الثانية، بمبنى الإذاعة والتليفزيون، كاميرا تسجيل شريط فيديو بنظام VHS، ثبتها على حامل في الفراندة الدائرية، في موضع يواجه نافذة غرفة «عجب هانم». كان عليه أن يتحرك سريعًا لاقتناص الخبر، وبخاصة بعدما فشل في استنطاق تلك المتزمتة ليلة أمس. زار «عجب هانم» في غرفتها، وتجاذب معها أطراف الحديث لعشر دقائق كاملة، قبل أن تتثاءب بفجاجة، معلنة عن رغبتها في العودة إلى النوم. تركها وعاد قفزًا عبر نافذة غرفته إلى الفراندة، يستعيد الكاميرا والحامل، وعلى ثغره ابتسامة ظفر واسعة.

في تلك اللحظة سمع سرينة سيارة الشرطة، فالتقط الدبابة السوفيتية وخرج من غرفته يتتبع الخبر.

أمر ضابط المأمورية النزلاء بالخروج من غرفهم، ووقف معهم في الممر، يجيب على استفسار صاحبة البنسيون، التي ارتدَت في عجالة الروب فوق جلبابها الفيسكوز:

- معنا أمر بالتفتيش.

خرج أحد العساكر من الغرفة رقم (5)، مؤديًا التحية العسكرية، يحمل بين يديه فستانًا كان مخفيًّا تحت الفراش، رديء الصنع، باهتًا من أثر

الغسيل، كان ذات يوم برتقاليًا. باعد العسكري طيّاته عن بعضها، لتتكشف أمام الجميع الأصابع المبتورة، التي كان قد سُلخ عنها اللحم، استعدادًا لبردها واستخدامها كمكاحل، تُباع إلى النساء في الأتوبيس.

حطّت الدهشة فوق الرؤوس، وصنعت عشًا هناك، يسعها والفزع في آنٍ واحد.

- إنه جزار الأيدي، ألقوا القبض عليه!

أمسك اثنين من أفراد الأمن بالرجل الذي تذكَّر، تعلو الصدمة قسماته، وتُعجزه عن الكلام والحركة، من الذي دسَّ هذه الأطراف المبتورة في غرفته؟

تلاقت نظراته نظرات الفكرة الخبيثة التي تأبى الاستسلام، وتتشبَّث برأسه في إصرار. ككل الأفكار التي تأبى الرحيل، أرادت أن تخمش أظفارها في رأسه، تؤذيه بعد أن امتهنَها، ولم يُبدِ لها احترامًا يليق بها.

وقف «نزيه» بالدبابة السوفيتية، لا يتوقف عن التقاط الصور، وقد سال لعابه فوق الخبر المثير لشهيته.

أطلقت «أنهار» شهقة هلع، تُنقل أنظارها من الفستان الذي تحول إلى خرقة، وما حواه من أطراف بشرية، إلى وجه الرجل الذي تثق أنه بريء من التهمة المنسوبة إليه. صاحت «أنهار» في وجه الضابط:

- انتظر، هناك خطأ، ليس هو المجرم بالتأكيد، هناك من دسَّ له هذه الأدلة في غرفته.

لم يفلح استجداؤها للضابط الذي ظنَّ أنه قبض أخيرًا على المجرم، الذي روَّعت أفعاله سكان القاهرة، إذ تلقى إخبارية من امرأة مجهولة قبل ساعات من كابينة ميناتيل، قدمت بلاغًا متضمنًا اسم المجرم وعنوان البنسيون الذي يقيم فيه، ورقم غرفته. لا بُد أن نجاحه في القبض على المجرم سيستلزم ترقية كبيرة، لذا لم تكن قناعات «أنهار» لتنجح في تحطيم صورة النصر التي كان قد علّقها بالفعل على جدران خيالية.

وقفت صاحبة البنسيون في المطبخ، تُعد «طاسة الخضّة» النحاسية المصقولة المقعرة، ذات الشناشيل، مكتوب عليها آية الكرسي والمعوذتان والفاتحة، تضع بداخلها سبع تمرات، وتبلها بالماء، ثم تشرب خلاصة النقع، للتداوي من الخوف الذي شعرت به قبل قليل.

قفزت «عجب هانم» فوق كتف صاحبة البنسيون، من نافذة المطبخ تودع من رحل من النزلاء، وتستقبل القادمين، تغرز أظفارها في لحمها، تتشبث بها، تسيطر على إرادتها، ككل فكرة مسمومة تأبى الخروج من رأس صاحبها!

***

- هذه ليست النهاية.

قالها الرجل الذي تذكَّر، وهو يقف في قاعة محكمة الأمور المُستأنفة، بعد أن صدر الحُكم النهائي بحقه، في التهمة الموجهة إليه بالشراكة في الجريمة.

تولَّد لديها حِس مشؤوم، قض مضجعها طوال أسابيع، أنها لن تراه مرة أخرى، وليلة أمس لم تغفل لها عينٌ. لم تكن كلماته المُشبعة بالأمل حصنًا منيعًا ضد أشباح اليأس، وأنصال التعاسة، التي تكالبَت على «أنهار» في تلك اللحظة.

أدهشها ثباته ورصانته في الحديث، ما الذي يمنعه من الانهيار وقد حُكم عليه للتو بالإيداع داخل مصحة حكومية للأمراض النفسية والعقلية؟

ذلك هو أقصى ما استطاع المحامي الذي كلَّفته بتولي القضية الإتيان به من عقوبة مخففة، ولم يكن من الصعب إقناع الأطباء النفسيين الثلاثة المنتدبين لفحصه، وإعداد تقرير مفصل عن حالته العقلية والعصبية، أنه يعاني اضطرابًا خطيرًا، إذ ظل يؤكد أنه مسافر عبر الذاكرة، جاء من بوابة الزلزال الأخير، بعد أن جاب الأزمنة بشخصيات مختلفة، يتلبَّسها كما يرتدي الواحد منا ثيابه. أخبرهم عن اختراعات مستقبلية، وتطورات تكنولوجية لم يسمعوا بها من قبل، ولم يتخيلوها في أكثر أحلامهم شططًا.

ورغم أنه أنكر بشدة كونه «جزار الأيدي»، فشل في إقناعهم أن المجرم الحقيقي ليس إنسانًا، بل فكرة! فكرة واحدة خبيثة كافية لتدمير الأرض ومن عليها، إن لم تجد من يردعها.

قرر القاضي الذي نظَر في قضيته إيداعه المصحة إلى حين علاجه، وأن تُحتسَب المدة التي قضاها، وتُخصم من مدة العقوبة التي سيقضيها في السجن حال شفائه.

قالت «أنهار» مطرِقة الرأس، متهدِّلة الكتفين، بصوتٍ واهن، مسموع بالكاد:

- المصحة أفضل من السجن على أي حال.

محمولة على أجنحة الحزن، ودَّعته قبل أن يسوقه العسكري خارج القاعة، انتظرت في الممر إلى أن عُهِدَ به إلى عسكري آخر، ساقه هذه المرة إلى سيارة بالخارج، ستحمله إلى المصحة. لتكتمل بذلك دورة الحكاية، في النقطة نفسها التي انطلقت عندها من خط البداية.

توقف قبل أن يتخذ مقعده في عربة الترحيلات، يومئ للعسكري كي يُفسح له المجال لثوانٍ، كانت كافية، ليرمق «أنهار» مودعًا، مبتسمًا، وموصيًا:

- انتبهي لنفسك، حتمًا سأعود، انتظريني.

لا يخالجها شك أنه سيقف خلف كلمته. أصبح لها شمسًا، تميل معها كما تميل زهرة الدوَّار، حتمًا ستنتظر. ستُراسله، وتُكاتبه، وتبعَث له بأجمل صورها، وآخر مقالاتها. لن تكتب حرفًا عن حكايته، وإن كتب كل زملائها، ستحافظ على هذه القصة خاصة، غير مشاعة، وأبدية. لن تُحولها أبدًا إلى خبر في جرنال، يقرؤه الناس، ثم يدشُّون فوقه فحل بصل مع طبق فول بالزيت الحار.

جذب العسكري ذراعه، فمال صوبها يُلقي بكلمته الأخيرة:

- السادسة والنصف صباح الأربعاء، 22 نوفمبر 1995، تذكري هذا التاريخ جيدًا.

رمقته ملء دهشتها، تسأله عن السبب. أردف هامسًا:

- إنه تاريخ العودة.

- زلزال جديد؟

- نعم، يجب أن أهرب من المصحة قبل أن تبدأ الهزة، أثق بكِ يا «أنهار».

أومأت برأسها، تكتم عبرة كادت أن تفصح عن نفسها. ما إن ابتعدت السيارة آخذه في التصاغر حتى أفلتتها، غير خجلة من هشاشتها.

# (43)

# الأربعاء - 22 نوفمبر - 1995م

غرزة وراء غرزة، بخيط ثخين نبيذي، تتسلق الصفوف بعضها، ويستطيل الثوب أكثر، ليشمل ذراعين، وساقين، وصدرين.

كل ليلة، تحيك غرزة واحدة، أو اثنتين، لا أكثر من ذلك ولا أقل، مدفوعة إلى ذلك، مرغمة، كأنها مسيَّرة، غير مخيَّرة.

ذبل عنادها، سُحقَت مقاومتها، أمام إيمان الرجل الذي تذكُر. لم يدع أيامه بالمصحة تمر هباءً، كسنوات عمره السابقة التي أمضاها فيما لا ينفع، يُناطح هذا ويُناكف ذاك، ويتقلَّد أوسمة زائفة في معارك وهمية مستنزِفة.

استغرق في قراءة الكتب النافعة في مجالات شتى، التي يحبها، وتلك التي ما كان يقربها. ولأول مرة في حياته، يشعر أن الأفكار تتشكل في رأسه بلا تشويش متعمَّد، بلا تحريض خارجي. لم يغفل غذاء روحه، أمدَّه بتلاوات خاشعة، رققت قلبه، وكفَته ما أهمه.

عزز من نقاط قوته، وفتَّش عن نقاط ضعفه، خالط المرضى في المصحة، والأطباء، والممرضين، وعمال النظافة، والحرَس، تعلم كيف يُنزل الناس منازلهم، ويُخاطبهم على قدر عقولهم. تعلم من حكاياتهم، كأنه عاش مائة عمر فوق عمره.

نظم لنفسه روتينًا إلزاميًا، اهتم فيه بصحته البدنية، ودقق في نوعية الطعام الذي يدخل جسده. كلما شعر بقوته الذهنية، أحسَّت هي بالهشاشة والانكماش. أخبره طبيبه أن الأفكار الهدامة لا تُهزَم بالمطارق، ولا تُرغَم على مغادرة الرأس بالقوة، هزيمتها تكمن في مزاحمتها بأفكار بناءة، كما ينجلي الماء الآسن بزخات المطر.

وفي الزيارات القليلة المسموح بها، كان يتقاسم كسرات الأمل مع «أنهار»، ينسجان الغد، ويأملان في عالم أفضل.

غرزة وراء غرزة، بدقة وتفانٍ، بإخلاص وإتقان، إلى أن اكتمل الثوب المرغوب، صبيحة اليوم الموعود.

في المصحة، كانت ثمة «عنايات» لا تقبل الرشاوى لكنها ترحب بالإكراميات، وطباخ لا تعنيه كثيرًا المسميات. كاميرات تعطلت -عمدًا هذه المرة-، وعربة نصف نقل تُستخدم لتوصيل الخضار.

التقت آخر نقطة في الدائرة مع النقطة التي تفجرت عندها الأحداث، هكذا تلف الحياة لتقضم ذيلها، هكذا يدور التاريخ.

ساعدته «أنهار» على نزع جوال الخيش الذي اختبأ بداخله، لؤلؤة تلتقط أنفاسها الأولى بعيدًا عن سجن المحارة البارد المظلم. حضرَت «الفكرة» مرغمة، مسلوبة الإرادة، بعد أن طافت الشوارع والحارات، نامت في الميادين والإشارات، دون أن تجد رأسًا يقبَل بها، ويفسح لها مكانًا بين بنات أفكاره، ككل الأفكار المنبوذة.

مرّت على الفاخورة، رأت الفخراني الكبير مطمئنًا، يستهل مع الحياة صفحة جديدة. تفاقم عليه الألم، لتشنُّج ألياف جاما العصبية، المرض الذي يُعرف بـ «تشنُّج الحرفيين»، رغم ذلك لا يزال جالسًا أمام الدولاب، قدمه تدير العجلة، ويده تنحَت فخاريات جديدة. يضيف إلى الألوان التقليدية أخرى حديثة، مثل الأكاسيد، والطلاء بالجبس، والضي الذهبي والفضي. ومن أجل ذلك اشترى السلقون[1] ونترات الفضة من أحد المستوردين الكبار. بات يستخدم الفخار غير المحروق للكتابة، يسرد فوقه حكايات تاريخية مدهشة، عن رحلة الإنسان ومعاناته. كثر زبائن الفاخورة، بعد فترات الركود الطويلة. بدا مطمئنًا دونها.

استدعاها الرجل الذي تذكَّر، بقدراته الذهنية وإرادته الحرة، لتلقى مصيرها المعلوم، حيث تذهب كل الأفكار المنزوعة من الوجدان. كلما استمسك بهويته، انعكس هذا عليها ضعفًا وهشاشة. ارتديا الثوب معًا، ضاقت الغرز

(1) أكسيد الرصاص الأحمر.

أكثر، تشد على الفكرة بقوة، تعتصرها، وتُرغمها على التصاغر، والانكماش. ضاقت الغرز أكثر، إلى أن انتهت الفكرة إلى سراب، كأنها لم تكن.

تقف «أنهار» على بُعد متر واحد، بدهشة من يشهَد معجزة، وقد أوشكت على اختبار نظريته عن بوابات الزلازل، التي تُنقله من زمن لآخر، في مهمة جليلة، للبحث عن الإنسانية الضائعة.

أشارت ساعة معصمها إلى التوقيت الذي حدده بدقة، السادسة والربع صباحًا، عندئذ تزلزلت الأرض أسفل أقدامهم، بقوة أخف من زلزال 1992 قبل ثلاث سنوات. وقفت ذاهلة، ترنو إليه بعينين دامعتين، تنطقان بشوق ما قبل الفراق. منحها البسمة التي اعتادت، والنظرة التي أحبَّت، ثم همس من غير صوت، بكلمات قرأتها فوق شفتيه:

- هذه ليست النهاية.

قبل أن تنتهي الهزة، انفتحت بوابة الذاكرة على مصراعيها، طاقة نور، امتصت رجلًا يرتدي ثوبًا من الصوف، يتسع لجسدٍ واحد.

ترمقه في لوعةٍ، امرأة طاعنة في الحب.

***

رغم النجاح المزدوج الذي أحرزه «نزيه» في الدقيقة تسعين من المباراة، عندما صوَّر «عجب هانم» من حيث لا تشعر، صار شريط الفيديو كارثًا كاسدًا بين يديه.

لم يصدقه أحد؛ لا رئيسه، ولا زملاؤه في الجرنال، ولا حتى أخوه ضابط قسم الجمالية. سخر الجميع من حكايته عن القطة التي تتحدث، في بنسيون قديم ببطن البقرة بالفسطاط.

زعموا أن ما سجَّله على شريط الفيديو ما هو إلا خدعة سينمائية ساذجة كالتي تُشاهد في الأفلام، وأن صوت القطة التي تشارك «نزيه» في الحوار ما هو إلا شخص يقف خلف الكاميرا يتحدث بصوت أنثوي ممطوط. وأن القطة التي يزعم أنها عجيبة ليست أكثر غرائبية من أي قط بلدي ينام على الرصيف.

لم يستطع «نزيه» أن يقدم ما يثبت حكايته، وبخاصة أن السيدة صاحبة البنسيون طردته شر طردة بعدما اكتشفت تسجيله من غير إذن.

ورغم بحثه الحثيث عن «زعفران» الذي اختفى فجأة من المصحة، لم يتمكن لا هو ولا رجال البوليس من العثور على أثر واحد يقودهم إليه، كأنه تبخَّر في الهواء.

وقف «نزيه» أمام البنسيون، يُلقي نظرة أخيرة على صفحة «عجب هانم» وحكايتها التي تُركت بنهاية مفتوحة. مط شفتيه منزعجًا من الخيط الذي انقطع، دون أن يقوده إلى صيد ثمين، ثم دار على عقبيه، متوجهًا إلى رحلة صيد جديدة في ربوع القاهرة، وأزقتها، التي لا تنفد حكايتها العجيبة أبدًا.

# (44)
# الرجل الذي عاد

نحن الأفراخ التي تتربى في حظائر الموت، مستقبلنا الوحيد، هو الاستثمار فيما بعد الموت.

تلك كانت أول فكرة تنبثق من عقله بعد استعادة الوعي. في اللحظة التي فتح فيها عينيه، ظنَّ الرجل الذي عاد أن زلزال النسيان قد عصف به مرة أخرى؛ الماضي يبدو باهتًا، وبعيدًا عن مرمى الذاكرة. عندما شرع في الحركة، تسرب الماء إلى فمه، فكادت رئتاه أن تتشبعا به، عندئذ أدرك أنه ينام عائمًا بظهر مستقيم فوق سطح الماء، فيما بدا له للوهلة الأولى بركة، تبيَّن بالتدقيق أنه مسبح صغير، استطاع بنظرة واحدة تمييز المادة التي صنعته، إنها الفخار.

الماء يتذكر كل شيء. بدت له هذه المعلومة غريبة حين سمعها أول مرة، كيف تكون للماء ذاكرة؟ كان قد درس في فصل العلوم قدرة الماء على الاحتفاظ بمعلومات عن المواد التي أُذيبَت بداخله. ذاكرة الماء، كانت مجرد نظرية غير مقبولة في كثير من الأوساط العلمية. ما كان بإمكانه عدم الربط بين فكرة الذاكرة المائية ووالدته التي كانت تقرأ له الرقية على الماء، يشربه ويغتسل به بنية الاستشفاء.

بدَت له الفكرة مستساغة إلى حد معقول. للماء ذاكرة، ليست قادرة فحسب على تذكر المواد التي خففتها، بل لها قابلية على الاحتفاظ بالكلمات التي قُرئت عليها!

عندما كان صغيرًا ابن التاسعة، سمع لأول مرة عن تطور بحوث العلماء في هذا المجال، الذي مكَّنهم من اكتشاف لغة الماء، والتواصل معه، لتحويل

ما يحتفظ به من معلومات في ذاكرته إلى لغة تتمكن الحواسيب من فك شفرتها، وتحويلها إلى لغة بشرية يمكن فهمها.

الماء الذي يحتفظ بالكلمات التي سمعها أعدّه العلماء أقوى أرشيف عرفته البشرية، أكثر شمولية من الموسوعات والمراجع، أكثر دقة من الكتب، وأكثر أمانة من الذاكرة البشرية. التاريخ لا يكتبه المنتصرون، بل من يملكون القلم، والبندقية، والأبواق العالية.

ها هو يعود من المغامرة التي باع كل ما يملك ليدفع تكاليفها المادية. رحلة عبر ذاكرة الماء.

امتدت له أيادي الحاضرين تنتشله من المسبح الفخاري، كان مغرمًا بقدرة مسام الفخار على حفظ توازن الماء، وخواصه، وبرودته، وإبقائه نقيًا صافيًا. صداع عميق ألمّ برأسه، وحجب عنه فحوى الحديث الذي يدور من حوله. امتدت له أيادي المطببين بقرص عجيني، أمروه بابتلاعه مع شربة ماء بارد من بطن الزير، لم يكد يصل إلى معدته حتى انقضى الصداع في لمح البصر.

- هل أنتَ بخير؟

رفع رأسه باحثًا عن السائل: رجل مهيب، عظيم الهيئة، يرتدي معطفًا مقلوبًا من الحرير الأبيض، رأسه مزيّن بتاج من ريش البوم الثلجي الذي اختاره علماء هذا الزمن رمزًا لهم، له لحية نابتة، طويلة وبيضاء، يمسك بين كفّه أداة فحص متطورة من معدن الهيماتيت، وضعها فوق نبضه، لتقرأ مؤشراته الحيوية.

لملم طاقته وازدرد ريقه، ثم نطق بكلماته الأولى من بعد العودة:

- رأسي مشوش.

مسح المطببين فوق رأسه بسائل لزج شفاف، أثارت برودته رعدة في جسده. دنا منه العالِم ذو المعطف المقلوب، فتنحى الجميع خطوات للخلف، مفسحين له الطريق كملك في قومه، ثم قال بلُطف أبوي:

- سبق أن شرحتُ لكَ الآثار الجانبية واردة الحدوث لتلك الرحلة، قليل من الراحة وستستعيد صفاء ذهنك.

بدا له العالِم الجليل كحذاء جلدي ثخين، عالي الرقبة، وقوي، ومتين، يتميز بنقائه ونعومة ملمسه! هكذا كان يحلو له في صغره، تقسيم الناس حسب مختلف أنواع الأحذية، وإيجاد الصفات المشتركة لكل نوع منها، كهواية مسلية، كما كانوا يقسِّمون قديمًا حسب الأبراج.

وضع العالِم أداته المطورة بتقنية النانو فوق جبهة الرجل الذي تذكَّر؛ أذابت في الحال الختم الزعفراني، أو تذكرة الرحلة كما يروق له أن يسميه، الذي يُختَم به كل مسافر. مكون من مزيج متجانس من الماء ومواد أخرى، تُمكِّنهم من قياس المؤشرات الحيوية للعنصر الذي يخوض هذه الرحلات الاستثنائية، تسجِّل بدقة كل ما تراه وتسمعه وتشعر به. احتفظ بالسائل المذاب في أنبوب اختبار شفاف، حركه في الهواء قائلًا:

- الآن بإمكاننا فصل الماء عن المواد الأخرى، واستخلاص كل المعلومات التي سجلها عبر الرحلة، قد تظن أنك الطرف الوحيد المستفيد هنا، لكن نحن العلماء نسعى إلى شيء أسمَى.

رنا إلى الأنبوب مردفًا:

- لم يعد بإمكاننا الثقة بالكتب، تلوَّث التاريخ وتزيَّف في ذاكرتنا وعلى الورق، هدفنا المقدس من مشروع ذاكرة الماء هو: جمع التاريخ الحقيقي من جيوب الزمن، لقد أفدتنا كثيرًا، سنتمكن من إجراء عدة تحسينات على الرحلات القادمة، لن يُعاني المسافر مرة أخرى خللًا في الذاكرة.

ثم شرد بذهنه وقال كمن يحمل على عاتقه همًّا ثقيلًا:

- النسخة القادمة من البرنامج ستكون خاصة بتدوين التاريخ الحقيقي، عندئذ سيقع على عاتقنا تغيير مسار الأحداث، نحن مدينون بذلك، الحياة لن ترحمنا إن لم نفعل.

- كم استغرقت رحلتي؟

- ثماني ساعات.

الزمن نسبي. هكذا فكَّر الرجل الذي عاد، وهو يُصافح العالم الذي أهدى إليه فرصة العمر، بالتجول في أرجاء التاريخ الحقيقي للبشرية. لن ينسى

الحيوات التي اختبرها، ولا الخبرات التي اكتسبها، والأهم، لن ينسى أن كل إنسان خُلق لهدَف، لأداء مهمة تُثري العالَم وتُنقذ البشرية. لقد بات الآن مؤمنًا أكثر من أي وقت مضى أن أسمى الأعمال وأجلّها هي مقارعة الفكرة بالفكرة.

***

وقف فوق سطح المبنى يغرف من اللون الثلجي للسحب، يغتسل داخليًا. برقَت السماء وأرعدَت، فابتسم إذ لاح بخاطره كيف أن البرق الذي كان يراه مخالب الشيطان بات الآن يشهَد فيه إبداع الصانع وعظمته.

لا قمر في السماء، اكتسى العالم بقبة معدّلة للطقس، وضابطة لإيقاع اليوم، اليوم كله نهار وعمل، لزيادة معدلات النمو والإنتاج، هكذا أفتى خبراء الإدارة العالمية للاقتصاد. اشتاق إلى القمر من الآن.

- كنتُ أبحث عنكَ.

اقتربت منه امرأة رخيمة الصوت، شُبّهَت له بحذاء أسود عالي الكعب، مُطعَّم من أحد جانبيه بالدانتيل، يرتفع بخيوط تلتف بشكل متداخل على ربلة الساق إلى منتصف ما أسفل الركبة. اتسعت ابتسامته، واعتدل في وقفته، يقول بلهفة:

- وأنا كنتُ أبحث عنكِ.

عندما أتى إلى الشركة أول مرة، كي يتعاقد على تلك الرحلة، بدا في عينيها كسنجاب كبير، فَظ الهيئة، غليظ المشاعر، كم تكره السناجب. أما الآن، صار كل شيء مختلفًا، بعدما خاضا معًا هذه النزهة الفريدة في أروقة الزمن. هو كعنصر موضع اختبار، ينشطر عن فكرة تسلّطت عليه، وهي كمراقِب على التجربة، يقيس العلماء معدلاتها الحيوية للمقارنة، والمقاربة، والتحكم، كالخط الثابت في الاختبارات المنزلية. هو كرجل فاقد الذاكرة، يحلو لها أن تدعوه «زعفران»، وهي كصحفية تعاني عقدة طفولة، تعرف نفسها باسم «أنهار». وقد كانت قبل ذلك فراشة زرقاء وبائعة تفاح!

لم يُميّز وجهها العجيني، تعرّف على صوتها، ودَّ لو كان «عمى الوجوه» مرضًا طارئًا متعلقًا بالرحلة كفقدان الذاكرة. قال غامزًا:

- قلتُ لكِ إن هذه ليست النهاية.

- لماذا لم تخبرني بالحقيقة يوم حبسك؟ لماذا تركتني أعيش ثلاث سنوات في الوهم؟

تذكر الشوق الذي كانا يغزلانه، غرزة وراء غرزة. موعد الزيارة الذي ينقش تاريخه فوق جدران غرفته، رسائلهما الطويلة المحملة بأحبار الأمل، وصورها التي تختار كادراتها بدقة، توثق الجمال، ولا شيء سوى الجمال.

- لأنه كان جميلًا.

امتدت يد الريح تُحرك شعرها الطويل، الذي عمل كخطاف، علقت عيناه في أطرافه، لم يحب شعرها القصير قط. قال:

- العالِم الجليل سيُعد مؤتمرًا مهمًا في المساء، ليعرض فيه تفاصيل وأهداف المستوى الثاني من الرحلة، لقد دعاني للحضور.

لا يزال يحمل لها المشاعر نفسها التي اختبرها كـ «زعفران»، أثرًا جانبيًا متوقعًا ومعلومًا. الحياة أحيانًا تنسج من الصُدف أثوابًا جميلة، تليق بنا، وعلى مقاس قلوبنا.

أو كما يقول العالم الجليل، الصدفة ابنة القدر. اجتماع كل هذه العناصر في مكان واحد كالبتسيون، وتقاطع دروبهم، وتشابك حيواتهم لتغزل نسيجًا واحدًا، كان مقدرًا لاكتمال الرحلة، كانجذاب برادة الحديد للمغناطيس.

- أنا أيضًا مدعوة.

شعرت أنها ستفتقد «أنهار» كثيرًا، تلك الشخصية التي تلبَّستها فيما بدا لها عُمرًا كاملًا. صحيح أن واقعها مختلف عن حياة «أنهار»، ومشكلاتها لا تُشبه مشكلات «أنهار»، إلا أنها تعلمَت أن للألم روافد كثيرة، ومنبعًا واحدًا، فكرة تتسلَّط علينا كالعلقات، وتتغذى على آمالنا كالطفيليات، لا عائل لها سوانا. الحياة فِعل مقاومة، عليها أن تكون مثل أشجار «المانجروف»[1] حارسة الطبيعة، التي تعيش رغم تجذُّرها بالقرب من الماء المالح.

عقد ذراعيه أمام صدره. قال مبتهجًا:

- نظرًا لما أبديته من قدر معقول من القوة النفسية والذهنية لتحمل السفر عبر ذاكرة الماء، تلقيتُ عرضًا بخوض رحلة في المستوى

(1) أهم أشجار البحر الأحمر.

التالي، هذه المرة لجمع الأحداث والإنسانيات التي نسيها الجميع، يُسميه العالِم الجليل «مشروع خزنَة التاريخ»، يبدو أنني على وعد مع الختم الزعفراني مرة أخرى.

اتسعت ابتسامتها تقول:

- تلقيتُ عرضًا مماثلًا، هذه المرة ليس كمراقِب محايد، بل كعضو مشارِك.

راح يفكر في كم العلوم الإنسانية التي يُمكن استخلاصها من مياه نهر دجلة -لو اكتشف العلماء أن للماء ذاكرة بصرية- الذي أغرق المغول فيها أعظم مؤلفات «بيت الحكمة» وأقيَمها. سألها وهو العارف بالجواب:

- وماذا كان ردُّك؟ هل ستقبلين؟

أجابت تستنطِقه بالسؤال:

- ماذا قررتَ أنت؟

- أخبرِكِ في الحقل يا «سوار العسل».

أسعدها أنه لا يزال يتذكر اسمها، رغم أنها لم تلتقِه سوى مرة، تعارف بسيط قبل الرحلة. أكدَت:

- موعدنا المساء إذن.

فارقته على موعدٍ باللقاء، فوق جسر صنعته تجربتهما المشتركة. رمى نظراته في أحضان الأفق، مرَّ بخاطره أن يتساءل: هل الزلزال عقاب إلهي؟ ثم فكَّر، إنه أحد الابتلاءات التي تجري عليها حكمة الخالق، إما بتكفير الخطايا وإما برفع الدرجات، ليس بلازم أن يكون الزلزال عقابًا، قد يكون إنذارًا.

استقر في نفسه أن أعظم بناء تُشحذ القوى المعادية لهدمه، ليس الأبراج الشاهقة، ولا الصروح العظيمة، بل الإنسان نفسه.

رنا إلى الناس في الساحة الكبيرة، بملابس مقلوبة، امتثالًا لموضة العصر. أحدهم يقفز فوق نخلة عالية، متشبثًا بها بمخالب مصطنعة فوق أظفاره، يقطف الموز، يأكله ثم يلقي القشور على المارة وسط الطريق.

وآخر يزحف على أربع، فوق ظهره قبة مجوفة من العظام، يسير إلى الأمام ببطء شديد، ويرفع رأسه كالسُّلحفاة.

«كُن حرًّا، أخرج الحيوان الذي بداخلك!».

أكل الجميع من سلة الحرية تفاحًا فاسدًا، حوَّلهم إلى مسوخ بشرية، لا هم بالحيوانات، ولا هُم على درب الإنسانية. حالة متفشية من «اللاكتريا السريرية»، يتوهم المريض خلالها أنه تحول إلى حيوان، هلوسة وجودية غذَّتها الدعاوى العالمية لحرية التحول، واستحسانه. هزَّة فكرية، قوبلَت بالنفور في البداية، وبجهود تسويقية من خبراء «فن صناعة الفكرة»، تسابقَت العقول لتتبناها.

رنا إلى امرأة قصيرة تدهن وجهها بطلاء أسود، ترتدي بدلة ضيقة من الجلد الأسود، تقفز هنا وهناك خلف كرة من المطاط، وتُمسك بين أسنانها بذيل طويل أعوَج. تذكَّر السيدة التي تركها خلفه، التي تحمل خلف عنقها ختم الرحلة نفسه، ولا تزال عاجزة عن السيطرة على فكرة مرضية زُرعت بعقلها، عن أصولها التي تعود إلى فصيلة القططيات، التي كانت مقدسة عند قدماء المصريين، فانضمَّت إلى الدعوات القائلة إن المرأة أصلها قطة، وعليها العودة إلى الأصول!

اقترب منه العالِم الجليل، يتأمل الناس -رخويات العقل كما يحب أن يدعوهم- من منظور المتفرج، حوَّلهم الانفتاح إلى شخصيات ميلودرامية تميل إلى التصرفات المسرحية، يلهثون وراء الشاذ من الأفكار، ويتزاحمون على درب الاعوجاج. لم يعد أحد يمارس سياسة تقليم العشب، انعزل الأخيار، وتركوا العالم مرتعًا للأوهام والأسقام.

ألقى السمع وشحذ التركيز، عندما قال العالم:

- لا نتذكر عند أي نقطة بالضبط بدأ تزييف الواقع، وتجريف الوعي، وصلنا إلى منحدَر فقدنا عنده بوصلتنا الأخلاقية، لم نعد نميز من العدو، ومن الصديق، تشوش إدراكنا بالكلية أمام الماكينة الإعلامية للكذب، التي لا تتوقف عن الترويج للقُبح الأخلاقي والتشوهات النفسية.

استعرَّ غضب الرجل الذي عاد، وتهيَّج وجدانه، طفق يضرب السور بقبضته، معنفًا خصمًا غير مرئي. يدقق في وجوه الناس، الذين انسلخوا من كل ما كانوا يتميَّزون به، مرُّوا بانسلاخات عدة، خسروا خلالها هوياتهم التي كانوا عليها، كانسلاخ الجراد من طور لآخر، بات للناس الوجه الجامد نفسه،

بلا مزية فردية، حتى عُرف أنه «**البلد الذي لأهله وجوه الجراد**[1]». تساءل الرجل الذي عاد:

- عندما انحرف القطار عن مساره في المحطات الأولى، لماذا لم يوقفه أخيار العالم؟

أطرق العالِم الجليل قليلًا، أفلَت تنهيدة، ثم أجاب:

- صرخنا كثيرًا، ولم يسمعنا أحد.

**تمت بحمد الله**

(1) ذُكر اسم هذا البلد في رواية "جثة في بيت طائر الدودو"، للمؤلفة.



للاطلاع على إصدارات أخرى للكاتب:

يمكنك زيارة صفحة الكاتب

على مـوقع عـصـير الكتب

